

المفوض عن الأئمة العريضة

(٨)

التربية وبناء الأجيال

في ضوء الإسلام

بقلم
أنور الجندى

دار الكتاب اللبناني - بيروت

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.

دار الكتاب اللبناني

بيروت - لبنان

ص.ب. ٣١٧٦ - برقية (كتائبان)

هاتف - ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧

TELEX No 22865 K.T.L

LE BEIRUT

التربية وبناء الأجيال
في ضوء الاسلام

أبعاد البحث ومضامينه

الصفحة

(أولاً) الدراسة التاريخية على المستوى الأفقي

٧	مدخل
١٩	الباب الأول : الغزو التربوي والتعليمي والثقافي
٢١	الفصل الأول : مدارس الإرساليات
٥٧	الفصل الثاني : التعليم الوطني

(ثانياً) الدراسة الموضوعية على المستوى الرأسي

١٠٩	الباب الثاني : واقع التربية الوافدة في العالم الاسلامي وآثارها
١١١	الفصل الأول : أوجه الخلاف بين المناهج
١٣١	الفصل الثاني : أوجه النقص في الاقتباس
١٥١	الباب الثالث : التربية والتعليم والثقافة في إطار الاسلام
١٥٣	الفصل الأول : التربية الإسلامية
١٨٥	الفصل الثاني : التعليم الإسلامي
٢١٩	الفصل الثالث : الثقافة الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل الى البحث

هناك سؤال يطرح نفسه في أفق العالم الإسلامي بقوة ، وتلح الأحداث المتصلة في طلب الإجابة عليه ، وهي تقدمه اليوم على كل سؤال ، هذا هو :
ما هو الخنجر الذي طعن به المسلمون ؟

لقد تحدث المصلحون عن مقاتل متعددة أصيب بها المسلمون في كياناتهم وركزوا على كل واحد منها على أنه هو الأساس والمصدر والهدف ، وترددت الإجابات بين سيطرة القانون الوضعي على الشريعة الإسلامية أو سيطرة الاقتصاد الغربي بشطريه على الاقتصاد الإسلامي أو سيطرة النظام السياسي الغربي على المسلمين أو سيطرة مفاهيم القومية والإقليمية والوطنية والعنصرية على مفهوم الإخاء الإسلامي .

ولكن امراً من ذلك كله لم يكن أشد خطراً من احتواء الركن الركين في بناء الامم : احتواء التربية والتعليم ، فذلك هو الخنجر الذي طعن به

المسلمون في كل هذه المقاتل وهو الذي يتحتم عليهم أولاً ان ينزعوه من جسمهم قبل ان يعالجوا هذه المقاتل جميعاً، ذلك لأن أي علاج يسبقه سوف لا يؤدي الى أي رجاء يرتجى بالبرء والشفاء ، ما دام قائماً ينزف دماً ، ولن يكون لأمر ما من إصلاح أو تصحيح أو تحرير أو علاج ، أي أثر حاسم قبل ان يبدأ العمل من نقطة الصفر الأساسية : وهي نقطة الخنجر المغروس الذي ما زال ينزف بالدم .

ذلك الخنجر هو في حقيقة الأمر : التربية والتعليم التي سيطر عليها النفوذ الاستعماري واحتواها وعندما انحسر ظله لم يسلمها الى أهلها مرة أخرى بل مضت تدار بإشراف اوليائه وتحت لواء اتباعه .

هذا هو الخنجر المغروس في الجسد الإسلامي والذي ما يزال ينزف دماً . ولقد كان المستعمرون غاية في الدهاء والمكر والبراعة عندما بدأوا معركتهم من المدرسة وعن طريق برامج التعليم ومن خلال الإرساليات التبشيرية التي سبقت ووضعت مناهج التعليم وألزمت وزارات المعارف والتعليم بأن تنقل مناهجها وتطبقها .

وقد استطاعت قوى الاستعمار ان تفرض هذه المناهج على المدارس الأميرية، ولم يسلم منها إلا قليل من المدارس الأهلية في مراحلها الأولى، ولكن ما لبث شبابها ان وضعوا في البوتقة عندما وصلوا الى الدراسات العليا الجامعية التي كانت في قبضة حديده من الاستعمار والتفريب حتى لا يفلت أحد من سيوكل اليهم أمر الصدارة والقيادة في المجتمعات الإسلامية .

وكانت المناهج والمقررات والكتب قد أعدت تماماً ، وكانت المناهج والكتب القديمة قد أعدمت تماماً حتى لم يبق منها أي آثار المراجعة التاريخية؛ ومن عجب ان داراً مثل دار الكتب المصرية وقد أنشئت قبل الاحتلال البريطاني لا تجد فيها ورقة تسجل المناهج أو المقررات التي كانت قبل الاحتلال.

هذه هي القضية كما يقولون : وإذا كنا نواجه اليوم مقاتل نازفة في مواقع خطيرة من فكرنا ومجتمعنا فلنما مرد ذلك كله الى هذا الخنجر المدفون في اعماق الجسم الإسلامي.

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في شريعتهم فاقصيت عن مجال التطبيق في مجتمعاتهم وحل محلها القانون الوضعي ، فإن مرد ذلك الى « التعليم » الذي خرج اجيالاً تحقر الشريعة وتؤمن بعظمة قانون نابليون ، وإذا كان المسلمون قد طعنوا في لغتهم وبرزت دعوى « العاميات » في مختلف انحاء الوطن العربي وأكرهت امم إسلامية كثيرة على تغيير ايجديتها فإن مرد ذلك الى مناهج التعليم التي خدعت العرب والمسلمين بدعوى عظمة اللغات الأجنبية ودخول « اللاتينية » الى المتحف فلماذا تبقى « العربية » المعجوز .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم الإسلامي للاقتصاد فلنما يرجع ذلك الى ان المسلمين والعرب درسوا في مدارس الإرساليات وفي المدارس الوطنية ايضاً ، وفي الجامعات درسوا أنظمة الاقتصاد الرأسمالي والماركسي على أنها هي وحدها الانظمة الموجودة في العالم ، وان الربا هو القاسم الأعظم على كل الأنظمة والمشروعات .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم السياسي الإسلامي فلنما يرجع ذلك الى تلك الصور البراقة التي قدمت لهم في مدارسهم وجامعاتهم عن الديمقراطية والليبرالية والجماعية وغيرها من أنظمة الغرب فخدعتهم .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفهومهم للعلم فلنما يرجع ذلك الى تلك المقررات المدرسية والجامعية التي ترد العلوم الحديثة من كيمياء وفيزياء وفلك وطبيعة وتكنولوجيا الى علماء الغرب وحدهم متجاهلة ذلك الدور الخطير الذي قام به المسلمون والعرب في بناء الطابق الأساسي الأول من مؤسسة العلم العالمية وأنهم هم الذين قدموا المنهج العلمي التجريبي الى البشرية كلها .

وإذا كان المسلمون قد طعنوا في مفاهيمهم الاجتماعية فإنما مرد ذلك الى مناهج التعليم التي تدرس المجتمعات الغربية ومنهج مدرسة العلوم الاجتماعية الذي يقوم على إنكار فطرية الاسرة وأصالة الدين وثبات الأخلاق ، وتدعو الى التطور المطلق والى الجبرية الاجتماعية ؛ كل ذلك يدرسه أبناء المسلمين في مدارسهم ومعاهدم وجامعاتهم على أنه حقائق مقررّة لا على أنها نظريات مؤقتة مرتبطة ببيئتها وعصورها ، قابلة للخطأ والصواب ، لأنها من نتاج عقليات بشرية تخطيء وتصيب .

هذا هو الخطر الواضح من وراء الخنجر الذي طعن به المسلمون ؟

ومفهوم هذا الخطر هو ان النفس الإسلامية في العالم الاسلامي كله من حيث إنها انحسرت في بيئتها مفاهيم الثقافة الإسلامية القائمة على القرآن والسنة وضعت فيها القدوة التي تبني للشباب فإنها تسلم الى المدرسة شباباً غصّاً ، يحس بالفراغ في مجال وجدانه وعاطفته وفكره ، فلا يجد الى مفاهيم الإسلام سبيلاً ، ثم إذا به يلتقي بتلك المناهج التي تصور له فكر الغرب على صورة العقيدة ، وتلأ نفسه بحب تاريخ الغرب وترفع في نظره شأن الغرب ، وتقدم له العلم والاقتصاد والقانون والاجتماع ، من نتاج مجتمعات اخرى على أنه هو الفكر الإنساني ، والثقافة البشرية .

وأين الفكر الإسلامي في ذلك كله والمسلمون لهم منهج حياة كامل ، ولهم مفهوم جامع للحياة والمجتمع ، والسياسة والاقتصاد والتربية ؟

هذا كله مما لا يزال ضائعاً ، ولا يزال ناقصاً ، ولا يزال مهملاً .

ومن هنا فإن هذه النفس المسلمة التي عجزت عن ان تملأ فراغها الروحي والفكري بمقدراتها وقيمها لا بد ان تملأ باي شيء ، ومما يقدم اليها زاهياً براقاً في كتب ملونة مزخرفة ، بينما هي تمعّج عن ان تجسد من فكرها ما يرد عنها الخطر أو يصحح لها الشبهات أو يزيح عنها ظلال التغريب والاحتواء.

تلك هي القضية الأولى في التحدي الخطير الذي يواجهه المسلمون اليوم في كل مكان ، ومن خلال هذه النقطة نصل الى كل قضية والى كل أزمة والى كل موقف .

فمن خلال الطريق الطويل استطاعت قوى الصهيونية والاستعمار ان تحقق ما وصلت اليه لأنها استطاعت ان تبث فكرها في النفس الإسلامية وان تحتويها وان تنقلها من دائرة الإسلام المرنة الجامعة المتكاملة الوسطية الى دائرة الغرب المغلقة القاتلة .

ومن هذه النقطة بالذات نستطيع ان نصل الى كل ما نطمح فيه من وحدة وقدم وقيام أمة الإسلام في أرضها بدورها الرباني الإنساني العالمي الذي هو فريضة محتومة والذي هو حق في أعناقنا جميعاً ، والذي يجب ان نلتقي عليه صادقين وإلا فنحن آثمون مقصرون مأخوذون بجريرة الذنب .

يردّ بعض الباحثين أزمة التربية والتعليم الإسلامية الى وصول الحملة الفرنسية أو الاحتلال البريطاني لمصر أو الفرنسي للجزائر أو الى محاولات محمد علي في الجري وراء التبعية الغربية تجاوزاً للأزهر وحججاً له ، ملتقياً في ذلك مع الفرنسيين الذين عرفوا مقاومة الأزهر ، وما عرفه محمد علي من معارضة علماء الأزهر وعلى رأسهم عمر مكرم لاستبداده واهوائه .

ولكن الأمر أبعد من ذلك كثيراً وأشدّ عمقاً .

ونحن نعرف ان معركة حاسمة دارت بين الإسلام والغرب في مواطن مختلفة ، جاءت باسم الحروب الصليبية في قلب عالم الإسلام ، عايشها المسلمون بالمقاومة والجهاد قرنين كاملين وانتهوا منها بالنصر المؤزر كما انتهى عدوم الهزيمة الساحقة ، ولم يكن هذا نهاية الشوط بالنسبة للغرب ولم يتوقف طموحه في السيطرة على ارض الإسلام وبلاد الإسلام .

ومن قلب الحروب الصليبية وهزائم الغرب نبت جذر تلك المؤامرة على أيدي المهزومين ؛ لقد نتجت عن الهزيمة فكرة خطيرة قالت هذه الفكرة : إذا لم يكن السيف قادراً على السيطرة على المسلمين فليكن ذلك عن طريق الكلمة ... كان المعروف ان المسلمين قد غلبوا الغرب ودحروه لأنهم متقدمون حضارياً وعسكرياً ، ومن خلال هذه المعارك انقض الغرب على ميراث المسلمين

ومناهجهم وعلمهم فاستوعبه ثم دك المعازل وأخرج منها أهلها واستولى على الجامعات والمعاهد والوثائق ؛ وقطع طريق العدوة بين المسلمين وأوربا .

ومع محاولات الغرب الى ترجمة الفكر الإسلامي والسيطرة على ارض هذا الفكر في الأندلس وإخراج المسلمين منها كانت وصية لويس التاسع هي الضوء الكاشف أمام الغرب حين قرر ان تكون الحرب الموجهة الى عالم الإسلام هي حرب الكلمة وحرب الفكر ، ذلك ان الغرب كان يعلم ان المسلمين لن يهزموا ولن يستوعبوا ولن يوضعوا في قبضة الغرب إلا إذا سقطت تلك المنارات العالية من مفاهيم الجهاد والمقاومة والحرية والتميز بالتوحيد والقرآن ، هذه العقيدة الراسخة كانت هي القوة الضخمة التي كونت عالم الإسلام ، وكانت ولا تزال وستظل القوة القادرة على دحر كل من يتصدى له .

إذن فلا بد ان تبدأ المعركة من هذه النقطة الخطيرة :

من نقطة تزييف العقيدة وامتصاص حيوية الدعوة ، وتفريغها من مضامين القوة والإيمان والجهاد حتى يفقد المسلمون هذا السر الخطير وحتى يصبحوا قطيعاً من السائمة التي يمكن ان تقوى وتقهّر .

هكذا كانت وصية لويس التاسع بعد هزيمته في المنصورة تكشف عن هذا التحول في الحروب الصليبية من السيف الى الكلمة ؛ وهو ما يمثل الموجة الاستعمارية العصرية . لقد كانت نهاية الحروب الصليبية بداية حرب الفكر والكلمة ، ومنطلق المخطط الجديد للغزو الفكري والثقافي ومحاولة دحر الإسلام (كفكر) بعد العجز عن القضاء عليه كقوة سياسية وامة قائمة .

وتعدّ وصية لويس التاسع أخطر وثيقة في هذا الاتجاه فهي التي فتحت الباب واسعاً أمام معركة قوامها [التبشير والاستشراق والغزو الثقافي والتغريب] وقد قامت على أثرها مباشرة حركة أوربا المعروفة الى ترجمة القرآن والتعرف على الإسلام ومن ثم أخذت تتشكل تلك النواة في المعاهد الغربية وفي الكنائس

عربي الى دراسة للغة العربية والإسلام والقرآن للكشف عن الجوانب التي يمكن الوثوب منها والبحث عن النقائص موضع الخلاف بين الفقهاء والمفسرين والروايات الضعيفة والشبهات وتجديد ما أفاوته الشعوبية والباطنية والقوى المعادية للإسلام وتنسيقه من جديد وإذاعته على أنه علم عصري يقوم على الدليل والبرهان .

وقد ظاهر هذه الحركة - لكي تتم محاصرة الفكر الإسلامي - عملية نقل التراث الإسلامي من البلاد العربية والإسلامية بواسطة القناصل والتجار ، وهي عملية استيلاء مكثلة لما تم في الأندلس من سيطرة على الجامعات والمعاهد وإخراج المسلمين منها ، على الرغم من قاعدة المسلمين الأساسية الواضحة التي كانت تؤمن بأن العلم للجميع ، حتى العلم التجريبي ، وليس من أسرار الأمم كما تصنع الدول الحديثة لتحول دون المسلمين خلال قرن ونصف قرن من الحصول على أصوله ومعادلاته مع أنهم هم الذين وضعوا أسسه وقواعده وساهموا في بناء ركائزه ومقوماته .

لقد كان المسلمون في جامعات الأندلس وصقلية يفتحون كل الأبواب للعلم ولا يردون غربياً عنه ، إيماناً بوصية دينهم ، غير أن الغرب في تناهي حقه وتعمصه لم يقف عند حد التوصل الى مفاتيح العلوم ، بل إنه صادر الموقع الإسلامي كله وأخرج منه أهله إخراجاً ، وسيطر على كل المقدرات العلمية ثم ادعاها لنفسه وأعلن تبجحاً ولؤماً وخسة بأن المسلمين لم يكن لهم أي دور في بناء العلوم . وقد صادر كل ما كان في أيدي المسلمين حين أخرجوا من بلادهم الى الحد الذي أعجزهم عن ان يستأنفوا تجاربهم في الارض العربية التي هاجروا اليها .

ولقد كانت نصيحة لويس التاسع ووثيقته التاريخية تدعو الى هذا الاتجاه وتروم خطواته .

لقد بلغ لويس التاسع درجة القداسة في نظر الغرب لأنه حارب من اجل إخضاع المسلمين فهزم في مصر وقتل في تونس ، وإذا كانت الحملات الصليبية قد توقفت منذ استبعاد المسلمون (عكا) بقيادة الأشرف خليل عام (٦٩٠ هجرية ١٢٩١ ميلادية) وعلى أثر ذلك قامت الدولة العثمانية الكبرى بعدتسع سنوات من سقوط الحروب الصليبية وهزيمة أوروبا وانحسارها عن بلاد الإسلام ، هذه الدولة التي استمرت قائمة تحمي لواء الإسلام وتذود عن كيانه حتى عام ١٢٣٧ هجرية الموازية لعام ١٩١٨ الميلادي أي انها استمرت تحمل لواء الإسلام خمسة قرون ونصف القرن .

نقول : إذا كانت الحملات الصليبية قد توقفت منذ عام ٦٩٠ هجرية فإن أوروبا لم تتوقف ، فقد بدأت حركتها كرة اخرى بعد وقت قصير حين تدافعت بعد سقوط الأندلس على الطريق الإسلامي الإفريقي من ناحية الغرب دون توقف: الاسبان والبرتغال ومن ورائهم الإنجليز والفرنسيون والهولنديون.

أما في أفق البلاد العربية فقد كان عام ١٧٩٨ هو علامة الخطر حين بدأت فرنسا في غزو مصر ولم تمر غير سنوات قليلة حتى كانت الحملة على الجزائر ، ومنها امتدت الى تونس فمصر والسودان ، ومنذ ذلك اليوم أخذت طلائع التبشير تظهر ، وطفقت حركة الاستشراق تزدهر ، وكانت بؤرة العمل هي ساحل البحر الأبيض الشرقي والجنوبي في مواجهة الشام من ناحية واستانبول من ناحية ومصر والجزائر من كل ناحية ونقلت المطابع وبدأت الإرساليات ، وتصارعت قوى البروتستانت الأمريكية وقوى الكاثوليك الفرنسية وقنافست على استيعاب أبناء المسلمين، ثم جاءت حكومات الاستعمار في كل البلاد العربية فأخذت مناهج مدارس الإرساليات ونفذتها توتاً .

وفي عديد من مصادر تاريخ اللاقاء بين الإسلام والغرب نجد إشارة الى وصية لويس التاسع الذي كان أول من أشار الى تجنييد المبشرين في معركة

الكلمة لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنوياً واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعركة جنوداً للغرب .

ومنذ ذلك الوقت اختيرت قاعدة العمل في قلب البلاد العربية واتخذت نقطة ارتكاز وممقلاً لمعركة العقائدية والفكرية التي تستهدف حصار الإسلام والوثوب عليه ، وقد اختيرت هذه الأراضي الممتدة على شاطئ البحر الأبيض الشرقي مسرحاً لهذا العمل منذ ذلك الوقت وتحركت أطراف العمل بين بيروت والقاهرة والقسطنطينية ؛ وفي نفس الوقت كان هناك عمل مماثل يتحرك في تونس والجزائر ومراكش وأعمال أخرى في مختلف اجزاء العالم الإسلامي وفي جاوه واندونيسيا والفيليبين .

ولقد سجل أحد الباحثين المشتغلين بالتبشير في أكبر مؤسساته هذه الظاهرة تسجيلاً صريحاً لا يدع معه مجالاً للشك الذي قد يراود بعض حسني الظن في صحة هذا المخطط وصدق الإرادة في العمل له .

ويصور (نبيه أمين فارس) خطة لويس التاسع ومداها في عبارات واضحة صريحة ؛ يقول :

« بينما كان الشرق الأدنى مطمعاً لأفكار بناء الامبراطوريات كان أيضاً مطمح انظار جماعة أخرى من الناس تنشده ان تنجز عن طريق الكلمة ما عجز اجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف . وبعبارة أخرى تنشده احتلال مهد المسيحية وإخضاع العالم كله للمسيح . إن هذا الحلم المسيحي قديم قدم المسيحية ذاتها ، وهو يستمد وحيه الدائم من الوصية التي سجلها أول المبشرين : (القديس لويس) ولعل سبب سيطرة هذه الوصية كره أخرى على عقول المسيحيين يعود الى اليقظة الدينية التي عمت انكلترا في اواخر القرن الثامن عشر واليقظة الدينية المقابلة لها في الولايات المتحدة التي تمثلت فيما سمي بروح انكلترا الجديدة . وعلى ذلك فقد شهدت السنوات الاخيرة من

القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر ظهور كثير من الجمعيات التبشيرية التي كرسَتْ نفسها لحمل الإنجيل الى جميع البشر ، ويمكن ان يضاف الى هذين العاملين عامل آخر هو ازدياد المطامع السياسية والاقتصادية في ممتلكات رجل أوروبا المريض (يقصد الدولة العثمانية الإسلامية) . ومن المحتمل ان يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختيار الشرق الأدنى ميداناً مفضلاً للنشاط التبشيري .

وهكذا نجد نصاً صريحاً واضحاً يكشف عن آثار وصية لويس التاسع التي دعت الى استعمال الكلمة بدلاً من السيف في السيطرة على عالم الإسلام . وقد كان ذلك عام ٦٤٧ هجرية تقريباً . وقد أشار كثيرون الى وصية لويس : يقول رينيه جروسيه مؤرخ الحروب الصليبية « إن الملك لويس التاسع هو في مقدمة ساسة الغرب الذين وضعوا للغرب الخطوط الرئيسية لسياسة جديدة » وان هذه السياسة تتمثل في تحويل الحملات الصليبية العسكرية الى حملات صليبية سلمية تستهدف الغرض نفسه وان يكون أحد أسلحة الحملات الجديدة هو الدس بين العرب وإثارة الخلافات والعمل على بقاء فارس مستعرة بين الأمراء المسلمين . ومن أهم أسلحة الحملة الجديدة تجنيد المبشرين الغربيين في معركة سلمية لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره والقضاء عليه معنوياً واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعارك جنوداً للغرب ، كما دعا الى استخدام من يمكن إغراؤهم من مسلمي الشرق في تنفيذ سياسة الغرب ، وإنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق العربي تكون بمثابة نقطة ارتكاز له ولدعوته السياسية والدينية ؛ ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه » (١) .

(١) راجع محمد علي الفتيت : كتاب الشرق والغرب من الحروب الصليبية الى حرب السويس (المرحلة الأولى) .

البَابُ الْأَوَّلُ
الْفَرْقُ التَّرْبَوِيُّ وَالْعِلْمِيُّ وَالنِّقَاطِيُّ

الفصل الأول

مدارس الارساليات

بدأ الغزو التربوي والتعليمي والثقافي للعالم الإسلامي من نقطة واحدة هي « مدرسة الإرساليات » وامتد منها الى الجامعة ، ثم امتد من الجامعة الى الصحافة ومجالات الثقافة المختلفة .

لقد اتخذت الإرساليات التبشيرية بناء على وصية لويس التاسع خطواتها في أوروبا للعمل في مواجهة الإسلام عن طريق الكلمة ثم اختارت الموقع الذي جعلته نقطة ارتكاز وانطلاق لدعوتها في بيروت التي أعدت لذلك إعداداً سياسياً واجتماعياً واضحاً .

ثم تقدمت الإرساليات على خطين : خط الإرساليات البروتستانتية الأمريكية ، وخط الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية ، ومن ثم وضعت فلسفة تربوية غربية ققراوح بين مذهبين مختلفين : هما في الأصل يستمدان أساسهما من المسيحية الغربية ولكنها يختلفان في الطريقة ويصلان في الفاية الى هدف واحد هو استيعاب الشباب العربي والمسلم واحتواؤه وتعليمه على نحو يجعله يداً من ايدي القوة الغربية وعيناً من عيونها .

ومن الناحية التاريخية يمكن القول إن بداية الغزو الغربي في مجال التربية والتعليم والثقافة بدأ في مصر بعد الحملة الفرنسية مباشرة وفي خلال حكم محمد علي وعن طريق الخبراء الذين استقدمهم هذا الوالي ، وكانوا من رجال الثورة الفرنسية ولهم مفاهيمهم التي صاغت هذه الثورة وفرضتها على فرنسا كمقدمة تفرضها على أوروبا جميعاً وعلى الفكر العربي كله .

ومن انطلاقة محمد علي الى سوريا وانحساره عنها كانت القوى الراصدة قد أعدت نفسها للعمل ، ووضعت لبنان في الظروف التي هيأتها للانفصال عن الدولة العثمانية ١٨٦٠ واستقلاله ومن قبل ذلك كانت بعثات التبشير قد ارتفعت وأعدت خططها ، وفي الجزائر كانت بعثات التبشير قد بدأت مع الاحتلال ١٨٤٨ تقريباً، أما في مصر فقد جاءت في عصر اسماعيل واستطاعت ان تحصل على الأراضي والمعونات وتركز نفسها كمقدمة لدورها بعد الاحتلال ١٨٨٢ . وهكذا انتشرت الخطة في رواق العالم الإسلامي كله وتأهلت للعمل الذي تركز أولاً واخيراً في السيطرة على التربية والتعليم ثم الثقافة من اجل احتواء الأجيال وإعدادها .

وعندما سيطر الاحتلال كانت مناهج مدارس الإرساليات سواء في استانبول أو بيروت أو القاهرة هي الخطط الأساسية التي نقلت الى المدارس الوطنية مع تعديلات يسيرة .

وعندما خرجت جامعات الإرساليات في بيروت أول افواجها بعثت هذه الأفواج الى مصر والى شمال افريقيا كله لتحمل لواء الصحافة . وليس بعجيب ان تكون الصحافة العربية كلها من إخراج المارونيين خريجي الجامعة الأمريكية وجامعة القديس يوسف .

وحق نقف على ارض صلبة في مجال البحث نشير الى ما أورده (نبيه أمين فارس) في وثيقته التاريخية ^(١) التي كشف فيها عن خطة لويس التاسع

(١) مجمع الابحاث : ايلول ١٩٥٨ م ١١ ص ٣٨٣ .

التي اتجهت اليها القوى الاستعمارية واتخذتها اسلوباً للعمل ؛ يقول :

من أهم الجمعيات التبشيرية التي ظهرت في هذه الفترة الجمعية التبشيرية الكنسية التي أسست في لندن ١٧٩٩ والمجلس الأمريكي لهندوبي البعثات التبشيرية ، وقد أرسل المجلس الأمريكي بعد تسع سنين من تأسيسه أول مبشريه الى الشرق الأدنى . وكانت المشكلة الاولى التي واجهت اولئك المبشرين هي اختيار مركز ملائم لهم . وقدم سوريا عام ١٨٢٣ مبشران آخران وانتقلوا الى بيروت ، وكان غرض البروتستانتين ان يتمكنوا بالاشتراك مع كنائس الشرق الناهضة من كسب الكفار الى دين المسيح ، غير أنهم سرعان ما وجدوا ان الإسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين . وصمم المبشرون منذ البداية على استعمال الكلمة حيث فشل استعمال السيف . وفي سبيل هذه الغاية أسسوا المطبعة الأمريكية أولاً في مالطة ١٨٢٢ ثم في بيروت ١٨٣٤ ، وأخذوا يفتحون مدارس للبنين والبنات بصورة منتظمة حتى بلغ عدد هذه المدارس ثلاثاً وثلاثين في أقل من هذا العدد من السنين ، وعكفوا على إنجاز تلك المهمة العظيمة : مهمة إعداد ترجمة عربية صالحة مقروءة للتوراة ، وعدوا فوق ذلك حمل لواء الحرية الدينية بصورة خاصة والمطلقة بصورة عامة ا.هـ .

ذلك هو المدخل الى مخطط غزو العقل العربي الإسلامي والنفس العربية الإسلامية عن طريق الكلمة وهو مدخل إن بدا يسيراً في هذه الفترة فإنه قد اتسع من بعد حتى سيطر على مختلف اجهزة التعليم والتربية والثقافة واحتوى الجامعات العربية والمدارس بأنواعها وحول مجرى الأمة كلها الى تبعية خطيرة.

بعد عام ١٨٦٥ علامة على بدء تنفيذ الخطة في بيروت بإنشاء أول مؤسسة ضخمة في قلب الوطن العربي يبدأ منها تاريخ الإرساليات :

يقول برهان الدجاني في بحثه المطول ^(١) : الجامعة الأمريكية في بيروت كانت تحمل اسم الكلية السورية الإنجيلية ، وكانت تعتبر عملها رسالة تبشيرية غايتها نشر المسيحية بالمذهب البروتستانتي ، ثم يقول الباحث : علمت المدرسة بالتجربة أن تأكيد الناحية التبشيرية من عملها قد ضيق حقل هذا العمل بحيث أصبحت لا تجتذب سوى قسم من أبناء المجتمع العربي وأصبحت علاقاتها بالأقسام الأخرى تنقسم بشيء من التوتر ، فالعلم يفرض ان يطلب لذاقه لما في جوهره من حقيقة لا تفرض غير العلم نفسه (ومن ثم) غيرت الجامعة اسمها التبشيري وتنازلت عن مهمتها التبشيرية الخاصة مع احتفاظها ببعض الاشكال الموروثة عن ذلك العهد التبشيري (وهي بذلك) تتميز عن الجامعة الغربية الثانية في الوطن العربي [جامعة القديس يوسف] بأنها بروتستانتية المذهب انكلو سكسونية الاتجاه الفكري ، بينما تلك كاثوليكية المذهب لاثنية الفكر ، أصبحت تختلف عنها أيضاً من حيث التكوين فاتجهت الجامعة الأمريكية الى المجتمع العربي كله (ومن ثم) حلّ التعليم الحر محل الرسالة التبشيرية .

(١) البحث نشر في صحيفة الجامعة الرسمية (الابحاث) ١٩٥٤ .

«الجامعة الأمريكية مؤسسة خاصة وهذا سر تفوقها على المؤسسات الحكومية وقد أخذت عنها الجامعات الوطنية تراثها وايضاً مناهجها» .

ويشير نبيه أمين فارس الى تاريخ الجامعة الأمريكية فيقول : لقد رافقت الجامعة المتاعب السياسية خلال الاستبداد الحميدي وعصبية رجال تركيا الفتاة هذا بالإضافة الى (المنافسة التي تواجهها الجامعة من قبل اختها الصغرى : جامعة القديس يوسف الجزويتية في بيروت ومن قبل سبع جامعات وطنية في مختلف البلاد العربية منذ الحرب الاولى) . ويقول « لقد ظلت الجامعة الأمريكية في بيروت حتى نهاية الحرب العالمية الاولى هي المثالية الوحيدة في العالم العربي للثقافة الجامعية الغربية عامة والأنكلو سكسونية خاصة وكانت منافستها الوحيدة هي جامعة القديس يوسف » .

فمنذ عام ١٨٦٥ الى ١٩١٨ وهي نهاية الحرب العالمية الاولى كانت الإرسالياتان الفرنسية والأمريكية تعملان في بيروت أي خلال فترة لا تقل عن خمسين عاماً وهما تقفان للشباب المتعلم وتتوزعانه قبل ان تكون هناك جامعة عربية .

وقد أكدت الجامعة الأمريكية خطتها عام ١٨٧١ على لسان راعيها (دانيال بلس) حين قال : [إن هذه الكلية مفتحة الأبواب لكل الناس على اختلاف ظروفهم وطبقاتهم دون أي اعتبار للون أو لتابعية أو لجنس أو لدين ، وبإمكان كل إنسان سواء كان أبيض أم اسود أم اصفر ، سواء كان مسيحياً أم يهودياً أم محمدياً أم وثنياً ان يدخل هذه الكلية ويتمتع بكل ما تقدمه هذه المؤسسة من خدمات مدة ثلاث أو اربع أو ثمان من السنين ، ويخرج منها مؤمناً بالله واحداً أو بآلهة عديدين أو غير مؤمن بأيّ إله ، ولكن يستحيل على أي إنسان ان يعيش بيننا مدة متطاولة من الزمن دون ان يعرف ما هي الحقيقة التي نؤمن بها وما هي أدلتنا وحججنا التي نبني على أساسها إيماننا هذا » .

ثم يصل نبيه أمين فارس من إيراد هذا النص الى القول : بأن الجامعة الأمريكية هي في وقت واحد : مسيحية وأمريكية وعربية .

فهي (مسيحية) من حيث إنها كانت ولا تزال تعبيراً حياً عن الخدمة والتضحية المسيحية ومن حيث سعيها لخدمة الله عن طريق خدمة عباده .

وهي (أمريكية) من حيث كون معظم مآلياتها تعتمد على المساعدات الأمريكية بل لكونها التعبير الحي عن خير ما في التراث الأمريكي من مثل عليا أساسها خدمة المجتمع وإشراك البشرية في الخيرات التي ينعم بها الأمريكي . وهي (عربية) ليس من حيث وجودها في بلد عربي بل لأنها كرست حياتها لكي يكون للعرب حياة ولكي تكون حياتهم أفضل^(١) .

ويشير الاستاذ نبيه أمين فارس الى ان مدارس الإرساليات التي بدأت في لبنان كانت فرصة للمنافسة الضخمة بين البروتستانت والجزويت وان إحدى ثمرات هذا العمل (الجمعية العلمية السورية) التي نشأت في احضان الجامعة الأمريكية وفيها دوت الصرخة الاولى للقومية العربية ، وسرعان ما انبرى الجزويت الى تقليد البروتستانت في ميدان الجمعيات العلمية كما قلدوهم في إنشاء المدارس فأسسوا الجمعية الشرقية وهناك كذلك ترجمة التوراة الى اللغة العربية التي بدأها الأمريكان ١٨٣٧ ونشروها كاملة عام ١٨٦٥ .

وأشار الكاتب الى ان الجامعة الأمريكية منذ ١٨٧٠ حتى ١٩٥٨ خرجت ٧٥٠٠ خريج منهم ١٤٠٠ طبيب ومنهم رؤساء وزارات واساقفة وقضاة وأطباء وسياسيون وصحفيون في جميع أرجاء البلاد العربية .

وان بها عام ١٩٥٨ ٣,٣٠٠ طالب يمثلون خمسين جنسية مختلفة كما يمثلون اربعين طائفة دينية وعدد الطالبات نحو عشر عدد الطلاب جميعاً .

(١) مجلة الابحاث الصادرة عن الجامعة الامريكية ١٩٥٨ .

ويشير الأستاذ حسن فروخ في محاضرة له عن أثر لبنان في ميدان التربية والتعليم الى أثر إنشاء المدرسة المارونية في روما عام ١٥٨٤ وقد تخرج فيها عدد كبير من اللبنانيين الذين كان لهم أثرهم في بناء النهضة العامة وأشار الى ان عدد المرسلين تكاثر في لبنان بعد عام ١٨٤٠ حيث هبط بيروت عدد من الأدباء ، وقد حدث هذا في ثلاثين سنة قبل ان يصبح لبنان متصرفية عام ١٨٦١ أما بعد ذلك والى ان أصبحت بيروت ولاية عام ١٨٨٥ فقد تطورت النهضة وبقي فضل السبق لبيروت ، وكان الفضل في النهضة للمرسلين اولاً ثم لطائفة من الوطنيين اتصلوا بالمرسلين .

وأشار الأستاذ فروخ الى ان عدد المدارس التي انشأها المرسلون في لبنان بلغ مائتي مدرسة ما بين أمريكية وفرنسية وانكليزية وروسية والمانية وإيطالية وأقدم المدارس عمراً : مدرسة عينطورة وأشار الى أهم مدرستين وهما : مدرسة القديس يوسف التي تعرف الآن بالجامعة اليسوعية وقد انشأها المرسلون اليسوعيون في غزير عام ١٧٤٨ ثم نقلوها الى بيروت ١٨٧٤ والمدرسة السورية الإنجيلية والتي تعرف الآن بالجامعة الأمريكية وقد انشأها المرسلون الأمريكيون في بيروت عام ١٨٦٦ .

(٣)

انتشرت مدارس الإرساليات في مختلف اجزاء العالم الاسلامي بحجة أنها مدارس للمنشء الأجنبي من أبناء الجاليات الوافدة ، فأصبح في كل قطر عديد من المدارس الفرنسية والانجليزية والألمانية والهولندية والإيطالية . تحت اسماء الجزويت والفريز واللايك والأمريكان واليسوعيين .

وفي لبنان مدارس أمريكية واخرى فرنسية ، وفي مصر مدارس كاثوليكية واخرى بروتستانتية ، وقد بدأت هذه المدارس دينية صرفة ثم تحولت الى علمانية نتيجة تحول التعليم الغربي نفسه بعد الثورة الفرنسية من ديني الى علماني ، ولقد كانت هذه المدارس تدرس تاريخ بلادها ولغاتها فلا يعرف التلميذ في المدرسة الإنجليزية إلا إنجلترا وجغرافيتها واقتصادياتها ، وقد تدرجت هذه المدارس من الأصغر الى الأكبر حتى أصبح لها جامعات ومدارس عليا ، وفي مصر كانت مدارس الفريز والراهبات والجزويت والليسيه ؛ وكلها تابعة لفرنسا . وقد بلغت الإرساليات في فترة ما بين عام ١٨٤٤ وعام ١٩٤٣ [٢٣ إرسالية] باسم الراهبات و ٣٥ مدرسة للفريز ، بالإضافة الى كلية سانت كاترين وكلية سان مارك .

وقد ساعدتم الاليمان سعيده وإسماعيل بالمال والأرض وأباحا لهم الاستيراد من الخارج دون أيّ ضرائب جمركية .

وكان ملوك فرنسا يتدخلون شخصياً من أجل دعم هذه المدارس كما حدث لإنشاء مدارس الجزويت عام ١٨٧٩ بنفوذ الملك لويس الرابع عشر فضلاً عن مساعدة نابليون الثالث إلى مدارس سان جوزيف .

ولما غيرت فرنسا نظام التعليم عام ١٩٠٤ ، وأبعد عنه رجال الدين سمح لهؤلاء بالسفر إلى الشرق للتبشير ، فوصل عدد كبير منهم إلى مصر والشام ودعموا مدارس الليسيه والفرير والجزويت ثم أنشئ المعهد الفرنسي للآثار الشرقية عام ١٩٠٨ .

وقد أحصيت مدارس الإرساليات الإنجليزية فوجدت ٢٤ مدرسة تابعة للبروتستانت والكاثوليك بالإضافة إلى كلية فكتوريا (المعادي) وفكتوريا (الاسكندرية) وكلية البنات الإنجليزية بالإسكندرية والكلية الأسقفية .

وبدأ النشاط الأمريكي عام ١٨٥٥ بهدف نشر المذهب البروتستانتي ، وقد بلغت عام ١٩٥٨ ٨٤٧١ مدرسة وبها ١٠٩ آلاف تلميذ بالإضافة إلى مدرسة البنات الأمريكية (١٨٦٠) وكلية البنات (١٩٠٩) والجامعة الأمريكية (١٩١٩) وكلية أسيوط ١٨٦٥ ومدرسة البنات بأسيوط ١٨٧٩ .

وهكذا تجمعت خيوط التعليم الأجنبي في مصر قبل الاحتلال البريطاني عن طريق الإرساليات مستهدفة تحقيق نفس الغاية .

يقول الاستاذ جرجس سلامة في كتابه تاريخ التعليم الأجنبي في مصر :

« إن الباحث في تاريخ التعليم الأجنبي في مصر منذ بدايته في القرن السابع عشر يجد أن هذا النوع بدأ لأغراض دينية بحتة ، حيث كانت البابوية تستهدف نشر نفوذها في الشرق وفي مصر خاصة وإخضاع الأقلية القبطية الأرثوذكسية في مصر لرئاستها ، وقد قوبلت هذه الإرساليات جميعاً من المسلمين بالإعراض التام. ثم نشطت الإرساليات للقيام بأعمال اجتماعية وصحية لتجذب الناس وتستهملهم اليها فأنشأت المستشفيات والمصحات وقامت

بالخدمة - مستشفى هرمل والسبع بنات - .. وكانت الظروف العامة تساعد على تمكين التعليم الأجنبي في مصر. ورسوخ أقدامه إذ إنه وفد الى مصر في وقت كانت فيه الدولة العثمانية فيه ضعيفة بوجه عام، وكانت إنجلترا وفرنسا تتمعان بالامتيازات الأجنبية وعقدت أمريكا هي الأخرى معاهدة التجارة والملاحة مع الدولة العثمانية في بداية القرن التاسع عشر وانشأت لها قنصلية في مصر .

« ومنذ الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر خرجت مصر من عزلتها وبدأت انظار العالم تتجه اليها ، وبدأت الدول الغربية تطمع في زيادة نفوذها بها ، وساعد على ذلك ان حكام مصر كانوا يسترضون الدول الأوروبية ورعاياها بشقى الطرق ، وظهرت هذه الحقيقة بشكل واضح بعد معاهدة لندن ١٨٤٠ التي فرضت على مصر وصاية دولية .

« وقد بذل سعيد وإسماعيل جهداً كبيراً في إرضاء الدول الأوروبية وتشجيع رعاياها (من اجل مركز الباشوية المصرية) الذي لا يمكن حدوده إلا بموافقة الدول الغربية وكان من مظاهر هذا تشجيع المدارس الأجنبية ومنحها المنح والهبات .

« وبدأ المسلمون يلتحقون بهذه المدارس بالتدريج ، خاصة الطبقة العليا التي كانت ترغب في ان ترسل ابناءها للتعلم في مدارس غير المدارس الحكومية التي يتعلم بها عامة الشعب ووجدوا في المدارس الأجنبية المجال الذي يمكنهم من تحقيق ذلك » .

(٤)

ولقد زادت هذه الإرساليات عمقاً وقوة بعد الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٣ ، فقد زادت الوفود الأجنبية واتسع نطاقها حتى انه بينما وفد الى مصر قبل الاحتلال خمس ارساليات كاثوليكية نسائية في الفترة مسا بين ١٨٤٤ - ١٨٨١ فإنه قد وفد الى مصر بعد الاحتلال ثماني عشرة إرسالية نسائية بين عامي ١٨٨٢-١٩٤٣ ، كذلك تم إنشاء ٣٠ مدرسة للفرير بعد الاحتلال . وقد ساعد على هذا ان الاتفاقية التي وقعتها بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٤ والتي عرفت بالاتفاق الودي نصت على ان تتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي كانت تتمتع بها في الماضي ^(١) وقد ظل التعليم الفرنسي اكثر انواع التعليم الأجنبي انتشاراً حتى بعد الاحتلال البريطاني كانت الارساليات التي تمثل التعليم الأجنبي وتعليم الجاليات في وقت واحد مستقلة ومنعزلة عن رقابة الدولة حتى أصبحت دولة داخل الدولة ^(٢) وظل ذلك التعليم يوجه للنشء الوجهة التي يراها ويصنفهم بالصيغة التي يريدونها دون إشراف فعلي من الدولة عليه ، واستقطب هذا التعليم وهذه المدارس الطبقة الغنية الأرستقراطية في البلاد ^(٣) التي

(١) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

(٢) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

(٣) تاريخ التعليم الاجنبي في مصر .

تستطيع ان تدفع المصاريف ؛ مما خلق طبقة ارسقراطية ثقافية تعلمت بهذه المدارس وكانت تسيّر أمور هذا البلد مما زاد في نفوذ هذا النوع من التعليم الى حد كبير .

وقد سهل تحرر الإرساليات من رقابة الدولة أو إشراف الحكومة على القائمين بهذا النوع من التعليم ان يستخدموا مدارسهم للدعاية لبلادهم وتوجيه النشء وجهة خاصة دون ما رقابة من الدولة . ولذلك كانت الكتب المستعملة في هذه المدارس مليئة بالإشارات الى عظمة هذه الدولة التي تتبعها المدرسة ، بل بلغ الأمر الى حد ان اشتملت بعض الكتب المستعملة على معلومات خاطئة مضللة عن مصر والعرب والإسلام .

ومن هنا فقد ساهمت هذه المدارس في خلق جيل من أجيال الأمة له ولاء خاص لتبعية هذه المدرسة أو قلك ، وكانت أبرز الأخطار المتصلة بمدارس الإرساليات هي :

أولاً : إغفال اللغة العربية وهي لغة البلاد القومية ، وكان من الضروري إتقان لغة أجنبية على حساب اللغة العربية ، هذا بالإضافة الى ما كانت توصم به هذه اللغة من نقص وضعف ، بينما لا توجد أي دولة في العالم تترك أبناءها يتعلمون لغة أجنبية منذ سن الرابعة قبل ان يتعلموا لغة البلاد الأصلية .

ثانياً : أسهمت هذه المدارس في تلقين ابنائنا تاريخ أوروبا والدول الأجنبية المختلفة وحرمتهم في نفس الوقت من تاريخهم القومي والعربي والإسلامي .

ثالثاً : كانت هذه المدارس فتجاوب مع رغبات وتوجيهات سفاراتها ودولها بل إن مجالس إدارة أغلب هذه المدارس كان يرأسها السفراء والقناصل ، وكان مجلس إدارة كلية فيكتوريا الإنجليزية يرأسه السفير البريطاني .

رابعاً : خلا هذا التعليم من رعاية دين وأخلاق أبناء البلاد ، بل كان له

الاتجاه العكسي المؤدي الى الشعور بالتحلل ، كما انه خلق نوعاً من الطبقة المستعملة على طبقات المسلمين في المدارس الوطنية ، وكانت نظرهم الى اللغة والى الأمة نفس النظرة « لا يختلطون بالشعب ولا يحسون بإحساس البلاد لأنهم لم يدرسوا مشاكلها ولم يتمرسوا على مشاركة الوطن مشاعره وأحاسيسه^(١) .

خامساً : كان له أثره البعيد في تفكك الأسرة حيث تجدد العائلة الواحدة مقسمة بين ثقافات متعددة : أمريكية وفرنسية وإنجليزية ، ووطنية ؛ ومن هنا فقد كان لكل فرد تفكيره الخاص وفلسفته الخاصة ونظرته المختلفة الى الأمور .

وبما يتصل بتعليم مدارس الإرساليات نذكر ان هذه المدارس قد شكلت في ثقافة الطالب العربي المسلم مفاهيم خاطئة بما يتناسب مع اتجاهاتها واهوائها سواء أكانت دينية أم سياسية . وقد كانت الكتب المدرسية المقررة موضوعة بطريقة استعمارية ، وكان قوام هذه المعلومات : مصر بلد زراعي ، مصر بلد مستعمر على مدى التاريخ ، لا علاقة بين المصريين والعرب ، الغرب هو مصدر النور وهو صاحب الجنس الأبيض ، التعليم الإسلامي متأخر ، العرب بدو ورحل والاسلام دين صحراوي وهو سر تأخر المصريين .

الى غير ذلك من الشبهات والأكاذيب .

وقد كان التركيز في مدارس الإرساليات على ابناء الطبقة الراقية وبناتها . وكانت مدرسة البنات العليا الانجليزية وبون باستور والفرنسيستان تحفل ببنات الأعيان والوزراء وكان يتحتم على ابناء وبنات المسلمين الاشتراك في الصلاة ، وقد اشارت المدرسة أنا مليجان الى هذا المعنى حين قالت :

في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات وليس

(١) المصدر السابق يقتصر .

ثمة مكان آخر ممكن ان يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي وليس ثمة طريق الى حصن الاسلام أقصر مسافة من مدرسة البنات .

وهم يستهوون الاطفال بالحلوى والكبار بشرائط الفانوس السحري ، وان أول هم المدرس المبشر في مدارس الإرساليات (كما يقول الاستاذ حسين محمود) هو هدم الاعتقاد في تلميذه فيصبح الطالب مستخفاً بالمعتقدات ، أما خطوته الثانية فهي محاولة غرس تعاليم جديدة في ارض لم تعد تصلح للاعتقاد ؛ إن أشد النتائج فظاعة هو حض المبشرين للطلبة على المراعاة ، فالأخلاق المسيحية كما يسميها المبشرون هي مقياس الاستقامة التي يتوقف عليها تمهيد الطريق أمام الشباب الراغب في النجاح المدرسي . إن قولي ذات مرة أنا لا أوافق على الأخلاق المسيحية في مناقشة مع مدير المدرسة وكان يحثني على التمسك بها كاد يدخلني مستشفى المجاذيب لشدة الاضطهاد الذي واجهته في وقت كنت فيه تحت رحمة المدرسة (١) .

وأصعب من هذا وأشد إذا حاول التلميذ المسلم ان يجيب إجابة فيها كرامة لدينه أو امته فإن ذلك يقضي عليه بالسوب عاماً بعد عام حيث يوضع في قائمة سوداء .

وقد أشار الى هذا المعنى مؤتمر التبشير عام ١٩٢٤ حيث قال :

« في كل حق من حقوق العمل يجب ان يكون العمل موجهاً نحو النشء الصغير من المسلمين وموزعاً فيما بينهم ليعيط بهم وليكونوا منه على صلة مباشرة ، ويجب ان يقدم هذا على كل عمل سواه في الاقطار الإسلامية فإن تنور روح الإسلام في الناشئ الحديث يبتدىء باكراً من عمره فيجب والحالة

(١) الرابطة الشرقية : ١٥ يونيه ١٩٢٩ .

هذه ان يؤتى بالنفس الصغير من المسلمين قبل ان يتكامل نمو عقليتهم واخلاقهم حينئذ وتستعصي على المبشر .

وهكذا تتركز سياسة الإرساليات في توجيه العناية الى النفس الصغير لتشكيله قبل ان يشكله أهله في إطار الإسلام ، والى بذل أقصى الجهد في إدخال البنات المسلمات في الاقسام الداخلية حتى ينعزلن عن محيطهن الإسلامي ويشكلن في اطار الصلاة المسيحية والأدعية ولا يخرجن من المدرسة إلا بعد ان يكنّ قد انطبعن بطابع الحياة الغربية وروح العقيدة المسيحية . هذه الفتاة هي التي ستكون زوجة مسلحة من بعد وستربي الجيل الجديد .

استطاعت الإرساليات في مصر في الثلاثينات ان تقوم بحركة ضخمة للتبشير بين المسلمين في مصر ، وأجبر عدد كبير من الشباب على ترك دينه ، وجرت تحقيقات قضائية حول وقائع متعددة وحوادث متصلة وصدرت احكام قضائية لم تنفذ ، وأشارت الصحف المصرية الى ذلك في حينه ، واحتج وزير أمريكا المفوض في مصر على موقف الصحف المصرية إزاء حوادث التبشير ، وأشارت الصحف الى ان معاهد الإرساليات تفلت دائماً من العقوبة لأنهم أجانب لا يمتد اليهم سلطان القوانين المحلية ولأن سلطاتهم القنصلية توليهم عطفها وحمايتها ولأن معاهد التعليم الأجنبية - وكر هذه المحاولات - تتمتع في ظل الامتيازات الأجنبية بحصانة قوية ^(١) .

كما أشارت الصحف اكثر من مرة ، الى كتب مقررة في مدارس الإرساليات تحوي طعناً في الإسلام وفي رسول الإسلام ومنها ما نشر عن كتاب الاجرومية الذي يدرس بمدارس الفرير عام ١٩٢٩ .

وأشارت الى كتاب (Histoire Sainte) أي التاريخ المقدس الذي يوزع على الفتيات المسلمات وفيه وصف شائن للنبي وان عقيدته هي مزيج

(١) الصحف ١/٢٨ / ١٩٣٢ .

يشع أو وحشي من اليهودية والنصرانية والوثنية وان هذه العقيدة ممثلة في القرآن الذي هو مجموعة إيماءات مزعومة للنبي ، وقد كانت الصيحات تتوالى إثر كل حادث من هذه الأحداث ثم تنطفئ وتظل هذه الكتب تترك آثارها في الطلاب المسلمين والمسلمات .

وقد أشار تقرير مطول عن التعليم في الإرساليات الى ان المؤسسات التبشيرية (إنجليزية وإيرلندية والمانية وسويدية ودنمركية وأمريكية) متفقة على وضع التوراة بين أيدي الطلاب على انها كتاب تدريس أساسي وإلزام المسلمين على دخول كنيسة المدرسة مرة كل يوم .

وان العمل يجب ان يتم في مراحله المختلفة :

رياحين الاطفال هامة جداً والمدارس الداخلية تفصل المسلمين عن بيئاتهم الإسلامية وتعليم البنات له أثره الكبير . وفي المراحل الاولى يمكن التأثير على عقول الأطفال الغضة .

والتعليم العالي يمكن من الوصول الى الطبقات المثقفة ممن سيكونون قادة الرأي في البلاد .

وهكذا يستخدم التعليم في تغيير تكوين النفس المسلمة والعقل المسلم وإفساد مفهوم الإسلام والعروبة والقرآن ومحمد وإقامة مفاهيم أخرى تعلق فيها قيم ليست هي قيم المسلمين والعرب ، وهكذا يتخذ التعليم وسيلة الى استعباد الأفراد والامم ثم سوقهم الى التسليم بسل والإعجاب والحب للعدو الدخيل .

يقول هنري جب : إن التعليم في مدارس الارساليات المسيحية إنما هو واسطة الى غاية، هذه الغاية هي قيادة الناس الى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا افراداً مسيحيين ، وإن المدرسة شرط أساسي لنجاح التبشير ، وإن المدرسة

قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي اكثر من كل قوة اخرى ، ثم ان هذا التأثير يستمر حتى يشمل اولئك الذين سيصبحون يوماً قادة في اوطانهم .

ويقول مستر بنروز رئيس جامعة بيروت : لقد أدى البرهان الى ان التعليم هو أئمن وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان .

ونشر لدفيك بزهارد عام ١٩٠٥ مقالاً صور فيه الكلية السورية الانجيلية على أنها محاولة مدروسة لتمهيد الطريق أمام المصالح الأمريكية التجارية منها خاصة .

وقد احتضنت هذه الإرساليات الدعوة الى اللغة العامية مكتوبة بالحروف اللاتينية بالإضافة الى الأحلاف .

ويقول جون موت : إن مدارس الإرساليات لها رسالة وغاية قصوى ، هي ان تجعل الشعوب كلها في المستقبل تابعة للغرب وأوروبا والكنيسة، وإن المقصود الأول بالتبشير من طريق التعليم هم المسلمون .

وإنه يتحتم عند عرض الأديان ان يعرض الإسلام عرض عداء وخصومة واتهام للرسول والقرآن ، ولا نقف عند هذا ، بل نحاول ان نوقع الخصومة بين المسلمين والمسيحيين في الشرق باثارة حديث الحروب الصليبية وموقف كارل ماركس ، وينتهي بالإشارة الى ان قوة الهلال تقهقرت أمام راية الصليبيين وانتصار الإنجيل على القرآن .

وأن يشار دائماً الى ان الارساليات هي سبب النهضة الحديثة .

وقد وجه كثير من خريجي هذه الإرساليات الى ترجمة هذه الكتب المليئة بالأخطاء والأحقاد والشبهات لإذاعتها في عالم الإسلام ووضعها بين أيدي

الطلاب في مدارس الإرساليات والمدارس الأجنبية ثم سمح بها في الجامعات .
ولطالما أذاعت الصحف أنباء عن كتب صودرت ثم اكتشف انها كانت بتوصية
من قاضي معاهد الإرساليات وخريجيها .

ويتصل هذا بمن توفدهم الإرساليات الى بلاد الغرب ، وقد أوصى لويس
ماسنيون على هؤلاء الطلاب حين قال : ان الطلاب الشرقيين الذين يأتون الى
فرنسا يجب ان يلونوا بالمدنية المسيحية .

في عام ١٩٠٦ عقد المؤتمر التبشيري في بيت احمد عرابي في القاهرة تحدياً و صلفاً وكان من ابرز قرارات المؤتمر : إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تتولى كل الكنائس المسيحية الإنفاق عليها لتتمكن من مزاحمة الأزهر ، وأشارت التوصية إلى ما يأتي :

« ربما كانت العزة الإلهية قد دعبتنا الى اختيار مصر مركز عمل لنا لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية » .

يقول الاستاذ جرجس سلامة في كتابه تاريخ التعليم الأجنبي في مصر :
« تكونت الجامعة الأمريكية في القاهرة على أساس الاتصال بالإرسالية وليس على أساس مستقل ، وذلك أنه لأسباب فنية أدخلت هيئة الإرساليات الأجنبية الجامعة الأمريكية بالقاهرة في ميزانية [Now World Movement Budget] لتتمكن من إنجهاز المشروع ، وبذلك ألحق مركز الدراسات للتدريب رجال الإرسالية بالجامعة الأمريكية ، واصبح يسمى (مدرسة الدراسات الشرقية) حيث كان اثنان من رجال الإرسالية يدرسان بها .

وفي عام ١٩٢٢ روي أن تكون الجامعة مستقلة عن الإرسالية وأصبح لها كيانها الخاص . وقد تخرج من الجامعة ثلاثة حصلوا على الليسانس عام ١٩٢٨ والتحق أول طالبة حصلت على الليسانس ١٩٣١ وبدأ التعليم المختلط بالجامعة .

وقد أشار التقرير العالمي الذي تقرر بناء عليه إنشاء الجامعة الأمريكية في القاهرة إلى أهمية وجود هذه الجامعة في مواجهة الأزهر الشريف ، كما أشار الى ذلك جرجس سلامة في كتابه حين قال : إن مجموعة من الرجال الخبراء قد طافوا العالم عام ١٩١٦ للدراسة واستقر رأيهم على أن القاهرة مركز استراتيجي هام لإنشاء هذه الجامعة ، (ويذكر وطسون لماذا كانت القاهرة مركزاً لهذه الحضارة فيبين كيف أن الأزهر له القيادة الفكرية والاسلامية في العالم العربي ، ويقول إن شهادة من الأزهر بين العرب توازي شهادة الدكتوراه في اكسفورد أو باريس أو هارفارد في العالم الغربي) ثم يقول (إن القاهرة هي مركز الصحافة العربية ، وإن أكثر من مائة مليون نسخة من المجلات والجرائد تصدر سنوياً في القاهرة ، وإن مصر هي مركز اللغة العربية الفصحى التي تعد لغة جميع الدول العربية ، وعلى هذا الأساس استقر الرأي على إنشاء الجامعة الأمريكية بالقاهرة) .

أما الدكتور وطسون فقد كانت له آراء خطيرة في مواجهة الاسلام ، وله كتاب كان مقررأ في الدراسة على للطلاب المسلمين تحت عنوان :

(حروب صليبية مسيحية في مصر)

وبعني بهذه الحروب الحملة التبشيرية ، وقد كتب في صدره :

أهديه لأمي وأبي اللذين قضيا حياتهما مبشرين في مصر .

ومن آرائه الخطيرة قوله : إننا نراقب سير القرآن في المدارس الاسلامية ونجد فيه الخطر الدائم . إن القرآن وقاريخ الاسلام هما الخطران العظيمان اللذان تحشاهما سياسة التبشير ، .

وكانت له دعوته الى هدم القيم الاسلامية في نفوس الطلاب ، وقد سجل له محاولة الى ازدياء المبادئ الاسلامية والمعتقدات والقيم الاخلاقية ، وقد

أشار الى أنها آخذة في الانحلال والتفكك ، ودعا الأجيال الناشئة الى تجاهلها وعدم الاهتمام بها ؛ ولقد كان يصور وجهته وعمله حين قال :

« إن الجيل الناشئ الذي نتصل به نراه مهتماً كل الاهتمام لا بالاسلام . ولكن بالمسائل المادية والإلحاد » .

ثم يقول : « ونحن نسر حين نستطيع أن نجعل فتى مسلماً يقبل مبادئ المسيحية ووحى المسيح » .

هكذا كانت مشاعر الارشاليات واضحة صريحة تصدر في الصحف . وتقال علناً .

وقد كشف عنها الطلاب المسلمون مرات ومرات .

في الجامعة الامريكية في بيروت عام ١٩٠٩ عندما اصدرت منشوراً ردّاً على احتجاج الطلاب المسلمين لإجبارهم على الدخول يومياً الى الكنيسة ، قال المنشور :

« إن هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي . هم اشتروا الأرض وأقاموا الأبنية وهم انشأوا المستشفى وجهازه ولا يمكن المؤسسة أن تستمر إذا لم يسندوها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً يكون الانجيل من مواده فتعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب ان يعرف سابقاً ماذا يطلب منه . إن الكلية لم تؤسس للتعليم العلماني ولا لبث الاخلاق الحميدة ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة ، وأن تكون مركزاً للنور المسيحي وللتأثير المسيحي ، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به » .

ومثل هذا حدث عام ١٩٣٢ عندما وقف (عبد القادر الحسيني) بعد تخرجه من الجامعة الأمريكية في القاهرة فأعلن أن الطلاب يلزمون بالصلاة في الكنيسة وتقرر كتب تنهم الاسلام ورسوله والقرآن بتهم خطيرة . وما

تصدى له رجال الجامعة واخرجوه ونشر ذلك في الصحف (وفي جريدة
البلاغ) التي نقلت صفحات بالزئكوغراف عما تحويه هذه الكتب المقررة
على التلاميذ المسلمين .

وإذا كان المسلمون قد كشفوا أخطار الارساليات والتعلم فيها فإن
المسيحيين أيضاً قد تنبهوا لهذا الخطر وفي ما يصوره جبران خليل جبران مثل
واضح لذلك . يقول :

« في سوريا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم
نزل فلتهم (خبز الصدقة) لأننا جياع متضورون ولقد أحيانا ذلك الخبز
ولما أحيانا أماتنا ، أحيانا لأنه أيقظ (بعض) مدار كنا ونبه عقولنا (قليلا)
وأمانا لأنه فرتق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين
طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة معسكرات صغيرة مختلفة الأذواق
متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تشد في حبل إحدى الأمم الغربية
وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها ، فالشاب الذي تناول لقمة العلم من
مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع الى معتمد امريكي ، والشاب الذي يجرع
رشقة من العلم من مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسياً ، والشاب الذي لبس
قميصاً من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلاً لروسيا الى آخر ما هنالك من
المدارس ومما تخرجه كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء وأعظم دليل على
ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع ، فالذين درسوا بعض العلوم باللغة
الانجليزية يريدون أمريكا أو انجلترا وصية على بلادهم والذين درسوها
بالفرنسية يطلبون فرنسا لتتولى أمرهم . وقد يكون ميلها الى الأمة التي
تتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة الجميل في نفوس الشرقيين ولكن ما هذه
العاطفة التي تبني حجراً في جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الأخرى ؟ ما
هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة ؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا
يوماً وتميتنا دهرأ ؟ »

وَيَصُورُ مِيخَائِيلُ نَعِيمَةَ خَطَرِ الْإِرْسَالِيَّاتِ فِيَقُولُ :

« لَقَدْ عَرَفْتُ سُورِيَا غَزَاةَ كَثِيرِينَ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ شَرِّهَا عَلَيْهَا وَهِيَ الضَّعِيفَةُ أَنْ تَرْضَخَ لِقُوَّةٍ فَوْقَ قُوَّتِهَا ، إِلَّا أَنَّهَا مِنْذُ أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الْمَاضِي أَخَذَتْ مَهْدًا لَغَزَاةٍ مَا أَلْفَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ غَزَاةٍ جَاؤُوا لَا لِيَمْلِكُوا أَجْسَامَهَا بَلْ لِيَقْبِضُوا رُوحَهَا فَقَدْ شَنُوا عَلَيْهَا الْغَارَةَ بِالتُّورَةِ وَالْأَنْجِيلِ وَالرِّيَالَاتِ وَالْعَقَاقِيرِ ، فَكَانُوا أَشَدَّ ضَرْبَةً عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ مَا سَبَقَهُمْ ، افْتَتَحَ هَؤُلَاءُ سُورِيَا بِاسْمِ الدِّينِ ، كَانَ عَلَى الْمُبَشِّرِينَ أَنْ يَزِينُوا مَدَنِيَّتَهُمْ لِلسُّورِيِّينَ كَمَا لَوْ أَنَّهَا صَفْوَةُ الْكَمَالِ فَجَعَلُوهُمْ عَلَى احْتِقَارِ مَدَنِيَّتِهِمْ وَاحْتِقَارِ أَنْفُسِهِمْ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ صَوَّرُوهُمْ لِلْغَرْبَاءِ الَّذِينَ أَرْسَلُوهُمْ فِي حَالَةٍ تَقَارِبِ الْهَمْجِيَّةِ فَمَسْلَمَهُمْ جَاهِلٌ وَنَصْرَانِيَهُمْ وَثَنِيٌّ وَكُلَّهُمْ كَذِبَةٌ ضِدَّ الدِّيَانَةِ » .

وَهَكَذَا نَجِدُ أَنَّ الْإِرْسَالِيَّاتِ كَانَتْ خَطَرًا شَدِيدًا فِي نَظَرِ الْمُسْلِمِينَ وَالْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ وَالْمَسِيحِيَّةِ عَلَى السَّوَاءِ .

وَقَدْ صَوَّرَ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ نَتَائِجَ جُهُودِ الْمُبَشِّرِينَ فِي مَدَارِسِ الْإِرْسَالِيَّاتِ فَقَالَ : « إِنَّ ^(١) هَذِهِ الْمَدَارِسُ وَالْمُعَاهِدُ التَّبَشِيرِيَّةُ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَحْدِثَ فِي قَلْبِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ آثَارًا خَطِيرَةً مِنْ حَيْثُ تَوْجِيهِهَا لِأَخْلَاقِ تَلَامِيذِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَذَلِكَ لِعَادَاتِهِمْ وَتَفْكِيرِهِمْ إِلَى أَنْوَاعٍ عَدِيدَةٍ مِنْهَا طَائِعُ أَجْنَبِي خَاصًَا إِذَا لَمْ تَكُنْ رُوحَهُ نَصْرَانِيَّةً وَاضْحَةً فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ تَهَيَّأَ لِبَثِّ هَذِهِ الرُّوحِ لِأَنَّ إِضْعَافَ الرُّوحِ الْأَصْلِيَّةِ وَتَحْطِيمَ التَّعَالِيمِ وَالتَّقَالِيدِ الْقَوْمِيَّةِ هُوَ دَائِمًا أَوَّلُ خُطْوَةٍ فِي سَبِيلِ إِدْخَالِ رُوحٍ وَتَعَالِيمٍ جَدِيدَةٍ » .

(١) مَجْمَعُ الرِّابِطَةِ الشَّرْقِيَّةِ - ١٥ يُونِيَّةِ ١٩٢٩ .

(٧)

كشفت (شائليه) عن مهمة الإرساليات في البلاد المحتلة فركزت على أنها تستهدف نزع الاعتقادات الإسلامية وتثبيت الأفكار الأوروبية ، وأنها تعمل على هدم اللغة العربية وجعل اللغات الأوروبية في المقدمة حتى يمكن بث الأفكار التي تتسرب مع سيطرة اللغات الأجنبية .

وإن نظرة الى الآفاق المختلفة تكشف عن أبعاد هذا الخطر الساري في كل مكان في بلاد الاسلام ، وفي قلب أفريقيا تبدو الصورة شديدة الخطر ، يقول احمد سيكوتوري :

« لقد تعلمنا نحن المثقفين الأفريقيين في مدارس الاستعمار تاريخ فرنسا وحروب الغال وحياة جان دارك . لقد قدم لنا الاستعمار من العلم والثقافة القدر الذي يرى أنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بمجلة الاستعمار . لقد أراد المستعمرون للمثقفين الأفريقيين ان يفكروا بديكارت وبرغسون ولم يسمح لهم بالتفكير في قيمهم وثقافتهم وتراثهم الأفريقي . لهذا لا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرين الأفريقيين أمثال الحاج عمر بن سعد تال واحمد ساموري توري » .



وفي السودان يقول الدكتور عون الشريف قاسم :

السودان كثر من ثغور العروبة والاسلام في افريقيا يعيش تحدياً له اهميته، فالوثنية لا تزال ضاربة في بعض اجزائه وكثير من المسلمين في اصقاعه النائية لا يجدون العناية اللازمة . ونحن في سباق مع الزمن فإن تخطيط اعدائنا يضع للسودان مكانة مميزة في استراتيجية كبرى من اجل السيطرة على القارة الافريقية وقد قسموا السودان الى ثلاث مناطق :

(الحزام الشمالي): وسيكون من الشمال المسلم وخطهم في ذلك ان يشككوا المسلمين في دينهم والتأثير عليهم عن طريق المدارس والمستشفيات وما اليها .

(حزام الوسط) : حيث تعيش اقلية غير عربية خاصة في جنوب شرق السودان وبعض مناطق الغرب . والفكرة هنا ان يثيروا هذه الاقلية عن طريق النعرات العنصرية وبث إرسالياتهم في جميع هذه المنطقة لتعطيل حركة الوعي الاسلامي من الانتقال من شمال القاهرة الى وسطها وجنوبها .

(الحزام الجنوبي) وخطهم هذا ان يوقفوا كل تيار عربي إسلامي وفي جنوب السودان اربعة ملايين أغلبهم وثنيون لا دين لهم ، .

وفي إحصاء رسمي حديث ان عدد معاهد اللاهوت التي تعد المبشرين والقسيسين والرهبان في أفريقيا الآن ٤٨٩ معهداً وان في افريقيا ٥ ملايين طالب تحت سيطرة الارساليات ورجالها من المبشرين والرهبان .

ويقول الباحث : إن التعليم وهو أخطر وسائل التبشير وأعمقها أثراً هو مهمة الارساليات التبشيرية التي تقوم بدورها في أفريقيا أكمل قيام وتنتشر اجهزتها الدقيقة ابتداء من دور الحضانة ورياضين الاطفال والمدارس الابتدائية والمتوسطة بالاضافة الى الجامعات والكليات ومعاهد تخريج المبشرين وانتهاء بالمستشفيات وملاجئ الايتام والمكفوفين والجمعيات الخيرية .

وإن أخطر وسائل التبشير هي دور التعليم حيث يتاح لأعضاء الإرساليات من مدرسين ومدرسات تلقين الناشئة الإسلامية من بنين وبنات تعاليم دين المسيح وتراث فكره وتقاليده حضارته مشوياً ذلك كلياً بصورة من الكيد والدس والتشويه لعقائد الإسلام مثل ما يقال من أن الإسلام دين الوثنية أو أداة في يد الشيطان وإن نبيه الكريم رجل مجهول النسب لأنه محمد (ابن عبد الله) وقد جرت عادة العرب على إطلاق اسم (عبد الله) على كل من لا يعرف له نسب إلى آخر هذه المزاعم والباطيل ، وما تزال كتبهم ونشراهم وأبحاثهم تسمم عقول الفتية والفتيات الأغرار ، وتعمق شقة الخلاف بينهم وبين أهلهم وتحول دون إنعاش صلات المودة والإخاء . وهي تهدف جملة إلى طمس كل تصور إسلامي في ذاكرة الشباب وقطع كل صلة متينة لهم بالله سبحانه وتعالى .

وإن ذلك يحيى تحقيقاً لوصايا مؤتمر المبشرين في القدس ١٩٢٤ حين أشار (صمويل زويمر) إلى مهمة الإرساليات التي تستهدف إخراج المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ؛ وبذلك تكون هذه الإرساليات ورجالها « طليعة الفتح الاستعماري » في الممالك الإسلامية .

يقول زويمر : لقد قبضنا منذ ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية ، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية .

وطبقاً لذلك جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أرادته الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يعرف في دنياه نهمة إلا الشهوات ؛

فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع فللشهوات ، وإذا قبواً أسمى المراكز ففي
سبيل المال يهود بكل شيء .



وحين يراجع الباحث كتاب تاريخ الإرساليات التبشيرية الذي صدر عام
١٩٦٤ في ٦٠٠ صفحة لمؤلفه (ستيفن نيل) وهو مبشر مارس العمل في
آسيا عشرين عاماً وحصل على الدكتوراه الفخرية وعين استاذاً للتبشير في
كلية اللاهوت بجامعة هامبورج بألمانيا ، عندما نتصفح هذا الكتاب نجد
مؤلفه يعترف بالدور الخطير الذي لعبته الإرساليات في استعمار العالم الآسيوي
الافريقي ، ويحاول ان يبرز المخازي المعيبة التي اقترفها المبشرون ومنها عمليات
إفساد الضائير وشراء الاطفال .

كما يكشف البحث عن مدى تدخل المبشرين في السودان في الحركات
السياسية والانفصالية في الجنوب وتحريضهم ابناء الجنوب من الوثنيين على
الثورة وقتيل ابناء الشمال ، وكذلك في موقفهم من إسرائيل وتعاونهم معها .

كذلك فهم يرون ان اندحار الدولة العثمانية أرخ لنهاية الحكم الاسلامي
بالسيطرة على العالم ، وان الحقيقة الكبرى الحديثة في العالم الاسلامي هي
وجود إسرائيل (وهذا وكثير مثله يكشف عن مدى صلة الإرساليات
وجامعاتها الكبرى بأهداف الصهيونية العالمية) .

كذلك أشار الباحث الى ما ابتدعته مؤسسات التبشير في السنوات الاخيرة
مما اسمته فكرة الحوار التي دعا اليها (لويس جاردييه) بديلاً عن فكرة
التبشير في بعض المناطق وهي تقوم على أساس ما يراه المبشرون من ان هناك
أموراً مشتركة يمكن ان تكون اساساً للحوار بين المسلمين والمسيحية كوجود
الإله والوحي وواجبات الإنسان وذلك مما عهد لقيام مناقشة مفتوحة حرة .

ويشير البحث الى ان الارساليات في جنوب السودان استطاعت تدريب عدد من أبناء الجنوب المتنصرين للقيام بأعمال التبشير في خلال ستين عاماً حيث استطاعت الكنيسة الانكليكانية تعميد ٣٢ قسيساً ومبشراً افريقياً ، وقد حلّ هؤلاء محل المبشرين المائة الذين طردتهم حكومة السودان .



ولا ريب ان هذه الوقائع الحديثة كلها تعطي نذر الخطر المستمر المتصل وخاصة بالنسبة للمستقبل . فإذا راجعنا موقف الارساليات في السنوات الاخيرة في اندونيسيا وجدنا ان تحدياً خطيراً يقع هناك ، كذلك بالنسبة لدولة صغيرة كالأردن ، وقد أشار الاستاذ يوسف العظم الى هذه الظاهرة بالنسبة لبلد صغير كالأردن توجد فيه مائتا مدرسة من مدارس الارساليات ، تلتقي في هدف واحد وعند غاية مشتركة « ان تخرج الجيل الجديد الذي لا يحترم عقيدته ولا يؤمن بترائه أو يحس بوجوده ، وإذا علمنا ان عدد سكان الأردن لم يبلغ المليونين بعد أدر كنا أيّ أثر يتركه هذا الحشد من القلاع الفكرية التي يخطط لها فتتفد اشنع جريمة ضحيتها جيل بريء غافل ، ومن هذه المدارس : الفريز والتراسنطا والمطران والكلية الأهلية وهانوميان بوزباستيان والارمن الأرثوذكس والسالزيان وراهبات الوردية ، وراهبات صهيون والبيلاز والاذفنتست الخ .. الخ .

كذلك فإن اندونيسيا في السنوات الاخيرة تعرضت لحملات تبشيرية ضخمة قوامها مدارس الارساليات . وتشير التقارير الى ان حملة التنصير اليوم أشد وأقوى في اندونيسيا مما كانت عليه أيام الحكم الهولندي .

وتشير التقارير الى ان الفاتيكان قد عين كاردينالاً و ٢١ اسقفًا للإبقاء على حركة الارساليات التبشيرية ونشاطها وقد استطاعت الكنيسة الكاثوليكية

ان تشن حملة مدعومة بقوى هائلة من السند والعمون الماديين في البلدان الغربية تستمر عشر سنوات كاملة على النحو الذي فصله كتاب (واجبنا في اندونيسيا اليوم) الذي صدر يحمل مخططات الغزو الموجهة الى اندونيسيا عن طريق الإرساليات .

وتقرير الاستاذ علال الفاسي : ان هذا النشاط لا يقتصر على اندونيسيا وحدها وإنما هو جزء من خطة تشمل العالم الاسلامي كله .

(٨)

وقد سجلت الصحافة العربية الدور الذي تقوم به الارساليات على أنه مشروع مرتبط بالنفوذ الأجنبي ، ففي مقال نشرته جريدة المقطم في (١ - مارس ١٩٢٤) تحت عنوان (المدارس الأجنبية في الشرق) يتكشف للباحث مدى الخطر الكامن وراء الارساليات واعمالها يقول :

المدارس الأجنبية المسيرة في أقطار الشرق الأدنى والمنبئة في مدنه وقراه يد كبيرة على النهضة الشرقية الحاضرة لا ينكرها منصف ولا يحدد فضلها جاحد ، وغني عن البيان ان كلمة المدارس الأجنبية تشمل جميع المدارس والمعاهد العلمية التي أنشأتها في ربوع الشرق الأدنى الجمعيات الدينية أو بعثات التبشير أو حكومات أجنبية أو شركات أخرى بقصد الربح .

لهذه المدارس صبغات وجنسيات مختلفة منها الفرنسي والأمريكي والإنجليزي والإيطالي والألماني والروسي ، وبين المدارس الفرنسية ما هو ديني وما هو علماني ، ولئن كانت خدمة العلم ونشر التهذيب هي المحور الذي تدور عليه أعمال المدارس كلها والغاية التي تنشرها فإن لكل بعثة منها غرضاً خاصاً ينطوي عليه برنامجها وتسير نحوه وهو نشر لغة قومها بين ظهرائي الشرقيين وتلقينهم تاريخها وسير أبطالها وتحبيبها اليهم بقدر الامكان ، وربما كان بينها من يعمل عمداً وبغير عمد لتنفيذ الشرقيين من لغتهم وتاريخهم وطبعهم بطابع الأمة التي تمت اليها المدرسة بصلة النسب .

وقد كانت البعثات الفرنسية اكثر هذه البعثات نشاطاً وحرارة ، فكثرت مدارسها وازدادت معاهدها زيادة تستوقف الأنظار ولا سيما في سوريا ولبنان والقطر المصري فلا تكاد تخلو مدينة أو بندر من مدرسة أو مدرستين لهذه البعثات التي وقفت نفسها بشهادة جميع العارفين على خدمة النفوذ الفرنسي ونشر الآداب واللغة الفرنسية .

وهناك من يعتقد ان الاحتلال الفرنسي الحاضر لسورية ولبنان هو نتيجة من نتائج عمل البعثات إذ توسل الفرنسيون لصيانة مصالحهم في سورية ولبنان بهذا الاحتلال بالمعنى الصحيح . ونظن ان هذه المصالح لا تتعدى دائرة هذه المدارس التي تعد بالمثلث علاوة على ما أعدته هذه المدارس من الأنصار لفرنسا من خريجيها وتلاميذها السابقين وذوي قرباهم . ولليسوعيين ايضاً مدارس عديدة في منطقة كيكيلية التركية ولهم مدارس في الآستانة وضاحيتها وفي إزمير وغيرها من المدن التركية ، وقد نافس الأمريكيون الفرنسيين في لبنان وسوريا في اواسط القرن الماضي منافسة مثيرة ، وإذا كان الأمريكان قد نافسوا اليسوعيين فبزومهم في لبنان وتفوقوا عليهم بذلك الصرح العلمي (جامعة بيروت) الذي أخرج للشرق العربي طائفة من علمائه وزعماء نهضته فإن رجال البعثات الفرنسية عملوا بنشاط في مصر والأناضول والآستانة نفسها حيث المزاحمة شديدة .

ونشط الإيطاليون في السنين الاخيرة لإنشاء المدارس في معظم انحاء تركيا وهم يرمون بذلك الى نشر لغتهم وتعميم آدابهم ومزاحمة البعثات الفرنسية . وبين الفرنسيين والإيطاليين من التنافس على سواحل البحر الأبيض لأن كلا منهما تطمع في للسيادة عليه .

وكانت هذه المدارس تتخذ من أدوار الضعف التي تتعرض لها الامبراطورية العثمانية وسيلة لتوطيد نفوذها وتوسيع دائرة اختصاصها .

وهذا في مجموعه اعتراف كامل بالدور السياسي الخطير الذي قامت وتقوم به الارساليات .

وقد أشار كتاب الغارة على العالم الاسلامي الذي ألفه شاتليه وبمجموعة من المبشرين بأن الفرصة الكبرى التي أتاحت للارساليات إنما جاءت بعد سقوط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨ حيث أمكن منذ ذلك الوقت تفسيح الدولة العثمانية وتوسيع بعثات التبشير على النحو الذي حقق تنفيذ مناهج التعليم على النحو الذي رسمته مخططات الغزو حيث يسجل الدكتور زويمر زعيم المبشرين وكبيرهم في الشرق في هذه المرحلة ما يأتي :

إن السياسة الاستعمارية لما قضت منذ نصف قرن - أي منذ عام ١٨٨٢ - تقريباً على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسلام ؛ وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا هي يهودية . ناشئة مضطربة مادية الاغراض ، لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً ، فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة .

ومن ذلك قوله الذي صار حكمة ومنطقاً للعمل التبشيري كله في معاهد الارساليات وعلى ضوئه يمكن النظر بوضوح الى المناهج والأهداف والاتجاهات يقول : « إن مهمة التبشير الذي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية وإنما مهمتكم ان تخرجوا المسلم من الاسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة لا بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الامم في حياتها » .

وليس بعد هذه الوثائق صراحة ولا وضوح في الكشف عن غاية الارساليات وأهدافها .

(٩)

والآن نستطيع ان نتساءل ما هو الهدف الحقيقي للرساليات التعليمية في العالم الاسلامي ؟

وأن نجيب بأن الهدف في الحقيقة هو السيطرة على الجيل المسلم الجديد منذ مطالعه لاعداده على النحو الذي يكفل له عندما يصبح في مقام العمل السياسي والاجتماعي والثقافي في وطنه ان يكون صاحب ولاء فطري وثقافي قوامه الحب والاعجاب والتقدير للذين علموه ونشأوه .

ومن هنا اهتمت الدول المستعمرة خلال فترة ما بين الحربين بتنقيف أبناء العظماء وكبار رجال السياسة ونقلهم الى المعاهد الاجنبية ، وذلك لخلق هذه الطبقة وإعدادها . وقد كان إغراؤهم عجيباً لكثير من أصحاب المراكز العالية حتى بعض كبار المسؤولين في مجال الاسلام على تعليم ابنائهم في معاهدهم ، وقد أشارت تقاريرهم الى ذلك بما أسمته :

« نزوع أهل الطبقة الراقية الى المدارس الأجنبية » .

وقد أكد المراقبون النتائج الخطيرة التي حققها تعليم المسلمين في الارساليات من تقريب المسافة بين الاستعمار وأهل الأوطان الاسلامية وما حققة من حل كثير من القضايا الجوهرية بما يوافق رغبات المستعمرين . وأهم هذه القضايا

المسألة الشرقية وقيام إسرائيل في قلب الوطن العربي ، وليس أدلّ على أهمية ذلك من ان الذين حملوا لواء التشهير بالدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد وعملوا على تمزيق الرابطة بين العرب والترك وتمكين الدول الأوروبية من تقسيم الغنيمة فيما بينهم كانوا من الذين تعلموا في معاهد الارساليات التبشيرية وهؤلاء الذين خدموا النفوذ الاجنبي في مصر وكانوا مخلصين لكرومر وغيره من قادة الاستعمار وأصحاب الصحف ومحروها كانوا جميعاً من خريجي معاهد الارساليات وخاصة في بيروت ومنهم من دعا عام ١٩٣٥ الى إنشاء دولة يهودية في فلسطين ودولة مسيحية في لبنان ، ومنهم من أعادوا الدعوة عام ١٩٤٥ الى ان يكون لبنان وطناً قومياً للنصارى في الشرق الأدنى ومنهم حملة لواء الدعوة الى العامية والحروف اللاتينية وهم قادة كل الدعوات التي عملت وتعمل على تعميق الاقليمية وبث روح الشعوبية وتمزيق وحدة العرب والمسلمين الفكرية وإيقاع الخلاف بين العرب وبين العرب والمسلمين .

وترجع خطورة مدارس الارساليات التبشيرية الى أنها لا تدرس الاسلام ولا اللغة العربية كلية ولكنها تدرس اللغات الأجنبية المختلفة والثقافة المسيحية المستمدة من التوراة والانجيل في أبواب الأخلاق ، وبعضها علماني محض ينظر إلى الأخلاق والأديان والعروبة والاسلام والتاريخ الاسلامي نظرة تشكيك وازدراء ويتناوله تناول النقد المشوب بروح الازدراء .

وقد راجع كثير من الباحثين أخطار الارساليات على الشباب المسلم فأشاروا الى ان أول همّ المبشر هو هدم الاعتقاد في تلميذه فيصبح الطالب مستخفاً بالمعتقدات ، أما الخطوة الثانية فهي محاولة غرس تعاليم جديدة في ارض لم تعد صالحة للاعتقاد ، وذلك يؤدي الى أخطر النتائج ، وهو حض الطلبة على النفاق والمراعاة .

وقد أشار الدكتور عمر فروخ الى ان هناك مُسلّمات تدرّس في معاهد

الارساليات منها ان نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية الحديثة ، وهو غير صحيح وان الفلسفة العربية ليست إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية ، وهو من أقوال المتعصبين أمثال رينان . ذلك ان هناك فلسفة عربية إسلامية تختلف عن الفلسفة اليونانية والغربية جملة .

وبما قاله عمر فروخ ان مثل هذا السؤال عندما يوجه في الامتحانات العامة للتلميذ المسلم يكون الاجابة عليه علامة ودليلاً على مدى استسلام الطالب للأهداف ، فإذا انتصر للفلسفة العربية انتصاراً ظاهراً فإنه سوف يجرب حظه في دورة تالية ، أي أنه لا يعطى درجة تمكنه من النجاح .

الفصل الثاني

التعليم الوطني

إذا كانت صورة التعليم في معاهد الارساليات قد كشفت عن هذه المحاذير 'نظيرة فإن التعليم الوطني في البلاد المستعمرة قد مر بتجربة أشد خطورة وأبعد أثراً في هدم شخصية الطالب المسلم وتدميره وجعله أداة طيعة للنفوذ الغربي ، وموالياً مستسلماً للأجنبي المحتل . ولا ريب ان التعليم الوطني قد جاء صورة من التبعية والولاء في برامج وأعماله واتجاهاته لما خططه الاستعمار في معاهد الارساليات التي سبقت الاحتلال وتمرست سنوات طويلة بالعمل قبل السيطرة الثقافية التي فرضها النفوذ الاستعماري .

ففي مصر منذ عام ١٨٤٤ بدأت الارساليات ممهدة للاحتلال الذي وقع عام ١٨٨٢ حيث كانت تجربة ستين عاماً كفيلاً بأن تمد النظم التعليمية التي وضعها المحتل خبرة في العمل وبمجموعة كافية من المناهج والدراسات التطبيقية .

والأمر كذلك بالنسبة للاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان والجزائر وتونس والمغرب وبالنسبة للاحتلال الغربي بصفة عامة ، وفيما يتعلق بتركيا فقد سبقت

معاهد الارساليات في العمل جميع المخططات التي فرضتها حكومة الاتحاديين بعد عام ١٩٠٨ وما رسمته حكومة الجمهورية التركية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى .

وقد أكد دكتور زويمر رئيس المبشرين في البلاد العربية في الثلاثينات ما هدفت اليه السياسة الاستعمارية وما حققته حين أعلن تصريحه الذي قال فيه :

« إن السياسة الاستعمارية لما قضت من نصف قرن على برامج التعليم في المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسلام وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا يهودية . ناشئة مضطربة مادياً الأغراض لا قؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً فلا للمدين كرامة ولا للوطن حرمة » .

وأكد هاملتون جب هدف خطة التعليم في المدارس الوطنية واعتذر عما وصلت اليه من نتائج خطيرة حين قال :

نفذت خطة إنماء التعليم العلماني بإشراف الإنجليز في مصر والهند ، ولعل هناك نصيباً من الحق في التهمة التي ترمى بها هذه المدارس من أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، والذي فعلته لا ريب فيه أنها ربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة الى حد ما في أوطانهم الأصلية بإضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الاسلامية القديمة على التلاميذ وأدخلت في بناء المجتمع الاسلامي آراء هدمته وقطعت بعض الأواصر التي كانت تحفظ تماسكه .

ولم يكن مثل هؤلاء يصرحون بما صرحوا به إلا بعد ان تم تنفيذ الخطة وآتت ثمارها ، هذه الخطة ذات الشقين المتتاليين : مدارس الارساليات ترسم الطريق والمناهج ثم يحيي الاستعمار فيفرض هذه المناهج على المدارس الوطنية مع تغييرات طفيفة .

يقول ليوبولد فابس (محمد أسد : المستشرق المسلم) :

إن الايمان والإلحاد في الأغلب ينتقلان الى الانسان من بيئته الثقافية .

إن النشأة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة إرادتهم .
يجب علينا ان لا نتردد في درس العلوم الرياضية والطبيعية حسب الأسس الغربية ، ولكن يجب ان لا نتنازل للفلسفة الغربية عن أي دور من أدوار تنشئة أحداث المسلمين ، ولا ريب في ان بعضهم قد يستطيع ان يقول إنه من الصعب في كثير من الاحيان ان نجعل فاصلاً بين العلم التجريبي والفلسفة النظرية ، وذلك حق ولكن من الناحية الثانية : تلك هي النقطة التي يجب على الثقافة الاسلامية ان تثبت نفوذها عندها ، وسيكون من واجب علماء المسلمين ومن الفرص السانحة لهم ايضاً إذا وصلوا الى حدود البحث العلمي ، ان يستخدموا نظرم العلمي مستقلين فيه عن النظريات الفلسفية الغربية ، وانهم من طريق اتجاهم العقلي الخاص الاسلامي قد يصلون على الأرجح الى نتائج في المعقولات تختلف كل الاختلاف عن تلك التي وصل اليها العلماء الغربيون المحدثون .

ثم قال : إن تعلم الأدب الاوربي على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الاسلامية يقود الى جعل الاسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة ومثل هذا - ولكن الى حد بعيد - يصدق على التعليل الاوربي للتاريخ العام إذ لا يزال الموقف القديم « رومانيون وبرابرة » يظهر مجلاء ، ثم إن براهينهم تقوم على الزعم ايضاً بأن تطور العالم لا يمكن ان ينظر إلا على أساس تجارب الثقافة الأوروبية .

ويشير الكاتب الى ان المدارس الرسمية كالمدارس التبشيرية لا تعني بتدريس الدين الاسلامي للناشئة بل تتركه حراً فينشأ المتعلمون كارهين لدينهم أو غير مهيين لتقبل التعاليم الدينية مطلقاً بحسب تربيتهم .

عندما سيطر الاحتلال في مصر ١٨٨٢ كانت هناك مدارس الارساليات وكان هناك التعليم الوطني الحر القائم على مناهج عربية إسلامية شاملة . فكانت خطة الاحتلال مزدوجة ، قوامها القضاء على التعليم الوطني وخلق تعليم بديل له يستمد مناهجه من نظم مدارس الارساليات ، ودفع مدارس الارساليات الى استيعاب أبناء الطبقة الراقية . ولم تمض سنوات قليلة حتى اختفت معالم التعليم الوطني الأصيل وحلت بدلاً منه نظم معاهد الارساليات ، وفي نفس الوقت توسع التعليم في مدارس الارساليات وتضاعف وفتحت له الابواب على نحو أكثر قوة وأشد عمقاً مما كان في أيام سعيد وإسماعيل .

ويعد تقرير اللورد دوفرين هو نقطة البدء في هذا التحول الخطير وقد وصفه بعض الساسة الاجانب وصفاً صحيحاً حين قال : إن تقرير اللورد دوفرين عن التعليم يرمي الى ان يكون المصريون أحسن الاصدقاء والنصحاء لبريطانيا والغرب دون ان تفرضوا عليهم آراءكم أو تجعلوهم تحت وصاية تستثير حفاظهم .

وقد أشار تقرير اللورد دوفرين الى حالة التعليم القائمة في مصر وفي مقدمتها الأزهر الشريف : وقد وصفه بأنه مدرسة جامعة يدرس فيها علم الكلام والفقه والنحو والمنطق وآداب اللغة العربية وبه من الطلبة نحو ٨

٢. آلاف طالب على ثلاثمائة أستاذ .

أما مدارس الحكومة فقد وصفها بأنها مدارس بسيطة عددها ٥٣٧٠ تحتوي على ١٣٧٥٥٣ طالباً وتعلم فيها القراءة وحفظ القرآن غيباً .

ومدارس أولية عالية ويوجد بها نحو ٢٧ تحتوي على ٤٦٦٤ طالباً (والأولى هي المدارس المجانية والآخرى هي المدارس ذات المصروفات) وقال إنها تعلم القرآن الشريف واللغة العربية وعلم الحساب ومبادئ الجغرافيا والتاريخ ومبادئ لغة أجنبية ويترقى الطالب في هذه المدارس الى المدرسة العليا التجهيزية في القاهرة ومن هذه يتدرج الى مدرسة الصنائع والفنون ، وأشار الى المدرسة العليا وقال إنها تحوي ٢٩٢ طالباً .

أما مدارس الصنائع والفنون : فنما الطب ١٧٦ طالباً وسائر الفنون ٥٠ طالباً والمساحة ٣٩ طالباً والفنون والصنائع ٥١ طالباً والشرع ٣٧ طالباً ومدرسة اللغات ٢٣ طالباً ومدرسة الأساتذة ٦٠ طالباً والفعلية ٧٩ طالباً ومدرسة العميان والخرس ٧٥ طالباً والبنات ٣٠٠ طالبة والمدرسة العسكرية . وأشار الى أنه يوجد في أوربا ٤٩ شاباً مصرياً مرسلون .

وأشار الى المدارس التي انشأها المرسلون الاجانب ونحلهم ويبلغ عددها ١٥٣ مدرسة تحتوي ١٣٣٤٧ طالباً منهم ٥٣ في المائة من المصريين .

وأشار التقرير الى ان طريقة التعليم في الجامع الأزهر جافة ودروسها في العقيدة عقيمة لا تثمر فائدة ولا نتاجاً .

وأشار دوفرين في توصياته الى ما يلي :

« أخال ان أمل التقدم ضعيف طالما ان العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية لغة القرآن كما في الوقت الحاضر حالة كونها لا تتعلم اللغة العربية الدارجة لأن نسبة اللغة المصرية الدارجة الى لغة القرآن كنسبة الايطالياني الى اللاتيني

والاغريقي القديم ، وعربية الفلاح لغة قائمة بنفسها وقواعدها خاصة بها ، وإذا لم توجد هذه الاحتياطات الضرورية للحصول على النتائج الفعلية في المدارس العديدة التهذيبية التي اشترت اليها يستمر الجيل الجديد كسابقه غير صالح لخدمة وطنه سواء كان للقيادة العسكرية أو في الصنائع أو في الخدمات ، وتظل عبارة مصر للمصريين كما كانت اسماً بلا مسمى ، (١) .

وهكذا وضع دوفرين الجرس في رأس القط . وجاء كرومر ودنلوب منفذين إقصاء القرآن واللغة العربية ، وهذا ما أشار اليه « زويمر » وكشف عن أنه لم يلبث ان تحقق ، وفرغت مناهج التعليم من أقوى دعائم بناء أبناء المسلمين وأقصي الأزهر مرة أخرى بعد ان أقصاه محمد علي بإنشاء وزارة المعارف .

وقد دفع هذه الحقيقة كل من أرخ لمصر وهي لم تفت اللورد لويد في كتابه (مصر منذ أيام كرومر) حيث قال :

إن التعليم الوطني عندما قدم الإنجليز كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين والتي كانت أساليبها الجافة تقف حاجزاً في طريق أي إصلاح تعليمي ، وكان الطلبة الذين يتخرجون من هذه الجامعة يحملون معهم قدراً كبيراً من غرور التعصب الديني . فلو أمن تطوير الأزهر لكانت هذه خطوة جلية الخطر فليس من العسير ان يتصور لنا أي تقدم طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه هذه ولكن إذا بدا ان مثل هذه الخطوة غير متيسر تحقيقها فعندئذ يصبح الأمل محصوراً في إيجاد التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح .

ونحن نعرف ان مناهج الأزهر كانت جامدة ولكنها لم تكن بالصورة التي

(١) المقتطف ص ٦٦٨ م ٧ .

تعارض بناء المسلمين على أساس من قوة العقيدة وسلامة العقل ، ولكن الاستعمار لم يكن يريد بقاء مثل هذه الشخصية القادرة على مقاومته ومعارضته ، فلا بد من تحطيم وجودها بالتعليم اللاديني . كذلك فإن الدعوة الى تطوير الازهر كانت خطوة اخرى على الطريق . جاءت نتائجها من بعد حين أذعنّت الامة لمطلب الانجليز ومزقت الازهر الى تخصصات ثم دمرت أسلوبه العلمي القديم ، فلم يعد من شيء يستطيع ان يقف أمام شبهات الاستشراق ومغالطات دعاة التغريب .

ويستطيع هذا النموذج الحي أن يعطينا صورة التعليم الوطني في مصر وكيف تطور بعد الاحتلال تنفيذاً لخطة دوفرين ومنهج كرومر وأسلوب دنلوب بما يحقق هدف الاستعمار من تخريب العقول والنفوس .

يقول الأستاذ محمد لطفي جمعة :

إننا تعلمنا في المدرسة الثانوية (وكانت الحديوية التجهيزية بدرب الجمايز) في أوائل هذا القرن (١٩٠١ - ١٩٠٢) وكان استاذنا في التاريخ المستر هيل ويعلمنا باللغة الانجليزية أن اثنين من رجال أوروبا أنقذا المدينة الغربية من السقوط على أيدي البرابرة المتوحشين : أولهما تمستو كليس اليوناني الذي هزم قورش أو (زاجيز) الفارسي في موقعة سلاميس الشهيرة والرجل الثاني (شارل مارتل) الذي هزم العرب في موقعة بواتيه : الأولى حصلت في ٤٨٠ قبل المسيح والثانية حصلت ٧٣٢ بعد المسيح أي أن بينهما ألف ومائتين واثنى عشرة سنة ، وقد كتبنا هذا بأنفسنا وبأيدينا بإملاء استاذنا الانجليزي ، الذي مثل لنا أمة العرب التي أنجبت مئات الألوف من رجال العلوم والفنون والآداب والذين علموا أوروبا وهذبوها ، في وحشية وقسوة تعادل وحشية الفرس الوثنيين قبل الميلاد بخمسة قرون فصدقنا هذا وآمننا به وتعلمناه وحفظناه وأدينا فيه امتحانات عشرة .

ثم قال الكاتب في موضع آخر :

إن دنلوب العظيم العبقري أعظم من أنجيته انجلترا لقتل مصر والشرق

تمكن في عشرين عاماً من تخريب العقول والنفوس والضمائر والعواطف مما لو جندت بريطانيا مليون جندي على مصر فإننا لما دخلنا المدارس التحضيرية في أوائل هذا القرن وجدنا أساتذة التاريخ من الانجليز أمثال مستر هيل ومستر فرنسكروفت فأخذوا يلون علينا مقاطعات بالانجليزية عن تاريخ الدولة الرومانية والقرون الوسطى وحروب الأديان والنزاع بين الكاثوليك والبروتستانت وسلطة البابا وفردريك الأكبر وكاترين العظمى ، كل ذلك في فصول مختصرة مختلة سقيمة الأسلوب عقيمة المعنى . وكان امتحاننا يدور حول هذه المسائل ، ولم نعط كتاباً ملء بهذه الموضوعات لا جيداً ولا رديئاً أما تاريخ الشرق والعرب ومصر فلم نأخذ منه كلمة واحدة إلا سطوراً واحداً كأننا نشأنا من العدم وإلى العدم نعود ، ودائماً اذا ذكر الشرق كان يذكر في مجال الانحطاط والسقوط والفشل والحروب التي فاز عليه الغرب فيها مثل صد اليونان للفرس والفرنسيين للعرب والنمسيين للترك وسقوط العرب في الاندلس والحلال الدولة العثمانية بعد تغلب روسيا عليها .

أما مصر القديمة ومجدها وحضارتها فداخلة في منطقة الصمت وكذلك الحروب الصليبية لم يعرف منها إلا ما كان ماساً بقهرنا . وإن الانصاف يحدوني أن أذكر رجلاً واحداً هو مستر جونز من بلاد ويلس عين استاذاً للتاريخ (١٩٠٤ - ١٩٠٥) في المدرسة الحديوية بدرب الجاميز ، وكان له اسلوب وفكر وضمير ، وأملى علينا بضعة دروس في تاريخ مصر والعرب فعزل في آخر العام الدراسي ولم يعد الى وادي النيل .

وهذه الخطة التي أراد الانجليز ان يحرّمونا بها من ضمائرنا ويسرقوا وجداننا القومي ويقطعوا الحلقة التي تربطنا بالماضي هي نفسها الخطة التي اتبعوها ونفذوها في الهند ، وهي نفسها التي اتبعتها ونفذتها فرنسا في تونس والجزائر ومراكش ، وهي التي يتبعها كل مستعمر وكل متغلب وفاتح (١) .

(١) البلاغ الاسبوعي ١٩٣٢/٢/٧ .

تلك هي صورة التخطيط الذي رسمه الاحتلال في مصر وطبقه الاستعمار في مختلف أجزاء العالم الاسلامي . وكان كرومر هو الرائد الذي سار عليه كل من جاء بعده ، فالمارشال ليوتي والكردينال لافيغري في المغرب هما كرومر ودنلوب في مصر تماماً .

جاء كرومر الى مصر بعد الاحتلال بعام أو عامين ١٨٨٤ تقريباً ، وعين دنلوب سكرتيراً عاماً لوزارة المعارف عام ١٨٩٧ ثم مستشاراً عاماً لها عام ١٩٠٦ وكان في أول أمره قساً مبشراً عمل في وظيفة مدرس للغة الانجليزية والخط الافرنجي في مدرسة رأس التين الثانوية ثم لفت نظر كرومر فدفعه الى العمل في فظارة المعارف وما زال يترقى حتى اصبحت مسيطرة سيطرة كاملة على شؤون التربية والتعليم .

ويعد (دنلوب) واضع المخطط الاساسي لتغريب التعليم والتربية وإقصاء الاسلام وتاريخه واللغة العربية عن برامج التعليم في المدرسة المصرية ، وهو أيضاً منفذ هذا المخطط والمشرف عليه سنوات طويلة حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى . وقد عمل دنلوب على محاربة اللغة العربية والاسلام والازهر واضطهد معلمي القرآن واللغة العربية من الازهرين ونشر لواء اللغة الانجليزية وأهلها للسيطرة الكاملة على كل شؤون التعليم وقضى على نفوذ اللغة العربية .

كما أنشأ جيشاً ضخماً من الانجليز حملة الشهادات الأهلية للعمل بالمدارس المصرية وفق خطة مأكرة لخلق شعور عام بكراهية تاريخ المسلمين ولغتهم وإثارة الشكوك حولها وطعن روح الوطنية في الشباب المصري والقضاء على حماسهم ، وقد داسوا على كل عاطفة وطنية واضطهدوا كل شاب أظهر ميلاً أو عاطفة نحو دين او وطن ، وأنشأوا نظاماً للتجسس في المدارس يطاردون به الشباب الوطني ، وحرموا على كل مدرس مصري ان يتحدث عن تاريخ مصر او تاريخ العرب او تاريخ الاسلام بما يبرز عظمة أمتنا ، وكان أهم ما يقال

إن مصر بلد زراعي ، وإنها ظلت محتلة طوال تاريخها بالفرس والرومان والأتراك ، وإنها لن تحكم نفسها أبداً ، وإن جيشها قد هزم في التل الكبير ، وإن الجنود المصريين ذبحوا ليلة ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ التي كانت قمرية ذبح الخراف وكان محرماً على أي طالب مصري أن يقرأ جريدة وطنية .

وقد قاوم كرومر ودنلوب نشر التعليم العالي في مصر وسجل ذلك كرومر في تقريره حين قال عام ١٩٠٧ :

إن انجلترا لا تريد نشر التعليم العالي في مصر وإنها لا تريد إلا إعداد جمهور من طبقة الأفندية ليشغلوا الوظائف الثانوية في الحكومة ، وإن المصريين لا يصلحون للعلوم العالية ، وإن زيادة التعليم تصرف عن فلاحه الأرض وتعود على مصر بالإفلاس .

وقد حرص دنلوب بتوجيه كرومر وبريطانيا على تنفيذ خطة واضحة المعالم للعمل على وقف انتشار التعليم أو ترقيته وسبيلهم الى ذلك تقليل اعتمادات المعارف وصرف اغلب المبالغ على بناء القصور المشيدة واقتناء الاثاث الفاخر المدارس ، وكان دنلوب يعمل على قلب المدارس الابتدائية الى أولية راقية اكتفاء بالمدارس الأميرية في كل مديرية كما شجع انتشار المدارس الأجنبية وفق غايات سياسية تسير في نفس الاتجاه الاستعماري وهو تحطيم كيان الأمة وإفساد معنويتها .

وحرص دنلوب على معاملة الطلبة الوطنيين بمنتهى القسوة فعدل عام ١٩١٠ المادتين ٨٨ و ١٠٠ من قانون نظام المدارس بفرض عقوبات على التلاميذ وفصل كل تلميذ لا يحصل على ٢٠ درجة في السلوك واتخذ من ذلك سبيلاً الى خنق الشعور بالحرية .

وقد سجل مسميو (ادوار لامبير) ناظر مدرسة الحقوق في تقريره الذي نشره في جريدة الطان ١٩٠٧ بعد أن أبعده كرومر ودنلوب لأنه فرنسي ،

سجل صورة الصراع بين الفرنسيين والانجليز على المناصب الكبرى في التربية والتعليم وكشف عن الخطة التي رسمها كرومر ونفذها دنلوب في إقصاء الفرنسيين عن المناصب الكبرى في المدارس العالية وتعيين أساتذة إنجليز بدلاً منهم ، دون ان يكونوا في مستواهم من الناحية الفنية وانه قد أخرج الأساتذة الفرنسيين من القضاء من مدرسة الحقوق واستبدل بهم شباناً من الانجليز عينوا بمجرد تخرجهم من الكليات البريطانية دون ان يكون لهم أي قدر من الكفاية التي تمكنهم من دراسة القانون. كما أشار الى الأنظمة الاستبدادية التي اتخذها بالنسبة للطلبة وكيف عاملهم بقسوة متناهية واضطهدهم وجرح كرامتهم مما أحال مدرسة الحقوق معقلاً للوطنية المصرية بحيث أصبح كل طلابها الاربعمئة تابعين للحزب الوطني .

وإن كرومر قد اضطر تحت ضغط الرأي العام الى تعيين (سعد زغلول) ناظراً للمعارف وعمل على سلب سلطته الفعلية ، وأشار الى الخطط التي كان دنلوب يدبرها مع نظار المدارس وكبار الموظفين للاتصال به شخصياً وتلقي أوامره وتعليماته قبل ان يكتبوا تقاريرهم الرسمية ، وقال لامبير في تقريره :

إن الموظف القابض على الإدارة الحقيقية لوزارة المعارف هو دوجلاس دنلوب وفي لفترة الطويلة التي قضاها دنلوب في وزارة المعارف وقد تبعه خليفة له سار على نفس الخط تحقق تنفيذ خطة التغريب الكاملة للتعليم على النحو الذي استمر يشق طريقه من بعد وإلى وقت قريب وما تزال آثاره باقية .

وكان هدف هذا المخطط أساساً هو تغريب الثقافة العربية وتدمير الذاتية الاسلامية وإحالتها الى مزيج مضطرب من تنف الثقافات المختلفة ومحاولة التشكيك في كل مقومات فكرنا وأجسادنا وتاريخنا الحافل بالمواقف الحاسمة والمواقع الخالدة في الدفاع عن الحرية والحق ومقاومة الغالب والمشاركة في الحضارة البشرية وحماية آثارها .

ولقد أبطل دنلوب عديداً من الكتب التربوية التي كانت تبني الذاتية الإسلامية في الشباب ، وقد كشفت جريدة المؤيد (٢٥ يوليو ١٨٩٩) عن نماذج من هذا العمل وقالت إن هذه الكتب كانت معارضة لهدفه من الوجهتين الدينية والسياسية وذلك بإيرادها قواعد الاسلام وأركانها مصحوبة بالحكم والآيات والقرآن والأحاديث التي تحت على حب الوطن والتعاون وإصلاح ذات البين ، وفي سبيل إعدام هذه الكتب أعلن دنلوب أن مثل هذه الكتب غير وافية بمحاجات التعليم وأوعز الى بعض المدرسين الموالين له بأن يضعوا كتباً بديلة لها تضم خرافات لافونتين وقصص مترجمة لا تمثل الروح العربي وتعارض مع الذوق الاسلامي ، وقد قدمت هذه الكتب في اسلوب نازل وعبرة سقيمة . وأشارت المؤيد الى ان الشيخ حمزة فتح الله فاضل في سبيل إحباط رأي دنلوب فأعلن الاخير ان كل كتب المطالعة يجب ان تخلو تماماً من كل ما له صلة بالدين .

ومثل هذا حدث مع الشيخ عبد العزيز جاويز الذي عاد من بريطانيا بعد ان تعلم في كبرج وقد كانت له الجرأة في مناقشة دنلوب في منهج مدرسة المعلمين إذ كان يرى ان يكون المنهج عاماً واحداً ، فاعترض جاويز وقال إن في مدرسة المعلمين ببريطانيا برنامجاً في أربع سنوات فأشار دنلوب الى ان مدرسة المعلمين في مصر إنما تهدف الى تخريج مدرسين يؤدون واجباً محدوداً لا يزيد عن إعداد الموظفين ، وكان ذلك متمشياً مع خطة كرومر المعروفة : « عقل بريطاني ويد مصرية » وقد واجهت مؤلفات عبد العزيز جاويز نفس مصير مؤلفات علي مبارك وعبد الله فكري وقد اقصيت جميعاً وألفت بدلاً منها كتب اخرى تحقق هدف دنلوب وهدف التعريب أساساً .

ولقد حاولت ان أحصل على بعض نماذج هذه الكتب مما أودع في دار الكتب الخديوية ومع الأسف لم أجده شيئاً إذ يبدو أنها انتزعت ايضاً من هناك ، وقد قرأت في حديث للأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف نشره في إحدى

المجلات أن دنلوب أقام حرائق كبيرة لهذه الكتب وباع كثيراً منها في المزاد وأخلى منها مخازن وزارة المعارف حتى تنعدم نهائياً .

ولقد كانت لدنلوب سلطة ضخمة ونفوذ عجيب حتى ان ناظر المعارف لم يكن يجرؤ على ان يتخطاه في أمر فإذا فعل ألفاء دنلوب ، وكان رؤساء المدارس ومعلموها في مختلف أنحاء القطر المصري يعرفون أنه هو المسؤول الحقيقي ويخشونه .

وقد بلغ من عسفه أنه كان يرسل احياناً خادمه الخاص (الجاويش محمد علي) الى إحدى عواصم الأقاليم في صباح أيّ يوم يحمل معه عليه طربوشه الذي كان يلبسه عندما يدخل أي مدرسة ثم يخلعه بعد ذلك ، فلا يكاد يظهر طربوش دنلوب على باب أيّ مدرسة حتى تهتز المدرسة كلها والمدارس المجاورة ويسري الخبر سريان النار في الهشيم فتجري حركة تنظيف وتوضيب واستعداد لأن جناب المستشار قادم للتفتيش . والكل يرتعد فرقا ويتلقى الجاويش محمد علي الأمر بالانتقال من طنطا الى الزقازيق الى نهبها وفيها تتكرر الرواية عينها ، ومن الغريب ان دنلوب كان في الأغلب لا يحضر ويجري عملية تفتيش بواسطة جاويشه وطربوشه .

ولكن ذلك كله لم يكن ليوقف حملات الصحافة الوطنية على دنلوب ونقد تصرفاته ولم تتوقف صحف الحزب الوطني عن التصدي له ومهاجمته .

قالت اللواء في ٩ اكتوبر ١٩٠٧ إن المصريين يعملون ان دنلوب هو أقوى آلة وضعها اللورد كرومر لتعطيل التعليم في مصر وأكبر مقاوم لرقى البلاد من باب المعارف ومحاولة سد الطريق التي يرقى بها وأنه يستعمل كل ما اوتي من سلطة وقوة لمحاربة المصريين حتى بالسطو على ذمم الموظفين معه لتجد من ضعفها قوة ومن التلاعب بها السلاح القاتل للأمة .

ويجمع المؤرخون والباحثون على ان القسيس دنلوب هو مؤسس الاستعمار التربوي والعقلي والتعليمي في مصر .

ولذلك فقد عمد الحزب الوطني الى إنشاء المدارس الأهلية وقامت الجمعية الخيرية الاسلامية بإشراف الشيخ محمد عبده على فتح المدارس لتعليم أبناء المسلمين وتحريرهم من هذه الأنظمة التي تحطم معنوياتهم .

وعقد مصطفى باشا كامل زعيم الحزب الوطني وصاحب اللواء مؤتمراً للتربية كان له دويّ شديد في ١٥ مايو ١٩٠٧ عرض لعدد من المسائل الخطيرة والهامة في هذا الصدد منها جعل التعليم في المدارس باللغة العربية وكيفية إزالة الصعاب التي تقول بها نظارة المعارف عن طريق إحلال اللغة العربية محل اللغة الإنجليزية، وتأمين مصلحة الأمة بأن يقوم التعليم في المدارس الأهلية على خطة من شأنها تخريج رجال يستطيعون البروز في معترك الحياة أقوى من غيرهم (أي تلاميذ المدارس الوطنية الذين يشكلهم النفوذ الاستعماري) وكذلك وضع قواعد ثابتة لترقية التأليف ونقل العلوم الحديثة الى اللغة العربية وتسهيل السبيل على القراء بتقليل أثمان الكتب ودراسة نظام التعليم في الجامعة وما إذا كان التعليم الديني هو أساس لتعاليمها .

ولا ريب ان هذه القضايا كلها كانت تمثل حاجة الأمة في مواجهة خطر دنلوب، بالإضافة الى الخطر الذي تضاعف بتعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف فكان أول وأخطر مقرراته اعتماد مادة اللغة الانجليزية للتعليم في جميع المواد ومعارضة قرار أعضاء مجلس الشورى باتخاذ اللغة العربية أساساً للتعليم .

أما في الإرساليات فإن الأمر كان أشد خطراً فقد أغرى الاحتلال البريطاني وفود الإرساليات الى مصر بالتوسع فزادت مدارسهم زيادة كبيرة إذ تضاعف عدد الإرساليات وخاصة النسوية .

وكان لاتفاقية ١٩٠٤ بين إنجلترا وفرنسا أثرها فقد نصت على ان تتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي كانت تتمتع بها في الماضي .

» كذلك عمل الاحتلال على إحلال اللغة الانجليزية محل اللغة العربية في المدارس المصرية وجعلها لغة التدريس في المرحلتين الابتدائية والثانوية وجعل التعليم في المرحلتين بمصروفات لا يحتمل دفعها إلا الموسرون القادرون، وقد ساعد ذلك على تكوين صنفين متميزين في الثقافة والاتجاهات لا تكاد إحداهما تؤمن بالآخرى أو تقوم بالتفاهم الجدي « .

وقد أدى هذا العمل في مجال التعليم العام الى تشجيع المدارس الأجنبية على دعم اتجاهاتها الخطيرة وخلق طبقة تنقسم بالارستقراطية في ثقافتها الأجنبية .

وقد زاد استقلال المدارس الأجنبية خلال الاحتلال واتسع أمامها مجال

العمل بغير أي إشراف أو مراجعة مما مكنها من توجيه تلاميذها الوجهة التي قصدوا إليها .

وقد كان خطاب المندوب السامي البريطاني في كلية فيكتوريا بالاسكندرية كل يوم يمثل اتجاه بريطانيا نحو الارساليات ودعم الفاية التي يتطلع اليها الاستعمار .

ويكفي هذا النموذج للتدليل على أهداف بريطانيا في تعليم الارساليات وهو من خطاب اللورد لويد في مايو ١٩٢٦ قال :

قد يهمكم ان تعلموا ان أبناء الكلية السابقين من ثمانية أجناس أو تسعة أجناس مختلفة وان من الطلبة الآن ٣٠ في المائة مصريون و ٢٠ في المائة انكلوسكسون ومنهم يوتان ويهود وإيطاليون وأرمن وسوريون وأحباش وغيرهم .

كل هؤلاء لا يمضي عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ فيكونوا قادرين على ان يفهموا أساليبنا ويعطفوا علينا .

وأود كثيراً ان أشعر بأن كلية فيكتوريا تنجب نفراً من نخبة الموظفين والمعلمين والتجار ، هذه الكلية تنمي فيهم من الشعور الانجليزي ما يكون كافياً لجعلهم صلة للتفاهم بين الشرقي والغربي .

هذه المشاكل (التي بين بريطانيا ومصر) تحل إذا تعلم كل من الانجليز والمصريين ان ينظر الى رأي الفريق الآخر نظراً مقروناً بالفهم والعطف^(١) .

وقد أشارت الصحف الى ان كلية فيكتوريا قد أنشأها الانجليز لمقاومة نفوذ الثقافة الفرنسية في مصر وأن (جورج لويد) المندوب البريطاني عندما

(١) الصحف ١٩٣١/١٢/٢١ .

ضاق صدره بتفوق المدارس الفرنسية في مصر ذهب واستنهض المالية الانجليزية بالاسكندرية وجمع منها مائة الف جنيه في جلسة واحدة ليقوي كلية فيكتوريا وذلك مع وزير مصري مسؤول فخطب بالانجليزية لتعضيد ذلك المشروع^(١).

وإذا كانت بريطانيا قد وافقت فرنسا عام ١٩٩٤ على حرية عملها في مجال الارساليات فإن بريطانيا تعهدت بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ وفي مؤتمر مونتروا ١٩٣٧ بأن تحمي معاهد الارساليات لا لفرنسا وحدها ولكن لجميع الدول . وكانت فرنسا قد طلبت في مؤتمر مونتروا بلسان مسيو لاجارد حماية الكاثوليك والهيئات الدينية اللاتينية في مصر وتسجيل ان لفرنسا امتيازات في هذه الحماية .

وقال ساطع الحصري : إن النظم العديدة التي وضعت في سوريا في عهد الانتداب الفرنسي إنما كانت قد وضعت تنفيذاً لسياسة مرسومة بوضوح واتفاق ، غاية هذه السياسة تأمين سيطرة الثقافة الفرنسية والنظم الفرنسية على معارف البلاد سيطرة مطلقة من غير التفات الى ما تتطلبه أصول التربية السليمة .

ولا ريب أنه كان من أهم الأحداث التي يؤرخ بها في مجال احتضان الاستعمار للارساليات وحمايتها : أحداث ٢٥ يناير ١٩٣٢ عندما توسل المبشرون الى تنصير يوسف عز الدين عبد الصمد الطالب بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عن طريق التنويم المغناطيسي وأن طبيباً قساً كان يعتمد الى تنويمه والعبث بإرادته وأنهم اخيراً اقتادوه الى منزل بضاحية المعادي واعتقلوه هنالك فاقد الإرادة والرشد تحت تأثير هذه الوسيلة المحرمة .

وعلق الدكتور هيكمل في جريدة السياسة على هذا الموقف الخطير فقال :

(١) الصحف ١٩٣١/١٢/٢١ .

إننا لم نطمئن في وقت من الأوقات الى قيام هذه المعاهد والى غاياتها المربية وما زلنا على يقين من أنها ليست تعمل لغاية بريئة، وان بث العلم والثقافة إن هو إلا ستار لجهود وأعمال تأبأها مبادئ التربية الصحيحة وتنكرها قواعد الأخلاق والمدنية .

وان انكشاف هذه المعاهد وتعميتها قد جاء نذيراً للآباء ونذيراً للطلبة الذين تجذبهم دعواتها الخادعة باسم الثقافة والرياضة والتعليم الحر فيدخلونها آمنين وهم لا يعلمون أنهم ينتظمون في سلك معترك من الدسائس والمؤامرات البشرية الدنيئة ويتعرضون لأنواع التأثير والغواية الشائنة .

سيطر التعليم الاستعماري الوطني في مصر وسوريا والعراق والسودان وليبيا وتونس وفلسطين والجزائر ومراكش من الأقطار العربية .

كما سيطر تعليم الإرساليات الأجنبي في هذه الأقطار أيضاً وسيطر بصفة واضحة في تركيا وإيران والهند واندونيسيا والملايو وكانت أبرز مراكزه في بيروت واستانبول والقاهرة .

وقد حقق الاستعمار اهدافه في السيطرة على العالم الإسلامي عن طريق التعليم عندما لم تمر سنوات قليلة حتى خرج ثماره ممن تولوا أمور البلاد وقيادتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وقد أشار الباحثون في شؤون التعليم^(١) في المستعمرات الى النظم التي تستخدمها الدولة المحتلة لتعليم أولاد الأهليين فيها ، وأقدم هذه النظم هي عدم تعليم أحد من أبناء الأهليين ، ولكن المستعمرين وجدوا أنفسهم في حاجة شديدة الى الاستعانة بأهالي البلاد لاستغلال المرافق الاقتصادية والثروة الطبيعية وكان العامل الأساسي لتأسيس هذه المعاهد تخريج طائفة من أهالي المستعمرات يخدمون المستعمر .

(١) ساطع المصري : فصول عن الاستعمار والتعليم (الرسالة ١٩٣٦) .

وفكر بعض المستعمرين بأنه يجب أن يرافق الفتح السياسي فتح معنوي بحيث يتقرب أهالي المستعمرات من المستعمرين الى أن يندمجوا فيها اندماجاً ، وقد فكروا في سبيل تحقيق هذا الغرض أولاً بنشر لغة المستعمر ، فيتعلم أهالي المستعمرات تعليماً ينشئ في نفوسهم حب المستعمر فيستسلمون له طواعية .

وقد برز النوع الاول من سياسة الاستعمار اكثر وضوحاً في الهند في ظل الاستعمار الانجليزي كما تجلى النوع الثاني في الجزائر بالاستعمار الفرنسي . وكان الفرنسيون يأملون في سياستهم تقريب المستعمرين اليهم ، وظنوا أنهم بنشر لغتهم بينهم وإشراهم ثقافتهم يفرسون حبهم في قلوب الأهليين، ولذلك جعلوا اللغة الفرنسية محوراً لكل درس في مناهجهم ، وقالوا بصراحة : إن المدرسة يجب أن تكون قبل كل شيء معهداً لتعليم اللغة الفرنسية ، كما اهتموا بمناهج الأخلاق في المدارس لتعليم أولاد المستعمرات ما يجب للأهليين بالفرنسيين فنجد من مناهج الأخلاق في مدارس الجزائر قسماً خاصاً في واجبات الأهليين نحو فرنسا .

ومما جاء في هذا المنهج : ما يترقب على اهل الجزائر من الواجبات نحو فرنسا مقابل الحماية التي تسديها اليهم والعدل الذي أدخلته في بلادهم والأمن الذي نشرته في ربوعهم ونعم التعليم والحضارة التي اغدقتها عليهم ، الاحترام الذي يجب ان يشعروا به نحو من يدير البلاد باسم فرنسا والاحترام الذي يجب أن يظهروه نحو العلم الفرنسي .

وهذا هو ما سمي « التعليم لتسهيل عمل الاستعمار » .

وقد اسفرت تجارب هذا النوع من التعليم عن نتائج سيئة إذ ما عتمت أن أحدثت رد فعل عند أولاد المستعمرات ، فقد تغيرت احوالهم بعد مدة قليلة أو كثيرة من تخرجهم من المدارس ، وبدلاً من أن يكونوا مطبوعين على حب المستعمر يتفانون في خدمته أصبحوا على نقيص ذلك يكرهونه

ويكافحونه ، فأسقط في أيدي المستعمرين ، وفكر علماء المستعمرين في هذه المعضلة قوجدوا أن هذه نتيجة طبيعية لأن ابن المستعمرات إذا ما قرأ تاريخ الأمة المستعمرة ودرس الثورات ووقف على مطالب الشعب من الحكومة يتحمس لهذا الحس فيشب راغباً في تطبيق ما درسه .

ومن هنا لجأوا الى طريقة جديدة في سياسة التعليم : هي « التعليم بغير تثقيف » فاتجهوا الى تعليم أولاد المستعمرات من غير تثقيفهم ، تعليمهم تعليمًا ضيقاً جداً يجعلهم آلات صماء في أيدي الاستعمار .

وقد بذلت الدول المستعمرة جهودها في وضع نظام للتعليم على هذا الأساس يجعل التعليم وسيلة ميكانيكية بحتة ، إذ تكون لغايات محدودة معينة بدون أن يدخل على هذا التعليم أي عنصر من عناصر الثقافة العامة ومضوا في ابتكار طريقة خبيثة لتدريب أبناء المستعمرات على أن يكونوا مسامير في صفحة خشبية أو عجلات في آلة ميكانيكية مجردين من أي لون من ألوان الثقافة العامة .

ومن التعليم بدون تثقيف ، الى فصل الأقطار عن بعضها لجعلها مختلفة اللغة وحتى لا ينتقل أبنائها الى الأخرى ليبثوا آراء جديدة .

وأخذ الفرنسيون في المغرب يفرقون بين العرب والبربر وغيرهم بحرمان البربر من تعلم اللغة العربية حتى يجعلهم بعيدين عن التأثير بالمدارس التي تدرس العربية أو ما يكتب بهذه اللغة في الأقطار الأخرى .

ومن ذلك فكرة نشر اللغة العامية وهو الوسيلة التي تباعد بين الأقطار العربية وتساهل على المستعمرين أغراضهم ، وقد بثوا لهذه الفكرة دعايات خدع بها أبناء البلاد المستعمرة وروجوا لها ، وقد طلا المستعمر هذه المكيدة تحت عنوان نشر التعليم بين طبقات الشعب وما دام الجمهور في الأقطار العربية لا يعرف اللغة الفصحى غالباً فيجب تعليمه بلغته المحلية العامية .

وهكذا نجد أن خطة الاستعمار في التعليم قد حققت كل اهداف الاستعمار
\في السياسة والتاريخ والاجتماع :

عزل كل قطر عن الآخر ، وعزلت جماعات مختلفة في كل قطر عن
الأخرى ولقد حرصت الغايات العليا لمناهج التعليم الوطني في ظل النفوذ
الاستعماري على الفصل بين كل قطر وتعزيز اقليميته الخاصة ولهجته العامية ،
وإقناع كل قطر بأنه صاحب وجود وكيان منفصل عن القطر الآخر الذي
هو جزء منه عربياً وإسلامياً .

أفسد التعليم الاستعماري على الشباب عناصر رجولته وجعل اكبر مهمم
العناية بالزينة والمرآة وزجاجة العطر وجعل ولعه بالشيء الأجنبي والغريب
والعامي والمتحلل من قيود الأخلاق .

حرص على ثنائية التعليم الديني والمدني لإيجاد طبقتين متميزتين مختلفتين
متصارعتين وقد ارتبطت ثنائية التعليم بامتياز طائفة واحتقار الأخرى وقد
عمق ذلك الفرق بين الطبقتين وأقام بينهما عوامل الصراع والاحتقار .

وانهى ذلك بقيام طبقة الاقطاعيين والأجراء واستهدف بذلك إقامة
طبقة القادة الذين يتولون أمور البلاد من أولئك الذين شكلهم وفتح لهم
الطريق .

جعل الشخصية الغربية هي المثل الأعلى ، وجعل نهضة الغرب وبيشته
وأبطاله هم المصدر الأصلي لما تحشى به عقول الشباب ، بل إن الاستعمار بنى
مناهج دروس الدين والتاريخ على الأساس الغربي ، فالدين الاسلامي يعلم في
المدارس الوطنية مادة روحية أخلاقية ويعلم على وجه بعيد جداً عن الحياة
وعن حقيقة مبادئه ، فحياة الرسول ﷺ تدرس لأبنائنا منقطعة الصلة عن
حياتهم وبيشتهم بينما تدرس حياة نابليون وبسمارك وشكسبير بأسلوب مبهرج ،
كذلك فإن مادة العبادات والأخلاق تعلم من وجهة النظر النفعية ، أما

التاريخ الإسلامي فإنه مجموعة من المثالب التي تصور حكام المسلمين وخلفاءهم على أنهم سياسيون محترفون يغلب عليهم سوء النية أو سوء الفهم . ونبئت نابتة من المسلمين المثقفين تعلم التاريخ وتؤلف فيه وفق الأسلوب التبشيري والمنهج الاستشراقي .

« وهكذا كافة البرامج قد وضعت كلها على أساس الفلسفة الغربية ووفق مناهج الغرب . وقد أخلص هؤلاء الرواد إخلاصاً تاماً لهذه الثقافة حملهم على تقديس الاجنبي وحب حضارته ، وانطبع كثيرون بطابعه ، وصاروا يفتنون الإسلام والثقافة الإسلامية كما يفتنها الغربي ، ويحملون للإسلام وللثقافة الإسلامية العداء كما يحمله الغربي ، وصاروا يعتقدون أن الإسلام والثقافة الإسلامية هي سبب تأخر المسلمين كما أوحى اليهم أن يعتقدوا ذلك ، وبهذا نجحت الإرساليات والحملات التبشيرية نجاحاً منقطع النظير من حيث ضمت إليها الفئة المتعلمة من المسلمين وجعلتها في صفوفها تحارب الإسلام والثقافة الإسلامية » .

ولقد قام رجال الاحتلال في الأقطار المستعمرة على مهمتهم حتى استطاعوا حين انفكوا عنها أن يكونوا قد أعدوا « الركيزة » الحقيقية من أبناء البلاد أنفسهم ، وكرومر في مصر بعد أن مضى ربع قرن وغادر مصر عام ١٩٠٧ كان قد أحس تماماً بأنه ركز ركيزة صالحة للعمل سنوات طويلة ، وقد كان يدعو الشباب المتعلم في المدارس الوطنية وفق منهج الغرب أن يتقدم ليتسلم أمانة الحكم في بلده ويتصور المستقبل وقد جاء وفق ما خطط ورسم .

يقول في تقرير عام ١٩٠٣ : في مصر اليوم جيل جديد يختلف عن أجداده في أمور كثيرة ، فيمكن أن تحدثه نفسه يوماً أن يد إلى تلك الأركان القديمة يدأ لا تعرف حرمة القديم فتكون أشد عليها من يد حكومة تمدها اليوم طبعاً لإرشاد قوم لا شأن لهم في الأمر (يعني الانجليز) لأنهم لا يدينون بالدين الإسلامي ، فإذا كان لهذا الحساب نصيب من الصواب فالأجدر بأبناء اليوم ان يشرعوا في الإصلاح ويتلافوا الأمر قبل حلوله .

وقد تحقق هدف دنلوب وجاء كثيرون مدوا للقديم الذي هو الإسلام يدأ ، وكان بعض هؤلاء ليسوا من رجال المدارس التبشيرية والإرساليات ، ولكن من معاهد التعليم الوطني الذي وضع مناهجه الاحتلال ، ومن الأزهر أيضاً .

ويقول أحد الباحثين : ظل يتخرج هذا العدد من المدارس الدنلوبية
الجيل بعد الجيل حتى صار للإسلام في مصر معنيان :

١ - المعنى الذي فهمه الشيخ محمد عبده من ينابيع الإسلام مباشرة وكان
مؤمناً بأن الأخذ به على وجهه الصحيح يحول الأمة من الضعف الى القوة ومن
اليأس الى الرجاء ومن الخمول الى النشاط .

٢ - والمعنى الذي فهمه تلاميذ دنلوب ولم يتلقوه عن الاسلام نفسه بل عن
حالة المسلمين المنحطة المتنافية للإسلام وعن اقوال فلاسفة أوروبا فيما كانت عليه
الكنيسة في القرون الوسطى فظنوا أن ما قاله الأوروبيون عن غير الاسلام
ينطبق على الاسلام .

ومكثدا وضعت المناهج بأيدي أصحاب البرانيط غير حاسبين للروح
الاسلامي حساباً ؛ ويقول السيد محب الدين الخطيب :

إن مناهج التعليم لا تزال تلف وتدور حول المحور الذي وضعه دنلوب ،
وإصلاح هذه المناهج يجب أن لا تكون بأيدي أناس عرفوا بالتعصب على
الإسلام سواء أ كانت اسماؤهم إسلامية أم كانوا من الذين حضروا الى هذه الديار
السمي في إخراج أهلها من ربة الدين الحمدي . كان الغرض الدنلوبى تخريج
طبقة من الشبان تصلح لأن تكون في دواوين الحكومة آلات ميكانيكية
تديرها رؤوس الانجليزية وتسير بها في خطط لم يكن معروفاً الى أين تؤدي ،
والواقع أنها تؤدي الى جعل مصر بلداً دولياً (انترناسيونال) .

هذه الطريقة الدنلوبية كانت لا تعنى بتخريج أبناء مصر العربية المسلمة
تخريجاً عربياً مسلماً ، إن الطريقة الدنلوبية علمت شباب مصر أن العروبة
والاسلام شيء أجنبي طراً على مصر واحتلها كاحتلال الفرس والبطالسة
والرومان والانجليز ، مع ان العروبة والاسلام هما روح مصر وكيان مصر
بل هما مصر منذ نحو اربعة عشر قرناً الى الآن .

إن التعليم الدولوي في المدارس الثانوية أهمل آداب الإسلام وتاريخ الإسلام وأبجاء الإسلام ، فخرج لنا أبناء مجردين من سلاح الفضائل الإسلامية .

وقد بحث كثيرون في سر ابتعاد الذهن المصري عن الاتصال بالشرق والبلاد العربية وعدم اهتمامه بما يجري في البلاد المجاورة ، وقال محمد علي الطاهر ان سبب كل ذلك رجل انجليزي واحد هو مستر دنلوب مستشار وزارة المعارف المصرية بعد الاحتلال البريطاني لمصر ، فقد استطاع بسيطرته على المعارف ان ينزع من برامج التعليم الدينية وروح الأدب العربي وتاريخ العرب وصلة مصر بالعرب والعربية ، ثم أدخل في برامج المدارس ان مصر مصرية فرعونية وأن أجداد المصريين هم فرعون وهامان ولا صلة لمصر بعدنان وقحطان ، فلما نبت أبناء هذا الجيل وكبروا تولوا السيطرة الآن على المدارس والصحف .

وذلك حق كله فإن مناهج الدراسة في المدارس الوطنية وضعها رجال التعليم التبشيري ورجال الإرساليات خلاصة لتجربتهم بها وهم رجال دهاة يعرفون غايتهم وكيف يسلكون السبيل اليها في صمت وأناة .

ومن خير ما يمثل ذلك ما كتبه احد الباحثين عن دنلوب حين قال :

« إن المستر دنلوب سلك طريقاً اطول فأراد أن يكتسب أولاً قلوب الأطفال وانتظر ثلاثين عاماً يضع في رؤوس التلاميذ ما يريده ويمنع عنها ما يريده الى ان تخرج من وزارة المعارف الجيل الأول والجيل الثاني ، فلما صارت مقاعد الوزارات وكراسي النيابة والحكم ممتلئة بالذين رباهم مستر دنلوب انقلب الى وطنه واطمأن قلبه على أنه صار لأوربا في كل بيت مصري من يكمل برنامج دنلوب » .

وهكذا دفع المفكرون المساهون هذه الخطة في إبانها ولم يتوقفوا عن معارضتها .

وبصور السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار أخطار مناهج التعليم الغربية بعد الاستقلال .

أما تربية المدارس فروحها تفرنج وتقتل الإسلام قتلاً بتفضيل كل ما هو أفرنجي على ما يخالفه من عقائد الإسلام وشعائره وعاداته وأخلاقه وآدابه ومشخصاته . وحسبك ان الصلاة التي هي عمود الإسلام غير واجبة على أساتذة هذه المدارس ولا على تلاميذها فلا يطالب بها أحد .

هذه المدارس قد وضع الانجليز نظمها وعينوا لها وجهتها وغايتها كما شاءوا ، ومن مقاصدها ان لا يكون لمن يتعلم فيها أدنى شعور بأن لقومه ملة إسلامية لها من المزايا في دينها وتشريعها وحضارتها ما تعالو به .

وقد اتفق ان جيء لمدرسة البنات السنية في عهد القسيس الشهير دنلوب المسيطر على وزارة المعارف بناظرة إنجليزية ممن تربين تربية حرة هالية . فلما كتبت تقريرها آخر السنة الدراسية اقترحت على وزارة المعارف إلزام جميع من يتعلم فيها من البنات ان يتعلمن عقائد الدين الإسلامي وأحكامه ويؤدين عبادته من صلاة وصيام وعللت ذلك بأن عقابة هؤلاء البنات ان يكن امهات مربيات للنشء الأمة ولا يصلح للتربية إلا الأم المتدينة الصالحة لأن تكون قدوة . ولذلك أجمعت الأمم كلها على تربية البنات تربية دينية عملية علمية ، قالت ؛ ولما كانت في هذه البلاد ثلاثة أديان كلها تأمر بعبادة الله والتحلي بالفضائل واجتناب الرذائل وهي الإسلام والنصرانية واليهودية ، ولما كان اختلاف التعليم الديني مضرأ بالتربية وغلا بوحدة الأمة وكان الإسلام هو دين الأكثرية الغالبة وجب جعله الدين الذي يبنى على أساسه نظام التعليم والتربية في هذه المدرسة ولذلك فقد اقترحت جعله رسمياً إلزامياً فيها .

وقد عزل دنلوب هذه الناظرة عزلاً وأحفظه تقريرها فمزقه تمزيقاً .

وأشار السيد رشيد رضا الى ان جميع المدارس التي تسمى إسلامية في

مصر تسيير وراء وزارة المعارف في تربيتها وتعليمها حتى مدارس الأوقاف الملكية ومدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان غرضها الوحيد على عهد رئيسها الأستاذ الإمام ومديرها حسن عاصم تربية أولاد الفقراء من المسلمين تربية إسلامية خالصة وتعليمهم ما لا بد لكل مسلم من عقائد دينية وأحكام.

وقد أصاب هذه المدارس من الانتكاس والارتكاس ، حسبك ان تعلم ان الجمعية أنشأت مدرسة للبنات لتمرينهن على الرقص دون تمرينهن على الصلاة والثمرة ما ترى من النساء في الاسواق والشوارع والمحافل والمجامع والملاعب والمراقص والمسارح والحمامات البحرية والجمعيات النسائية ، وقد بلغن من الخلاعة والرقاعة والإباحة دركاً صار يستقذره الكتاب الإباحيون الذين دعوا اليه من قبل .

وإذا كان هذا شأن من يتعلمن ويتربن في المدارس الإسلامية فماذا عن مدارس جمعيات التبشير وراهبات الكاثوليك؟ إن هؤلاء يحتقرون الإسلام وكل من ينتمي اليه ويحتقرون لغته ايضاً^(١) .

(١) م ٣٤ سنة ١٩٣٣ المتار .

(٧)

وقد تساءل كثيرون خلال هذه المرحلة الطويلة التي سار فيها التعليم إبان الاحتلال حتى نهايته: إلى أين وإلى متى تسير مدارسنا وراء مدارس الغرب ؟ وقد عرض لهذا الأستاذ الإمام حسن البنا فقال : لنا ان نأخذ من مدارس الغرب ومنهجها عنايتها بالعلوم الطبيعية والمواد العملية والمعارف الحيوية التي ترمي الى إدراك سر الوجود ومعالجة مشاكل الحياة وعنايتها باتجاهات التربية الحديثة ومراعاة مطالبها بتربية الجسوم وغرس الفضائل الوطنية .

ولكن : هل نجعل مدارسنا خلواً من الدين والاهتمام بشأنه لأن مدارس الغرب كذلك ؟ كلا والف مرة كلا . فان أسباب ذلك وموجباته إن توفرت في الغرب فهي معدومة عندنا ، وإن أخطأ الغربيون في شيء فلسنا ملزمين بتقليدهم في خطأهم على ان مدارسهم أسست في وقت كان النزاع بين العلماء والمتدينين على أشده وكانت موجة الإلحاد تغشى أوروبا من أقصاها الى أقصاها ، وكانت المدارس هي السلاح الماضي للقضاء على مزاعم الكهنوتيين وأراجيفهم ، ولكن الشأن الآن غيره فيما مضى .

ليس هناك وسيلة لتربية الخلق إلا الدين بل الدين وحده فالعلم والفلسفة لا يحددان في تربية النفوس وتزكية الأرواح إلا إذا استندا الى الوازع الديني القوي السلطان العظيم الأثر .

ومن هنا يمكننا ان نفهم السر في اتجاه السياسة الانجليزية نحو جعل التعليم في مصر مجرداً من الدين والأخلاق لأن هذا هو ما تقضي به مصلحتها ويؤدي الى تسلط شعب يدين بدين آخر .

ويقول الإمام حسن البنا : منذ امتدت اليد الأجنبية الى مناهج التعليم أخذت العناية بالقرآن تضعف وتتناقص . وأخذ رجال التربية والتعليم - وجلهم من الأوروبيين أعداء الاسلام وكتاب الإسلام - يرون شعباً خيفاً يناوئ مطامعهم وآمالهم يعملون على إقصائه تدريجياً من المناهج بحجة ان المدارس علمانية وساعدهم على ذلك روح التعليم الأوربي التي عمت وطمت فاستطاعوا ان يحذفوه من التعليم العالي والثانوي ثم الابتدائي تقريباً وحصره في دائرة ضيقة هي مكاتب الإعانة والمكاتب الأولية .

ولم يقف هذا التيار ضد القرآن عند هذا الحد بل أخذ يقوى ويشدد فإذا بمكاتب الإعانة تطاردها المدارس الالزامية وليس من منهاجها حفظ القرآن ، ولئن كان هناك قسم للحفاظ كما يقال فإن طبيعة نظامها يجعل الوصول الى هذه الغاية مستحيلاً ، وصارت البقية الباقية من هذه المكاتب تغلق قباباً أمام عدم الاقبال عليها ، وتضييق الوزارة وحظرها فتح مكاتب جديدة رغبة في تعميم التعليم الالزامي .

والنتائج الخطرة المموسة لهذا كله هو استحالة حفظ كتاب الله على النشء الحديث ، ومعنى هذا انقراض الحفظة بموت من يحملون القرآن من العلماء والمرتزة والعباد الصالحين ، وكذلك ضياع اللغة العربية التي ما كانت العناية بها يوماً من الأيام إلا نتيجة من نتائج العناية بالقرآن الكريم ، وبذلك ينسى المسلمون أصل دينهم وتنقطع الصلة الحقيقية بينهم وبين كتاب الله وينهدم أعظم ركن من أركان حياتهم الدينية والعلمية .

ويشير الامام الجليل الى مصدر الخطر فيقول :

إن الفكرة التي تسود عقول رجال وزارة المعارف هي وجوب إبعاد
العنصر الديني عن العقول والأذهان حتى تكون المدارس علمانية فقط ، وإن
كان الكثير لا يستطيع المجاهرة بهذا الرأي والدافع لهذا الرأي هو الإعجاب
بتقليد أوروبا ونظمها إعجاباً يدفعنا إلى السير وراءها .

والمتتبع لخطوات القضاء على التعليم الديني عندنا يجدها شبيهة بالخطوات
التي اتبعتها فرنسا لمثل ذلك ، فقد كانت الخطوة الأولى هي إلغاء مادة الدين
من المناهج والاستعاضة عنها بدرس في الأخلاق .

(٨)

ومنذ الثلاثينات ركز رجال الحركة الاسلامية جهدهم على مصدر الخطر وحدوده ، وقالوا إن التعليم هو الأزمة الحقيقية الحاضرة في عالم الاسلام .

وإن طريقة التعليم التي جرت عليها الحكومات الاسلامية والمسلمون في هذا العصر ، « تعني ان ينشأ الحدث المسلم بدون عقيدة من الصغر تنقش في لوح صدره ، وأن لا يكون له نصيب من حفظ القرآن ولا من قواعد العربية فالمسلمون اليوم يشكون من ثورة الأفكار وفشو المبادئ الضارة كالألحاد والاباحية ، والانصراف عن كل شيء روحي والطاعة لكل شيء مادي ، وعندما عاد ويليام مارتين الكاتب السويسري من سياحة في الشام والعراق ١٩٣٠ قال : إن الناشئة الحديثة في العراق حسبها لحظ في بغداد ليست على شيء من الدين الاسلامي وأهل مصر يثنون من مظاهر عداوة الدين التي كانت أحياناً تصل الى مجلس النواب والتي لولاها لم تكن الجامعة المصرية نفسها بثورة شبهات باسم حرية التفكير ، وسورية نفسها منطوية على كثير من سل اللادينية الساري بسرعة » .

ويقول الأمير شكيب أرسلان صاحب هذا العرض: ماذا تأمل من الشاب الذي أرسله أبوه الى أوروبا وهو ابن (١٤ سنة) لا يعرف شيئاً من عقيدة قومه ، ولا من البراهين التي يقوم عليها الاسلام فوصل هناك «خاماً» كما يقال

وحشا دماغه في أوربا بكل ما يحقر الإسلام ويصفره ويذرديه ، وقيل له إن أمته من التأخر والجمود والضعف إنما هو بأجمعه أثر الإسلام ، أفيكون من العجب بعد هذا أن تنشأ عن هذا الفوج الجديد هذه الكراهية للدين الإسلامي وهذه النفرة من الثقافة الإسلامية . والخطأ ليس هو خطأ أوربا التي تريد أن تثبت تعاليمها مما هو طبيعي والتي لو وجد عندها الميل الى الإنصاف لم يوجد عندها العلم بحقيقة الإسلام ، إنما الخطأ هو خطأ الحكومات الإسلامية التي كانت ترسل الناشئة للتحصيل في فرنسا وإنجلترا والمانيا وبلجيكا وسويسرا وتظن أنها ربت فيها رجالاً والحقيقة أنها أرسلتهم غير مجهزين بشيء من السلاح المعنوي الذي يمكنهم من أن يذبوا به لو هوجمت عقيدتهم فكانوا معرضين لكل خطر .

إن التعليم في أوربا لازم بل ضروري ولا سيما العلوم الطبيعية والميكانيكيات والاقتصاد والزراعة والتجارة ، ولكن تلقننا هذه العلوم في أوربا لا يستلزم أن ننسلخ عن عقائدنا وعاداتنا وأخلاقنا وأذواقنا ومشخصاتنا القومية ومقوماتنا الاجتماعية .

ولقد سبق لغيرنا من الشرقيين مثل اليابانيين أن تلقوا هذه العلوم وبرعوا فيها وضارعوا فيها الأوربيين وسبقوهم في كثير منها ولبثوا على ما كانوا عليه من عادة وعقيدة وذوق ومشرب وكتابة وأدب .

وأغرب من هذا أن الأبناء يعودون من أوربا وقد امتلأت ادمغتهم من احتقار المدنية الشرقية والثقافة الإسلامية فيمزأون بآبائهم ويذرون أهلهم ويحادلونهم في الدين وينكرون أمامهم الوحي ، ويقولون لهم إن هذه العقائد ما هي إلا خرافات واساطير . ولا أريد أن اطلق القول وأحكم على جميع الذين حصلوا العلوم في أوربا بفساد العقيدة بل هناك من الناشئة من استفاد وعاد الى بلاده فأفاد وبقيت مبادئه طاهرة ، وإنما أريد ان أقول إن إرسال الولد الى أوربا قبل ان يبلغ أشده معناه إرساله لينشأ تنشئة أوربية ليس

ففيها شيء من الإسلام ومبادئه ، فإذا عاد الى قومه عاد إما عدواً لقومه او محتقراً لهم ونشأ هذا التنافر الذي نراه الآن . والخلاصة اننا من فوضى التعليم في خطر وان من عدم تجانس التعليم سيكون في العالم الإسلامي فتن وشدائد بين أبنائه (١) .



وهذه هي قضية البعثات من شباب المسلمين الى أوروبا والغرب وهي بمثابة خطر شديد كان للاستعمار في توجيهه دور وأثر حتى لقد بلغ ان ارسل من مصر بعثات من شباب في السابعة من العمر والعاشرة حتى يمكن تشكيلهم من جديد دون ان يبقى لجذورهم الإسلامية العربية أثر ما ، ولقد كانت اخطار ابناء البعثات من أكبر الأخطار التي عرفت بها بلادنا وأمتنا .

والمعروف أن اغلب المنح الدراسية المقدمة من البلاد الغربية للجامعات بما في ذلك الجامعة الأزهرية مع الأسف هي منح مقدمة من مؤسسات التبشير والاستشراق والإرساليات ، وان الطالب يحاط به تماماً إذا ما وصل الى أوروبا ويفرض عليه موضوعه ووجهة النظر التي يتحرك فيها ، ولا بد أن تكون في إطار كتب استاذة الذي كثيراً ما يكون يهودياً ؛ واليهود الآن يشرفون على الدراسات الإسلامية والعربية في اغلب جامعات الغرب ، ومن السخريّة البالغة ان يدرس طه حسين في فرنسا تفسير القرآن بعد ان عجز عن تحصيله في الأزهر او يدرس اللغة العربية وهي موضوعات ذات أصل عربي ولا تحتاج الى السفر الى الغرب والاقامة من أجل دراستها إلا من حيث ان تكون وجهة نظر الاساتذة المستشرقين .

(١) الفتح - ١٧ - ابريل ١٩٣٠ .

وإذا كانت هذه هي وجهة نظرنا كمسلمين في اخطار التعليم الوطني في ظل النفوذ الاستعماري وتحدياته وهو خطر امتد في البلاد الإسلامية بعد الاستقلال وبعد الجلاء نقول إن الجانب الآخر لم يكن يحس بأن ما قام به قد حقق تماماً كل ما يتطلع اليه في حدود رسالة القديس لويس ، وإنما كان يرى أن الأمر ما يزال محتاجاً إلى جهود جديدة ، بل إن عدداً من المستشرقين قواسوا على دراسة الخطوات التي تمت واطلقوا عليها اسماً عجيباً هو «تغريب الشرق» ودفعه في طريق الخروج من إسلاميته وعروبته إلى أن يكون غريباً وجاء كتاب (وجهة الإسلام لجب وخسة من المستشرقين عام ١٩٣٠) ليصور إلى أي مدى وصل ذلك التغريب وما هي الخطوات التي تمكنه من تحقيق غايته كاملة .

وتقرير جب في هذا الصدد وثيقة خطيرة تدفع جميع العاملين في حقل التعليم الإسلامي والعربي وستظل كالسيف مشهورة في وجوههم حتى يتحرروا من نفوذ الغرب في مجال التعليم :

« التعليم أكبر العوامل الصحيحة التي تعمل على الاستغراب . والحق أنه العامل الوحيد إن فهمنا من كلمة التعليم ما تدل عليه ، ولا نستطيع الحكم على مدى الاستغراب في العالم الإسلامي إلا بمقدار دراسته للفكر الغربي

والمبادئ والنظم الغربية . ولكن هذا التعليم ذو انواع كثيرة وتقوم به جهات متعددة وبالطبع لأن هناك بالفعل قليلا من التعليم على الأسلوب الأدبي في المدرسة وفي الكلية الفنية وفي الجامعة وعلى هذا التعليم يتوقف كل ما عداه . إن انتشار التعليم سيبحث بازدياد في الظروف الحاضرة على توسيع تيار التغريب وتعميقه ولا سيما لاقتراحه بالعوامل التعليمية الأخرى التي تدفع الشعوب الإسلامية في نفس الطريقة .

ويقول جب: إن إدخال طرائق جديدة في الفكر - في البلاد الإسلامية - كان يتطلب نظاماً جديداً في التربية من عهد الطفولة في المدارس الابتدائية والثانوية قبل الانتقال للدراسات العالية . وإن إصلاح التعليم على هذا النحو لم يكن في ذلك الوقت يخطر على بال السلطات المدنية الإسلامية، ولكن هذا الفراغ ملأته هيئات أخرى ، فقد انتشرت في منتصف القرن التاسع عشر شبكة واسعة من المدارس في معظم البلاد الإسلامية ولا سيما تركيا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالباً الى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة ، وربما كان أكثرها عدداً المدارس الفرنسية ، فقد كانت المدارس الانجليزية في الامبراطورية العثمانية أقل منها في الهند ، وكانت المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية. هذه المدارس صاغت اخلاق التلاميذ وكونت ذوقهم، والأهم أنها علمتهم اللغات الأوروبية التي جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوروبي فصاروا في مستقبل حياتهم مستعدين للتأثر بالمؤثرات التي فعلت فيهم فعلمها أيام الطفولة (أي التعليم على الطرق المسيحية) .

وفي اثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة الى ابعد من ذلك بإلغاء التعليم العربي تحت الاشراف الانجليزي في مصر والهند ، ولعل هناك نصيباً من الحق في التهمة التي ترمى بها المدارس الاجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية

التي أعقبت ذلك في البلاد الإسلامية أيدت هذه التهمة ولكن الذي فعلته بلا ريب أنها ربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة الى حد ما في اوطانهم الأصلية . وأضعفت من هذه الوجوه سلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ وأدخلت في بناء المجتمع الاسلامي أداة هادمة قطعت بعض الأواصر التي كانت تربطه وتحفظه .

ويقول جب : لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي عن طريق المدارس المعصرية والصحافة أن يترك في المسلمين ولو من غير وعي منهم أثراً يجعلهم في مظهرهم العام لا دينيين الى حد بعيد ، ولا ريب ان ذلك خاصة هو اللب الثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الاسلامي على حضارته من آثار .

هذه كانت الرؤيا عام ١٩٣٠ : الحنجبر الذي طعن به المسلمون ما زال ينزف ومع ذلك فإن هناك من يدعو الى غرسه الى أبعد مدى ، ويقول جب كنتيجة لهذا العمل :

« إن الاسلام كدين لم يفقد إلا قليلاً من قوته . أما كنظام للحياة الاجتماعية فقد نزل عن عرشه وقامت الى جانبه او من فوقه قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض في بعض الاحيان مع تقاليد وتنظيماته الاجتماعية وبذلك خفت سلطة الاسلام في الحياة الاجتماعية وتراجعت شيئاً فشيئاً » .

ويرى جب ان الهدف من هذه الخطوة في مجال التربية والصحافة كانت ترمي الى التفرقة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية : فليس شيء في الحياة يصح ان يسبغ عليه الطابع الديني .

وهكذا نجد للطعنة النجلاء تضرب الاسلام في الصميم وتقضي على قاعدته الاساسية وعموده الفقري : تكامل الدنيا والدين في نظام الاسلام .

والصورة التي رآها جب وحاول ان يدعمها لتمضي الى غايتها هي الصورة التي اشار اليها بيجمن قبل في محاضرة له بالجامعة الأمريكية في ١٩٥٧/١٠/٢٠ حين قال :

« لعبت الإرساليات (في بيروت والقاهرة والقسطنطينية) الدور الرئيسي في تنمية الفكر الشخصي عند طلابها الذين تمكنوا من قيادة الحركة القومية ، ومن المهم أن نعرف ان النفوذ التربوي الوحيد الذي تعرض له الطلاب العرب في القرن الماضي : كان النفوذ الغربي » .

وقد أشار الى هذا السيد محب الدين الخطيب معلقاً فقال :

إنما أتينا من قبل المدرسة والصحافة ، ومن قبل الثقافة التي تثقف بها قادة الأمة ، فالمصانع التي يتخرج منها قادتنا ليس لها غاية واحدة معينة .

فالنظرية الصحيحة في التعليم في العالم الإسلامي أن يكون ابن الزمان وابن المكان أي ان يكون عصرياً وإسلامياً ، فإذا كان عصرياً فقط كما هي الحال في مدارسنا المدنية خرج لنا شباب يجهلون أنفسهم ومحيطهم وكيانهم وكانوا سمسرة لأقطار أجنبية ومقاصد أجنبية وعقائد أجنبية ، وإذا كان التعليم ابن المكان فقط ولم يراع فيه معارف العصر خرج لنا شبان جاهلون أحوال زمانهم مجردون من الأسلحة التي يقاقلهم بها اعداؤهم .

والسبيل هو القضاء على التعارض في طريق التثقيف في العالم الإسلامي وإزالة هذه الهوة الواسعة بين المتعلمين تعليماً مدنياً عصرياً والمتعلمين تعليماً دينياً إسلامياً ولا يكون ذلك إلا بسلخ الصبغة الأجنبية عن التعليم المدني العصري ، وإعطائه صبغة أخرى من لون محيطه الإسلامي تكون ملائمة لتقاليد الأمة وعقائدها ويكون القسط الأدنى لإعلان مفاخرها وتنوير تاريخها وإحياء ماضيها وربط الحاضر به .

كذلك تعليمنا الاسلامي يجب أن يجهز بأساليب العصر ومعارفه ليكون

أئمة المسلمين من أعرف الناس بزمانهم وأدواته وأسباب معالجتها . إن مناهج التعليم في مصر لا تزال تلتف وتدور على المحور الذي وضعه دنلوب ، وإصلاح هذه المناهج يجب ان لا يكون بأيدي أناس عرفوا بالتعصب على الاسلام سواء أ كانت اسماؤهم إسلامية أم كانوا ممن حضروا الى هذه الديار للسمي لايخراج اهلها من ربقة الدين الحمدي ، بل بأيدي رجال من أهل الفضل عرفوا بالوفاء للاسلام .

ويركز الدكتور محمد حسين هيكل على نقطة الخطر الأساسية وهي وزارة المعارف ودورها ومناهجها وخضوعها للدليل في وجه النفوذ الاجني فيقول في ١٢/١/١٩٣٢ : « إن وزارة المعارف تخضع اليوم وأمس وستخضع غداً وبعد غد إلى ان يتاح لنا النصر السياسي الذي نعمل له الى السياسة التي كانت تخضع لها ايام كان مستر دنلوب مستشاراً لها مع قوارق في عدد المدارس وعدد الأساتذة وعدد التلاميذ اكثر منها في أساليب التعليم وفي الغاية منه .

إن سياسة التعليم في وزارة المعارف ستظل اليوم وغداً كما كانت بالأمس وقبل الأمس خاضعة للسياسة الغربية وللحضارة الغربية في روحها فالحضارة الغربية بالمعنى الذي يفهمه مفكرو الغرب ومؤسسو هذه الحضارة الحقيقيون حضارة علمية بالمعنى المفهوم من العلم في العصر الحاضر ، بالمعنى الذي يفهمه ساسة الغرب الذين يذشرون لواء هذه الحضارة في ربوع العالم : حضارة استعمارية عدوة للعلم على خط مستقيم ، وهي كذلك حيثما ذهبت حاربت العلم وحاولت حصره في طبقة ضيقة وفي حدود ضيقة لتتخذ من هذه الطبقة بطانة لها تروج للاستعمار أي لاستغلال البلاد التي تنزل فيها استغلالاً مادياً يذهب كل خيره للغرب صاحب هذه الحضارة الاستعمارية .

ولذلك وضعت هذه الحضارة يدها على وزارات المعارف حيثما ذهبت وعملت دائبة على إفساد هذه المقومات النفسية والخلقية والقومية مكثفية بطائفة من المعلومات العملية التي تحتاج اليها إدارة الحكم .

ولست بحاجة لأضرب الأمثال على هذا فهي مما تلمسه اليد في كل ناحية من نواحي التعليم الابتدائي والثانوي أو العالي أو الجامعي ، وحضارة الغرب في هذا غير حضارات الشرق جميعاً ، فقد كان لكل واحدة من حضارات الشرق كتاب تدعو اليه وإيمان تعمل على تثبيتته في النفوس ، ومبدأ إنساني سام تريد غرسه في الأفئدة والقلوب ، كانت كلها حضارات إنسانية سامية القصد لا تقف عند الفرد ومتاعه المادي الوضيع بل تسمو فوق ذلك الى إخاء الإنسانية كلها ، لذلك نرى في تاريخ الاسلام أدباء وعلماء من غير العرب ومن غير المسلمين بل إن اكبر أدباء الحضارة الإسلامية وعلمائها من غير العرب وبعضهم من غير المسلمين .

أما هذه المدنية الغربية التي نعجب بها فمدنية أنانية تتحدث عن الإخاء حديثاً شهياً ، ولكنها تقتله حيثما ذهبت ، وتدعو الى العلم حديثاً رائعاً بديعاً ولكنها تظؤه بالأقدام عند الشعوب التي تستعمرها ، وتترنم بأحاديث الحرية ولكن على أن تكون حرية الغرب ، فأما الأمم التي يحكمها الغرب فيجب أن يعتبر أهلها السجن مثل الحرية الأعلى لأنه وحده هو الذي ينجو فيه الإنسان من تحكم الغربي الحاكم أو الشرقي الذليل الذي يقوم في الحكم تحت لواء الغرب ليقتل في نفس أمته كل المعاني السامية التي ورثتها من حضارات الشرق القديمة مقابل ما يناله من فتات مائدة الغرب السعيد المجرم .

هذه السياسة التي يسير عليها الغرب وتقرها حضارته هي التي نحاربها .

اللغة العربية هي أكبر أهداف النظام الاستعماري للتعليم : ولذلك فقد وجهت اليها حرب عوان عن طريق مدرسة الإرساليات بالانتقاص والمدرسة الوطنية بالتجاهل والثقافة بالانتقاد . وتصور هذا دكتورة نفوسة زكريا سميد فتقول : كان هم الاستشراق ان يبحث لأوربا الناهضة عن سلاح غير أسلحة السبال ليخوض المعركة مع هذا « الكتاب » الذي سيطر على الأمم المختلفة الأجناس والألوان والألسنة ، وجعلها أمة واحدة تعد العربية لسانها وتعد تاريخ العرب تاريخها . وبدأ الغزو المسلح وسار الاستشراق تحت رايته ، فمن كان له لسان غير اللسان العربي أعدت له سياسة جديدة لإغراقه في لسان الغازي الاوربي حتى يسيطر عليه ، ومن كان لسانه عربياً اتخذت له سياسة أخرى لإغراقه في تخلف ممت ، هذه الخطة لخصها وليم حيفور في كلمته المشهورة :

« متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب تمكنا حينئذ ان نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة (يعني الحضارة المسيحية) التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » .

وقد تبين أن لا وسيلة الى إقصاء القرآن من الارض المفتوحة إلا بالسيطرة على وسائل التعليم شيئاً فشيئاً حتى لا تتمكن الأمة من السيطرة عليه فتقيمه

على طريق سويّ يفضي الى نهضة صحيحة ، وكان من قدر الله ان منارة العالم الإسلامي كله كانت في مصر وهي الأزهر فصار من الحكم المقطوع به أن تكون سياسة الغزو الأوربي موجهة الى مصر قبل أي مكان في العالم الإسلامي .

وهكذا كانت الدعوة منذ اللحظة الأولى الى العامة : وكان تقرير الحبير البريطاني (دوفرين) يدعو الى استعمال العامة ، ثم جاءت برامج التعليم في المدارس الوطنية هادمة للغة العربية معلية عليها اللغات الاجنبية ، ثم جاءت الدعوات الثقافية المتعددة والمتوالية والتي بدأها ويلكوكس ووليمور بالإضافة الى صيحة (ولهم سبتا) مدير دار الكتب الخديوية . وكلها تنصب على العامة وعلى الحروف اللاتينية وامتدت هذه الدعوة بعد في اسماء مصرية : لطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى وعبد العزيز فهمي وغيرهم . وكانت أخطر تحديات هذه الدعوة هو التعليم باللغة العربية في الجامعة .

وكان لمدرسة الطب دور في الدعوة الى دراسة الطب باللغة العربية وجدت من يعارضها ويحاول ان يعرقلها بدعوى عدم وجود المراجع او باهتمام اللغة العربية بالمعجز عن الأداء .

وقد وقف كثيرون من المنصفين في الدفاع عن اللغة العربية وأعلنوا قدرتها الفائقة وإمكاناتها الضخمة في دراسة العلوم . ولقد كان لطفي السيد في الجامعة صنواً لسعد زغلول في وزارة المعارف في مقاومة هذه الدعوة .

ولقد وقف زكي مبارك مهاجم لطفي السيد ويدافع عن اللغة العربية فيقول :

« أليس من العجيب أن يشير الأساتذة بتعليم بعض المواد باللغة الانجليزية ليتقوى الطلبة في تلك اللغة ثم يندس مدير الجامعة ان يقبل اللغة العربية حين يأبى أن يجعلها لغة التعليم في اكثر اللغات .

« أيا غار الانجليز على لغتهم وهم أجانـب فيسوقوننا سوقاً الى جعلها لغة التعليم ونتغافل نحن عن لغتنا ونحن في بلادنا فنقصيها عن ميادين التعليم .

إن من المكابرة ان يزعم الزاعمون ان لغة التعليم في كلية الطب وكلية العلوم إنما كانت لغة الانجليز بسبب عجز اللغة العربية ، فقد كانت اللغة العربية لغة العلوم والطب أجيالاً طوالاً ولم يقل أحد بمعجزها إلا منذ خلق أبناؤها المعجزة الذين يسترون ضعفهم بمحاربتهم من غير تخرج أو استحياء . وقد كتب الله ان يفضح هذه الدسيـسة على لسان رجل من أقطاب الجامعة المصرية هو الدكتور علي إبراهيم فقد قال في المؤتمر الطبي في دمشق « إنما نعلم الطب باللغة الانجليزية لأسباب سياسية » وعندنا بحمد الله كثير من المتحذلقين الذين يسترون ضعفهم بالتحامل على اللغة العربية فقد كانوا يقولون إن لغة العرب تعوزها المصطلحات العلمية والطبيعية ولكن الدكتور علي باشا إبراهيم عجز عن التمسك بأهداب هذا الاحتيال .

إن مدير الجامعة بين اثنين : إما ان يصدر أمره عاجلاً بحمل اللغة العربية لغة التعليم في جميع الكليات وإما ان يستقيل .

إن قصر هذا المنصب على الأستاذ لطفي السيد كان مزاحاً ثقيلاً أريد به ان يلقي في روع الشعب ان مصر لا تزال متأخرة وان هذا المنصب حين يخلو لا يجد من يشغله عن جدارة واستحقاق ، هي العوبة سياسية وليست ضرورة تعليمية ، وما هي المزايا التي ينفرد بها هذا الرجل حتى يكون وحده الصالح لإدارة الجامعة المصرية ، وما هو الأثر الذي تذكره به الجامعة حين يستقيل ما دام عاجزاً عن إقامة القواعد التي تنهض بها الجامعات ؟

أتريدون الحق ؟ إن لهذا الرجل المفضـال مزية واحدة ، ولكنها بألف وهي قدرته على الغض من قيمة اللغة العربية باسم العلم وزعمه أنها لا تصلح

للدراستات العالمية وتجاهله الحقيقة الأصيلة التي جهر بها الدكتور علي ابراهيم حين صرح بأن الطب إنما يدرس في مصر باللغة الانجليزية لأسباب سياسية ..

هل يوجد في العالم كله جامعة واحدة جعلت لغة التعليم فيها لغة أجنبية؟

إن التعليم بلغة أجنبية يهدم الاستقلال من الأساس ، ولم تكن مصر ولن تكون مستعمرة إنجليزية . أحتججون بأن اللغة العربية تعجز عن التعابير العلمية ؟ إن احتججتم بذلك فأنا أسألكم : ما هي القوة السحرية التي جعلت لغات الغرب أقدر من غيرها على التعابير العلمية . وهل تخلق اللغات كاملة متكاملة لا تحتاج الى زيادة ولا يعتورها نقص؟ إن المصطلحات العلمية في اللغات الأوروبية تنبعت نحتاً من اللاتينية واليونانية ومع ذلك لم يقل أحد بفقر الفرنسية أو الإنجليزية ، فما الذي يمنع ان تؤخذ المصطلحات العلمية مرة واحدة وتنقل الى اللغة العربية ويسد هذا الباب في وجوه من يريدون ان نظل اتباعاً أبدي الدهر لأبناء اللغات الاجنبية ؟

أليس من العجب العاجب ان يدرس الطب باللغة الانجليزية في بيروت ويدرس بالانجليزية في القاهرة . أليس من موجبات الأسى ان يتمكن أهل سوريا ولبنان الى وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية ونعجز نحن ؟
وتصدى زكي مبارك مرة اخرى الى لغة التعليم في كلية العلوم فقال :

أحب ان ألفت الفيورين من طلبة كلية العلوم الى وهن ذلك التعليل الذي يلجأ اليه المعجزة حين يصرون على تدريس العلوم باللغة الانجليزية، فهم يزعمون ان اللغة العربية ليس فيها مصطلحات علمية وهذه علة لا قيمة لها على الإطلاق لأن اللغات المشهورة في أوروبا كالفرنسية والانجليزية لم تكن فيها ايضاً مصطلحات قبل نهضة العلوم، ولا أكاد اصدق ان كلية الحقوق تريد ان تعود من جديد الى فرض اللغة الفرنسية على الطلاب ، فقد قامت الدلائل على

صلاحية اللغة العربية لشرح القوانين، وكيف لا يكون كذلك وهي من أغنى اللغات في مؤلفات الفقه والتشريع .

ولقد كشف الذين شاركوا في هذه المعركة الى الهدف الأساسي للاستعمار تجاه إقصاء اللغة العربية عن التعليم فركزوا على ان الهدف هو القضاء على ما تحمله من إيمان بالشخصية والروح القومية وما يؤدي القضاء عليها على عزل الأمة عن مقومات كيانها .

إن إنشاء الجامعة كانت في العالم الإسلامي خطة جديدة لتوسيع قاعدة الغزو والسيطرة الثقافية بالرغم من أن مشروع الجامعة بدأ عملاً وطنياً للتحرر من قصور الوطنيين عند مجالات التعليم المتوسط أو ارتمائهم في أحضان الجامعات التي أقامتها الإرساليات ، وتعتمد تجربة إنشاء الجامعة المصرية علماً على خطة الاحتواء التي قام بها النفوذ الأجنبي ، وهي نموذج لكل الجامعات التي انشئت من بعد في مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

فمنذ اليوم الأول لإنشاء الجامعة الأهلية اشترك المستشرقون : نلينو وجويدي وسانتلانا فيها وبدأوا في استقطاب الطلاب وكانت تجربتها مع طه حسين ومحمود عزمي وزكي مبارك ومنصور فهمي معروفة ذائعة وهم ممن اتصلوا بها في مصر ثم سافروا الى أوروبا .

تقول الأهرام عام ١٩٢٥ عندما ضمت الجامعة المصرية الى الحكومة : إن سلطات الاحتلال البريطاني سمحت بأن تضم الجامعة المصرية الى الحكومة خوفاً من نفوذ الإرساليات الأمريكية ، فقد لاحظت اللجنة التي شكلت لذلك وغالبيتها من الانجليز ان الإرسالية الأمريكية جمعت تبرعات ضخمة في أمريكا لإنشاء جامعة أمريكية في القاهرة على غرار جامعة بيروت ، وبما يذكر ان الإرسالية الأمريكية قدمت الى مصر عام ١٨٦٥ حيث انشأت الكلية

الأمريكية في اسبوط أول مدرسة للبنات .

ولقد واجهت الجامعة المصرية منذ اليوم الأول معارك الغزو الثقافي والصراع بين مستشقي فرنسا ومستشقي إنجلترا، وكانت أولى معاركها حول استقدام المبشرين الذين يلبسون ثياب المستشرقين حيث يكلفون بإلقاء دروس عن اللغة العربية والإسلام والقرآن ، وكان موقع الاعتراض ان هذه العلوم لا تحتاج الى أساتذة أجنب يكلفون الدولة مبالغ طائلة ليحدثوا الطلاب عن علوم يوجد من يبرع فيها ويفوق المستشرقين من أساتذة الازهر وعلماؤه .

وقد دافع طه حسين عن استقدام المسيو كازنوفنا وقال :

« اريد ان يعلم الناس اني سمعت هذا الاستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيراً لغوياً خالصاً فتمنيت لو أتيح لمناهجه ان تتجاوز باب الرواق العباسي ولو خلسة ليستطيع علماء الازهر الشريف ان يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية على نحو مفيد حقاً .

ورد الشيخ محمود ابو العيون فهاجم هذا الاتجاه ^(١) وقال إن كازنوفنا وضع كتاباً في تخطيط مدرسة الفسطاط ولكن هل وضع كتاباً في فقه اللغة وتاريخها وآدابها أو مناهج تدريسها يرجع اليه علماء اللغة والادب فيما جهلوه وهل وضع تفسيراً للقرآن لغوياً خالصاً ، ان كان فعل هذا ليكون له شأن كبير عندنا .

ثم هاجم طه حسين وقال : الآن قد عرفنا مذهب الدكتور طه حسين ورأيه في كل تعاليمنا ، وإذا كان قد رأى إيثار استاذاه على كل عالم وأديب في مصر فيا ضيعة العلم في مدارسنا العالية : العلم الديني الذي يدرسه لأبنائنا أساتذة أوربيون كالمسيو كازنوفنا .

ثم ذكر أبو العيون كيف ان جامعات المانيا وإنجلترا وفرنسا استعانت

(١) الاهرام: ٤ سبتمبر ١٩٢٣ .

بشيوخ اللغة العربية في الماضي والحاضر وكان في مستشرقها الكفاية وان حسن توفيق العدل والدكتور حامد والي وعبد العزيز جاويش ومحمد جاد المولى ومنصور سليمان كانوا من هؤلاء الاعلام .

ثم هاجم الغزو الثقافي التغريبي الذي تحمل لواءه الجامعة وقال :

نحن بلينا بالتقليد الضار وهو في الحقيقة مسخ وتغيير وتنازل منا طوعاً واختياراً عن كل مميزاتنا ومشخصاتنا الى الغير ولو دام الحال على مثل هذا لأصبحنا مثل كندا واستراليا وبعض جنوب أفريقيا وسواحل تونس والجزائر ومالطة .

وكانت المشكلة الثانية في معركة الغزو الثقافي هي المحاضرات التي القاها الدكتور طه حسين عام ١٩٢٦ عن الشعر الجاهلي في كلية الآداب ودعا فيها الى إقصاء عنصري القومية والدين من مجال البحث العلمي وهاجم الاسلام وأنكر ما ورد في القرآن من اخباره عن إبراهيم واسماعيل وطعن في نسب النبي وأنكر ان للاسلام أولية في بلاد العرب وأنه دين ابراهيم .

كما كشفت الاحداث عن دروسه التي كان يلقيها لتلاميذه وفيها يحتمهم على نقد القرآن ويذكر لهم ان في القرآن اسلوبين مختلفين كل الاختلاف ، كما حث الطلاب على ان ينظروا الى القرآن كأبي كتاب عادي يخبري عليه من النقد بما يحري عليها وان يفضوا النظر عن قدسيته .

وهكذا مضت الجامعة في احتضان التغريب الى أبعد مدى .

كان من اخطر تحديات التعليم الوطني للصراع بين التعليم الانجليزي والتعليم الفرنسي في مصر فقد عمد الانجليز بعد الاحتلال الى إحلال لغتهم وثقافتهم محل اللغة والثقافة الفرنسيين تدريجياً وخاصة في المعاهد والمدارس العليا التي كان الفرنسيون يسيطرون عليها مثل مدرسة الحقوق ، وأخرج الاساتذة الفرنسيون الذين كانوا يسيطرون عليها، واحتل الاساتذة الانجليز مكانهم، وقد استبدلت اللغة الانجليزية في جميع المدارس باللغة الفرنسية واعتبرت اللغة الانجليزية لغة أصلية والفرنسية إضافية . وهاجم كرومر أسلوب التعليم الفرنسي وقال : إن اساتذة مدرسة الحقوق لا يلاقون على ما يرى في التلاميذ من قلة ما يميزهم بعضهم عن بعض لأنه ليس في أسلوب التعليم الفرنسي ما يدعو الى هذا الامتياز ودعا الى أفضلية الاسلوب الانجليزي لأنه يجعل التلميذ يعتمد على نفسه .

ويقول رسل جوست : إن الفرنسيين بذلوا خطوات واسعة منذ عهد محمد علي ، وكانوا يعرفون ان شباب مصر إذا ما تعلم اللغة الفرنسية فسيستبع طرق التفكير الفرنسية وكان رسل فرنسا لهذه الغاية في الاغلب رهباناً كاثوليك .

وهكذا عاش التعليم الوطني على الصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية ثم جاء بعد الحرب العالمية الثانية صراع بينهما وبين الثقافة الامريكية وعاشت

مصر على استعارة الانواق والعقليات الغربية المختلفة .

والإطار كله وافد وتوضع فيه المعلومات على نحو سييء، وهو إطار قديم لم يتغير بعد الاستقلال ولا بعد انتهاء الاحتلال إلا في جزئيات بسيطة ، وهو في مجموعه لا يلتزم برسالة أو بهدف .

وكان من أخطر ما فرض عليه المنهج الامريكي الذي يطلق عليه نظرية ديوي ، وأبرز مظاهر مذهب ديوي في التربية هو إبعاد الدين في مجال التربية، وكان في الغرب يستهدف إبعاد المسيحية ، وقد قصد الاستعمار الى فرض هذا المذهب في دراسات مدارس المعلمين العليا التي كانت مجالاً لتخريج رجال التربية في مصر ورأى في هذا عوضاً عن الإشراف البريطاني على التعليم الذي كان يقوم به دنلوب (١٩٠٦-١٩١٩) فأصبحت نظرية ديوي هي عماد المنهج التربوي بعد ذلك وكان اسماعيل القباني حامل لواء هذه الدعوة ، وقد اتبعت له الفرصة لإنشاء معهد التربية الذي كان المكان الاول لجعل هذه النظرية فلسفة عامة للتعليم المصري والعربي فيما بعد .

وقد ظل لأتباع ديوي سيطرتهم الكاملة على أنظمة التربية والتعليم الى وقت بعيد وبذلك استطاعت نظريتهم ان تبعد الاسلام عن مجال التعليم والتربية مع حملات مستمرة على اساليب التعليم الاسلامية وإبعاد خريجي الازهر عن مجالات التربية بحجة ما أطلق عليه النقص في مستوى الكفاية الفنية للتعليم وذلك جرياً مع الهدف التغريبي الواضح ، كما حرصت هذه المناهج على حجب الدراسات الوطنية والتاريخية التي تعتمد الى بث ايجاد الامة وعظمة الشخصية العربية في نفوس الطلاب . وهذا الاثر من اخطر آثار التبعية للثقافات الغربية وخاصة الثقافة الامريكية .

البابُ الثاني
واقعُ التربية الوافدة في العالم الإسلامي وأماؤها

الفصل الأول

أوجه الخلاف بين المناهج

عندما غزا الغرب (العالم الإسلامي) : عسكرياً وسياسياً كان مخططه في الغزو الفكري والثقافي قد أوفى على درجة عالية من القدرة والتمكن. ذلك ان الغزو الفكري بدأ قبل الغزو السياسي بأكثر من ربع قرن ومكن لنفسه مناهج أخذها الاحتلال ورجالاً قاموا على اعمال التربية والتعليم والثقافة والصحافة فعندما بدأت الإرساليات عملها في بيروت ومصر واستانبول قبل ١٦٨٠ كان ذلك إرهاباً بإعداد الركائز الحقيقية لولادة قوى الاحتلال وبناء الجيل الذي سوف يؤازر المحتل بالسيطرة على الثقافة والتعليم والصحافة في نفس الوقت الذي يبدأ فيه الاحتلال .

يقول الدكتور أنيس صايغ^(١) ثم نزل الانجليز الى مصر والسودان ، وانتقل الحكم الى ايديهم واحتاج الانكليز الى موظفين أكفاء يتقنون لغتهم ويقبلون ان يتعاونوا معهم ، ومرة اخرى (والاولى ايام الخديو اسماعيل) سد اللبنانيون والسوريون الفراغ ، وقد وصفهم اللورد كرومر في مذكراته بأنهم «منحة من السماء» وأنهم «خيرة البلاد» ولم يكن كل السوريين المتعاونين

(١) في كتابه : الفكرة العربية في مصر .

مع الاحتلال موظفين ومرابدين ، فمنهم من انشأ صحفاً وأشهرها صحيفة المقطم والمقتطف اللتان أصدرهما فارس نمر ويعقوب صروف واسكندر مكاربوس ، وكانت الصحيفتان اللسان الناطق لسلطات الاحتلال باللغة العربية . فأيدتا ذلك الاحتلال وهاجمتا الحركات الوطنية بكل ما في لفظي تأييد ومهاجمة من معان ، ونستطيع ان نضيف الى ذلك بكل بساطة جرجي زيدان وسليم سركيس وفرح انطون وشبلي شميل واديب اسحق وكل من دعا الى أسلوب العيش الغربي .

ومن اجل ذلك وصفت الارساليات ووصف التبشير بأنه بمثابة الطلائع ففي عهد اسماعيل وقبل اكثر من ربع قرن من الاحتلال البريطاني لمصر كانت الارساليات قد ركزت نفسها وأعدت برامجها ولم يبق إلا ان تسلمها الى المسؤولين عن الاحتلال لتطبيقها في دوائر التعليم ثم في الجامعات .

ولذلك فقد كان اكبر معاوني الاحتلال البريطاني لمصر من خريجي الارساليات ، وكانوا هم اصحاب الصحف التي كانت تقود حركة الفكر في صف تأييد الاستعمار والتغريب في هذا الوقت ، وقد تمكنت بعد ذلك كثيرأ واستقطبت للكتاب المصريين والعرب الموالين لهذا الاتجاه .

وكانت تدافع عن كل مناهج الغرب في الثقافة والتعليم والتربية وتهاجم بشدة كل من يتصدى لها أو يحاول معارضتها وتتهمه بالرجعية والجمود والتخلف والخيانة .

ويمكن القول بأن بيروت كانت بؤرة العمل للغزو الفكري والتغريب في العالم الاسلامي يتوزعها على الارسالية الفرنسية الكاثوليكية والارسالية الامريكية والانجليزية البروتستانتية ، ومن وراء الاولى الفاتيكاني ومن وراء الثانية الماسونية والصهيونية العالمية .

وكانت بيروت بذلك مؤهلة للتصدير وكانت القاهرة هي ملتقى كل مخططات التغريب وموزعتها عن طريق الصحافة والثقافة والتعليم في العالم الاسلامي كله .

في إبان إعداد هذا العمل الذي أوصى به القديس لويس للاستيلاء على عالم الاسلام عن طريق الكلمة كانت مناهج الغرب في التعليم قد تخلصت تحت تأثير الثورة الفرنسية من نفوذ الكنيسة واتجهت نحو العلمانية بمعنى اللادينية .

غير ان اغلب الذين أشرفوا على مدارس الارساليات كانوا من الرهبان والقساوسة الذين يحملون قدراً كبيراً من الحماسة لدينهم ورغبة جارفة في تحقيق السيطرة الغربية عن طريق التعليم ، وقد مضى التعليم في المدارس الوطنية قسمة بين المناهج الفرنسية والانجليزية كما رسمتها أنظمة الارساليات وعلى شاكلة مناهجها حتى اوائل الحرب العالمية الثانية ، ثم سيطرت عليه بعد ذلك مناهج التعليم الأمريكية ونظرية ديوي على وجه أخص .

وقد كانت هذه المناهج الثلاثة الفرنسية والانجليزية والامريكية قد وضعت في بيئاتها وطبقاً لظروف هذه البيئات وأوضاعها ثم تطورت وتغيرت مرة بعد مرة في مواجهة ما كان يواجهها من تجارب ، ثم نقلت هكذا الى أنظمة التعليم العربية دون مراعاة فوارق البيئة أو تباين العصر ، أو اختلاف الثقافة والعقائد .

ولقد ظل العرب والمسلمون يخضعون لهذه المناهج خضوعاً شديداً ويحاول البعض التخلص من هذه التبعية وهذا النفوذ بعد ان ثبت فشل هذه المناهج

في تكوين الطالب العربي والمسلم وعقدت عشرات المؤتمرات التربوية لإجراء تعديلات وتغييرات تتناسب مع ظروف العرب والمسلمين، ولكن أمراً واحداً لم يكن ليكون موضع الدراسة والاهتمام وهو ذلك الفارق الخطير من ناحية العقائد واللغة والتاريخ ؛ ذلك ان هذه المناهج افترضت اساساً أنها خارج نطاق الاسلام واللغة العربية وأنها تدرس علوم الغرب كأنما هي في بيئة غربية خالصة .

لقد سيطرت النظريات الغربية الثلاث (الفرنسية والانجليزية والامريكية) على المدرسة ، وفرضت اسلوبها ، وتجاهلت تماماً أي اعتبار للعربي أو للمسلم، وإنما حاولت ان تشكل هذا الدارس وكأنه غريب تماماً عن بيئته وثقافته . وكانت ظاهرة الانفصال عن الدين والاخلاق هي أبرز معالم المناهج الدراسية. وإذا كان الغرب قد أقام نظرية في التربية والتعليم على أساس إبعاد الدين عن التربية وفق تجربته مع المسيحية الغربية فإن الامر كان مختلفاً مع الاسلام الذي هو ليس ديناً فحسب ، ولكنه فكر وحضارة ومجتمع ، والذي لم يقف موقف الصدام مع معطيات العلم أو حركة التقدم ، فلظروف خاصة بالغرب انفصلت مناهج التربية والتعليم عن الدين الغربي ، ولكن هذه الظروف لم تواجهها المجتمعات العربية الاسلامية، ولم تكن مناهج التربية والتعليم الاسلامية قادرة على ان تنفصل عن الاسلام الذي هو بمثابة الأساس المكين لكل مقومات المجتمع والعلم .

والتربية الاسلامية تقوم أساساً على بناء الشخصية الانسانية على أساس الايمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي ، وهذا يعني ان فصل مقومات الخلق والعقيدة عن التربية من شأنه ان ينشئ شخصيات هشة ضعيفة لا تعرف مسؤوليتها إزاء مجتمع يواجه التحدي الخطير الدائم من قوى الاستعمار الغربية المتسلطة بالغزو العسكري والسيطرة الاقتصادية .

ولا ريب ان الغرب حين يسيطر على مقدرات العالم الاسلامي في مجال

التربية والتعليم والثقافة إنما يحاول ان يحجب عن المتعلمين هذا التحدي الخطير المائل الذي هو بمشابة الرأس من الجسد والذي لا يمكن للعرب والمسلمين ان يتجاوزوه في مرحلة من أخطر مراحل حياتهم التاريخية .

ومن هذا التحدي وحده نواجه ذلك الخلاف الكبير بين أساليب التربية ومناهجها في الغرب وفي عالم الاسلام ونحتاج الى امتلاك الإرادة القادرة على بناء مناهج تربوية إسلامية عربية قادرة على بناء الشخصية الانسانية الصامدة.

ومن المعجب ان هذه التجربة الخطيرة التي استمرت اكثر من مائة عام لم تزل عاجزة عن ان تدفع أولى الرأي في العالم الاسلامي الى كسر هذا القيد وبناء منهج تربوي إسلامي أصيل قادر على إعداد الاجيال القادرة على مواجهة الأخطار، وما تزال غارقين في التبعية لأساليب التربية الغربية نتيجة لسيطرة الرجال الذين أعدم التغريب والغزو الثقافي لتولي مناصب القيادة الثقافية والفكرية .

وما تزال أنظمة التربية والتعليم في الغرب تنحدر عاماً بعد عام ومرحلة بعد اخرى تحت سيطرة الأهداف التلمودية الصهيونية ، وما زلنا ننقل آخر مودات التعليم، ذلك ان آخر الصيحات التربوية الغربية التي تدعو الى التعليم الحر والداعية الى مذهب افعال ما تشاء ليست بمناهج أصيلة، وإنما هي مراحل متتابعة من هزائم الفكر الغربي وانحداره وسقوطه في براثن الأساليب التلمودية التي هدمت الاسرة وأثارت موجات التحلل والهيبية والتحرر من الضوابط التي يقاسي منها المجتمع الغربي . فكيف يمكن لمجتمع قائم في طريقه الى البناء ان يتخذ من أنماط مجتمع منهار أسلوباً لحياته وتكوينه ؟

إن أخطر الخلافات بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي إنما تنصب على مفهوم التربية نفسه ، فالغربيون يرون ان التربية هي إعداد الأجيال لمواجهة المجتمعات المتغيرة على نحو يمكنهم من ان يلائموا بين أنفسهم وبين هذه المجتمعات ، وتلك هي أحدث نظريات التربية الغربية ، ولا ريب أننا في عالم الاسلام والأمة العربية نفهم التربية على نحو أعمق وأوسع وأكثر وفاء لأمتنا وعقائدها . ونحن نعرف ان النظريات الغربية في أي ميدان من الميادين إنما تستمد وجودها من أساسين : (الاول) هو المادية التي لا تجعل للمعنويات أو الروحانيات أو ما يتصل بالدين والأخلاق أساساً .

(الثانية) هي التخصص والتجزئة والانشطارية من حيث ان تقوم كل مجموعة من الباحثين في مجال النفس أو الأخلاق أو الاقتصاد أو التربية بالانفصال عن الطائفة الأخرى .

أما في مجال الفكر الاسلامي فإن الأمر يختلف كثيراً ، فالفكر الاسلامي يقوم على قاعدة التكامل بين القيم المختلفة لا الانفصال بينها أو الصراع ، فالتربية مرتبطة بالمجتمع والأخلاق والاقتصاد وبالنفس على قدر واضح تتصل به وتتكامل معه ، ثم تأخذ طابعها الخاص دون ان تنفصل .

كذلك فالفكر الإسلامي يزاوج بين الثابت والمتغير ، وبين القديم والجديد

وبين الروح والمادة وبين الإلهي والبشري وبين السكلي والجزئي في تناسق واضح وتوازن رتيب .

والمناهج الاسلامية سواء في التربية أم في الأخلاق أم في الادب لا تنفصل عن الأصول كما أنها لا تنفصل عن الحركة الدائمة ، فهي توائم بين الارتباط بالأصل الذي هو بمثابة الإطار الثابت وبين الحركة التي هي من طبيعة الظروف المتغيرة دون ان يجعلها ذلك مجمدة وعاجزة عن التطور ودون ان تفلت من إطارها ذاهبة الى أبعاد بعيدة مغايرة لإطارها وأطولها وقيمها الأساسية .

وفي مجال التعليم تقوم المناهج الاسلامية على أساس تأكيد الرابطة بالارض وهي رابطة الوطن ، وتؤكد الرابطة بالأمة وهي رابطة العروبة ، ولكنها لا تدعها تتحرك في فراغ وإنما في إطار من مقومات الاسلام نفسه الذي هو الأصالة والجذور فلا تمكن لطوابع الوطن أو الأمة ان تعملو على القيم العليا التي جعلها الاسلام اساساً ومنطلقاً من حيث هو نظام ومنهج حياة .

ولقد تقول المناهج الغربية بتطور نظرية التربية بين حين وحين ، وهو تطور جذري غامر يتحرك دون قيد ضابط الى آماذ بعيدة من غير ان يلقي بالاً الى أي روابط بالتاريخ أو الجذور أو القيم أو العقائد .

أما موقف الفكر الإسلامي من التربية فإنه يقبل بتطويرها دون ان تخرج من أطرها الأصلية وقيمها الثابتة ، فتظل متصلة بالجذور وفي نفس الوقت قادرة على المعاصرة والحركة والتقدم .

ولقد نجد بين نظريات الغرب في التربية وبين المنهج الاسلامي فوارق وخلافات كثيرة نتيجة هذا الخلاف الجذري في النظرة العامة في عشرات المواضع والمواقف .

تقوم نظرية ديوي في التربية على مصادر ثلاثة :

[الديمقراطية الليبرالية + الدارونية + البرجماتية] .

أما الديمقراطية الغربية فهي تعتمد النظرية الفردية واستعلاء الانسان وتحرره من كل عوامل السيطرة ، وهي في هذا الطريق تقوم على سيطرة الانسان الابيض صانع الحضارة وعبوديته غيرد ، وتغضي في طريق مفاهيم الاستعمار والعنصرية ، وتقف من الانسان بصفة عامة موقف الفكرة اليونانية الرومانية القديمة : سيادة الغربي وعبودية من سواه .

أما الدارونية فهي تؤمن بالتطور المطلق كما جاء به خلفاء دارون وبذلك لا تؤمن بأن هناك قيماً ثابتة مطلقة ، وهي بذلك تتجاوز الدين وتؤمن بتطور الأخلاق .

أما البرجماتية فهي لا تركز على حقائق ثابتة لذاتها ولكنها ترى القيم وسائل تعين على الوصول الى غايات ، فالفلسفة البرجماتية تنظر الى النتائج العملية الفعلية للعمل .

ويرى ديوي ان الأفكار أدوات وآلات يستخدمها الانسان ليكون علاقة فعالة مع بيئته ، والعقل مجرد آلة يستخدمها في البحث ؛ ولهذا تجعل البرجماتية

هدفها الإجابة عن السؤال : ماذا سنجني من العمل ؟

ويرى ديوي ان القيم الصالحة - ليست هي التي تحتوي على مضمون معين - وإنما هي التي تساعد الفرد على تكوين علاقة فعالة مع المجتمع ومع الناس ولذلك فهي في تغير مستمر وان قيم عصر سابق لا تصلح ليومنا هذا .
ولذلك فإن المدرس في نظره لا يجب ان يعلم القيم بل يجب ان يساعد الطفل على اكتشاف القيم بنفسه .

وبذلك يرفض ديوي كل ارتباط بين نظم التربية وبين الدين والأخلاق والقيم .

وكل هذه المصادر التي قامت عليها نظرية ديوي في التربية تقوم على تعارض مع مفهوم الاسلام أساساً ومع مفهومه في التربية ، فهو لا يرى أية حاجة لأن يعلم الحدث ديناً أو خلقاً أو قيمة ، وإنما يعلمه شيئاً واحداً هو أنه يعيش في مجتمع متغير وعليه ان يجد الوسائل لكي يستطيع ان يعيش في هذا المجتمع ويتوافق معه أياً كان اتجاهه وتطوره . فهو قبول بالواقع الذي تسير فيه الحضارة الحديثة والمجتمع الغربي دون ان يتخذ إلا الوسائل البرجماتية التي تستخدم الأفكار والقيم كأدوات فقط .

وديوي ومذهبه في التربية لا يؤمن بالترابط بين العقل والجسم ، ولا بين الروح والمادة ، ويدعو الى قبول الواقع لا تغييره .

فديوي ومذهبه هو ثمرة آخر مراحل التحول الخطير الذي يمر به الفكر الغربي والمجتمع الغربي تأثراً بالمادية وبالماركسية ، ويمضي في نفس الطريق الذي رسمه المخططات التلمودية فيقرر ان الروابط الاسرية قد تحطمت وكذلك الروابط الاجتماعية .

ومن هنا فإن الطفل يجب ان ينشأ في هذه الصراعات ويشترك فيها ويستسلم لها دون ان يعارضها أو يغيرها .

ولا ريب ان هذا الاتجاه وهذا المفهوم يتعارض تماماً مع اتجاه التربية الإسلامية التي تحاول إنشاء أجيال قادرة على التغيير والإصلاح ، وقائمة في عملها وحياتها على أساس الإيمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

ومن هنا فان مذهب ديوي ليس مقبولاً ، لا كلياً ولا جزئياً مع منطلق التربية الإسلامية بل معارض لها ، ومن هنا كان خطره منذ فرض على مناهج المربين في البلاد العربية والإسلامية .

إن مفهوم التربية وفلسفتها بصفة عامة في الغرب يتعارض مع مفهوم التربية الإسلامية ، ذلك أنها تحاول ان تقدم للحدث المفاهيم الأولية للحياة مستمدة من نظريات الفكر الغربي ، فالانسان حيوان كما تقول نظرية التطور . وتنطبق عليه تشريجات الحيوانات والحشرات ، والجنس هو مصدر كل التصرفات كما تقول نظرية فرويد ، والتطور حركة مطلقة كما تقول نظرية التطور بدون حدود أو ثوابت ، والأخلاق نسبية لأنها مرتبطة بالمعصور والبيئات ، فهي متغيرة والانسان جسد فحسب وليس هناك نفس أو روح ، والدين من مخلفات المعصور البالية سواء أكان أفيوناً للشعوب كما تقول الماركسية أو سلاح الإقطاعيين والأمراء كما تقول الديمقراطية ، والجنس الابيض تاج الخليفة وصانع الحضارة وهناك جبرية في التاريخ أو حتمية في المادة .

هذه هي الخطوط العامة التي تقوم عليها تربية النشء وهي مضادة تماماً لمفهوم الاسلام ، فالانسان في الاسلام سيد الكائنات وهو مستخلف في الارض ولكنه ليس سيداً مطلقاً بل مسؤولاً ، وليس حيواناً مطلقاً ولكنه روح ومادة ونفس وجسم ، ولا تطبق عليه تشريجات الحيوانات والحشرات لأنه يتميز بالعقل والارادة . والجنس ليس مصدر كل التصرفات وليست المادة مفسرة وحدها للتاريخ ولكن الجنس والمادة عاملان من بين عدة عوامل منها الدين والعنصر والمناخ .

فإذا قامت فلسفة التربية على المادية وعلى إنكار الجوانب الروحية والمعنوية فقد أقامت من الانسان مفهوماً ناقصاً وقاصراً . وإذا قامت على أساس ان الانسان حر الطبيعة والمسؤولية فقد تجاوزت مفهوم الاسلام الذي يعطي الانسان حرية الارادة ولكنه يجعله موضع المسؤولية ، وإذا رأت ان تجعل بين الله والانسان حلولا أو اتحاداً فقد عارضت مفهوم الاسلام وأنكرت المسؤولية الفردية التي هي أساس الجزاء .

كذلك فان مفهوم التربية الغربية يعارض مفهوم التربية الاسلامية في أمور عديدة منها الإلحاح على اعتبار الدين قضية شخصية لا علاقة لها بالدولة ولا بالمجتمع ، وهذا ما لا يقره الاسلام ولا يقول به ، فالدين أساساً منهج حياة ونظام مجتمع . ولذلك فإن نظرية فصل الدين عن الدولة نبات غربي لا ينمو في بيئة المجتمع الاسلامي ، كذلك فالاسلام لا يعتبر الدين عائقاً في سبيل النهضة أو التقدم بل يعتبره معيناً ومساعداً ، كذلك ترى التربية الغربية ان ضوابط الاخلاق تعمق التقدم بينما يفرق الاسلام بين الاخلاق والتقاليد التي تبدو جميعاً في نظر الغرب وكأنها من صنع المجتمع ، أما قيم الأخلاق فإنها ثابتة ومتصلة بالانسان وليس بالمجتمعات كالخير والشر والحق والباطل وهي مما لا يقبل التطور أو التغير ، أما التقاليد التي هي من صنع المجتمع فهي قابلة للتبدل وتتحول ، ومن هنا لا يقر مفهوم التربية الاسلامي ان القيم الخلقية تتطور بتطور المجتمعات أو وسائل الانتاج .

تؤمن التربية الاسلامية اساساً بالأخلاقية . فأخلاقية التربية دعامة حقيقية لا سبل الى تجاوزها . وتستمد أخلاقية التربية عنصرها من حركتها في إطار الدين نفسه ، وليس خارجاً عنه ومن هنا تركز التربية الاسلامية على الاسرة كقاعدة ثابتة للأمة . وتنمي في الأم مسؤولية واضحة ، وفهماً واسعاً يمكنها من تكوين النشء الجديد ، ويجعل لها وللأب مسؤولية أساسية في إعداد الجيل القادم .

والفرد المسلم ليس في صراع مع مجتمعه ولكنه في موامعة ، وليس في صراع مع الجنس ولكنه في توازن مع حاجاته وقدراته . ولقد أقام الاسلام للجنس مفهوماً قريباً الى الفطرة فأباح الاتصال بين الرجل والمرأة ، ولكنه نظمهم ووضعهم في إطاره الصحيح الذي يعلي من شأنه ويكرم المرأة ولا يذلها ، ثم جعل هذه الإباحة قائمة ثابتة ليس فيها خلاف وليست موضع صراع ، ولكنه سمح لكل من يستطيع ان يقيم الاسرة ولمن لا يستطيع ان يؤجلها ويعلمها حتى يتاح له ذلك .

كذلك فالاسلام يرى الاسرة دعامة ويرى الزواج فطرة ويرى تنظيم ذلك كله في إطار الدين شريعة تحقق سلامة المجتمع وتحفظ كيان الافراد . فالأخلاق ليست قيوداً ولكنها ضوابط تمكن من قيام المجتمع الكريم والاسرة السليمة .

ولقد جاءت إطلاقات الغريزة الجنسية في الغرب فتيحة إنكار الدين الغربي لها وإنكاره لطبيعتها ، فكان لا بد من التحول من النقيض الى النقيض وما يقاسيه المجتمع الغربي الآن من ثورة جنسية وانفجار في العلاقات بين الرجل والمرأة إنما هو رد فعل الحرمان الذي أطلقته الكنيسة للعلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة .

أما المسلمون فإنهم لم يصادفوا هذه الأزمة لأن دينهم اعترف بحاجات الجسد وأباحها ووضع لها الاطار الذي تتحرك فيه والضوابط التي تحفظها من الاضطرابات .

وإذا وصفت المفاهيم الغربية الأخلاق بأنها عادات اعتادها الشخص في الاغلب ، ولذلك فهي ليست ثابتة وهي في نفس الوقت ترتبط بالمجتمعات والعصور ، فإن ذلك موضع خلاف عميق مع المفاهيم الاسلامية وربما يرجع في الاغلب الى مادية النظرة الغربية التي لا تفرق بين الاخلاق المرتبطة بالدين وبين العادات والتقاليد المرتبطة بالمجتمع ، والاولى ثابتة والاخرى متغيرة ، ومن شأن ذلك فإن المسلمين يرون في الاخلاق قيماً أساسية لا تتبدل على مدى العصور أو اختلاف البيئات ، بينما يرون في العادات والتقاليد قيماً متغيرة يصيبها الضعف والتفسخ .

ونحن حين ننظر الى المفهوم الغربي للأخلاق الذي يراد طرحه في أفق الفكر الاسلامي وبناء منهج التربية في العالم الاسلامي على أساسه نذكر جيداً مصدر ذلك الذي تشير اليه بروتوكولات صهيون حين تقول في إحدى موادها الأساسية :

« يجب ان نعمل لتنهيار الاخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا. إن فرويد منا . وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همه الاكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .

ونحن نعرف ان فرويد دعا الى نسبية الاخلاق ووصف الاخلاق بطابع القسوة حتى في درجتها العادية ، وقال إن التسامي بالنفس هو نوع من الشذوذ.

ولقد هوجمت هذه الآراء في الغرب قبل ان تهاجم في الشرق ، ولكن القوى الخفية ما زالت تدفعها وتقدمها في كل مكان حتى في مجال دراسات التربية الحديثة وفي الغرب حقيقة قائمة الآن تزري بهذا الاتجاه وتقول بأن العالم تضخم جسمه وضعفت روحه ، وان الاخلاق لم تتقدم بالسرعة التي تقدمت بها الصناعات ، وان تقدم العلوم لم يضمن ارتقاء الاخلاق .

وإن هذه الفلسفات المادية ما تزال تهدم الايمان القديم ولكنها لم تنشأ ان تكون إيماناً جديداً فهي تثير الشبهات والشكوك وتدع الاجيال الجديدة حائرة ، وذلك هو أسلوب التلمودية الصهيونية .

ولا ريب ان التزاوج بين انتهازية مذهب البرجماتية وتحلل مذهب فرويد من شأنه ان يجعل التربية الغربية فاسدة فساداً شديداً لأنها لا تتحرر من الاخلاقية فحسب ، بل هي تعارض هذه الاخلاقية وتزدرئها وتصفها بالجمود والتخلف .

(٧)

من وجوه الاختلاف البعيدة المدى حرص الجامعات الأجنبية في البلاد الإسلامية على أن تقدم دراسات عن العلوم الإنسانية التي تتصل بالتاريخ وعلم النفس والأخلاق والعلوم الاجتماعية والفنون إلى جانب دراساتها عن العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها، أما العلوم الإنسانية فإن للعرب والمسلمين مفاهيم فيها تختلف عن مفاهيم الغرب، مستمدة من ثقافتهم وقيمهم وعقائدهم ولذلك فإن إصرار هذه الجامعات التي هي إرساليات تبشيرية في الأساس على تدريس هذه المواد من شأنه أن يخرج أجيالاً لا تفهم مجتمعاتهم وقيمهم إلا من وجهة نظر الغرب وطبق مقررات الاستشراق، وهي وجهة نظر مخالفة تماماً لمفهوم العرب ومعارضة تماماً لأصالتهم ولأهدافهم.

وتدعي هذه الجامعات أنها تقدم هذه الدراسات بأسلوب علمي، هذا الأسلوب العلمي لا يصلح كثيراً لدراسة العلوم الإنسانية لأنه يقوم على قواعد الأسلوب التجريبي الذي يطبق في دراسات المادة والمعاد والطبيعة بينما الدراسات الإنسانية المتصلة بالنفس والأخلاق والمجتمع لا يصلح لها إلا أسلوب آخر.

ونحن حين نقدم للدارس المسلم والعربي نظرية دارون على أنها مسألة علمية ونقيم عليها مفهومه عن الإنسان فيتقرر في نفسه أنه حيوان ثم نعلمه مفاهيم سبنسر في التطور المطلق للمجتمعات استمراراً من نظرية دارون في التطور

البيولوجي ، فإننا حينئذ نفضله عن أساس عميق وأصيل في الفكر الاسلامي
تضطرب معه كل النظريات والمفاهيم والقيم .

ذلك ان الاسلام والفكر الاسلامي لا يقر ما طرحته نظرية دارون من
فروض بأن الانسان حيوان ولا ما فرضه سبنسر من تطور المجتمعات الى غير
ما نهاية ، وكان الأولى بهذه الجامعات إذا درست هذه المواد ان تدرسها على
أنها نظريات وفروض قد تصح وقد تخطىء ، وان هناك بين باحثي العلوم من
عارض نظرية دارون ونظرية سبنسر وكذلك الامر في فروض « فرويد »
التي تدرس على أنها مسلميات في علم النفس ، بينما توجد عشرات المدارس
ووجهات النظر في هذا المجال .

ونحن نعرف ان النظريات تتغير ، وتختلف ، وتتحول سريعاً سريعاً حتى
ما يصدق منها في زمن ما أو فترة ما لا يصدق في زمن وفترة آخرين . فلماذا
نقدم للدارس المسلم والعربي مثل هذه النظريات والفروض التي هناك معارضات
كثيرة لها في إطار البحث العلمي فضلاً عن معارضات الفكر الاسلامي لها
وفق مقرراته الاساسية .

ولا ريب ان تقديم هذه الفروض على أنها مسلميات تبني عليها نظرة الدارس
الى الانسان والى المجتمع والى الحياة من شأنه ان يؤدي الى فهم مغاير تماماً
لفهم الاسلام . وهذا ما تقصد اليه هذه الجامعات بتدريسها العلوم الانسانية
التي ليس المسلمون والعرب في حاجة اليها من الغرب ، وإنما هم في حاجة الى
العلوم الطبيعية والتجريبية التي تنقصهم اساساً . كذلك فإن جامعة الارساليات
تعلم الشباب المسلم والعربي مادة التاريخ ما قبل الاسلام وما بعده والعصر
الحديث على نمط مضطرب اشد الاضطراب مغاير لوجهة النظر العربية الاسلامية
تماماً ذلك ان ما يعرض عليه هو وجهة نظر الغرب في مفهوم التاريخ من
حيث إن الغرب صاحب السيادة الحالية على الحضارة والمسيطر بالاستعمار على

عالم كثيرة منها عالم الاسلام .

كذلك فإن للغرب وجهة نظر بالنسبة لتاريخ اليونان والرومان مختلف ايضاً عن وجهة نظر العرب والمسلمين ، فنحن كمسلمين وعرب نواجه المجتمعات السابقة للاسلام بفهم يقوم على ضوء ما قدمته رسالات الانبياء للأمم وما عارضت به الأمم رسالات الانبياء من مفاهيم وفلسفات وفكر بشري وكيف جاء الاسلام ليصحح هذه المفاهيم ويحررها من الزيف ويعيد تقديم الفكر الرباني الاصيل للانسان من جديد .

هذا المفهوم الاسلامي وهذا الموقف يخالف تماماً بل ويعارض تماماً موقف الغرب ، فنحن حين فدرس مادة التاريخ في الجامعات الارسالية إنما نتبنى وجهة نظر الغرب الى الاسلام والعرب والاديان ، وهي وجهة نظر مغايرة تماماً وتعنى ان يكون الدارس غربي الفكر ، فهو لا يصلح مطلقاً لأن يكون قائداً لأمته ، فإذا قادها أودى بها الى مهاوي الهلاك .

كذلك الامر فيما يتصل بدراسة العصر الحديث والحضارة الغربية فإن المفهوم الاسلامي لها مختلف تماماً ، فإن الغرب في العصر الحديث زحف على بلاد العرب والمسلمين فاحتلها وأقام فيها استعماراً خطيراً استنزف مواردها وسيطر على مقدراتها وفرض عليها نظاماً وفكراً ، وحال بينها وبين حرية الحركة والارادة ، وعارض مصالحها وقاوم مجاهديها ، وما زال يفرض نفوذه الاقتصادي والثقافي عليها .

أما من وجهة نظر الغرب فسوف تسيطر على الباحث المسلم والعربي دعوى العمل الضخم الذي قام به الغرب في سبيل تمدين هذه الشعوب التي توصف بأنها كانت متخلفة ومتأخرة ، ثم كان الغرب مصدر تقدمها .

هذه هي وجهة الخطر من دراسات الجامعات الاجنبية في بلاد المسلمين ، وهو خطر لا يتوقف عند هذه الجامعات ولكنه يمتد الى مختلف مناهج

الجامعات الوطنية ايضاً على نحو أو آخر ، فالدارسون في الجامعات العربية لا يدرسون إلا علوم الغرب في الاجتماع والاقتصاد والسياسة وغيرها على أنها العلوم العالمية دون ان يعرفوا ان للاسلام وجهة نظر في هذه القضايا عليهم باعتبارهم أبناء هذه البلاد ان يعرفوها، وان للاسلام أوليات في جميع مجالات العلم التجريبي والعلم الانساني لا يذكرها الذاكرون في مجال البحث مما يشعر الباحث العربي المسلم بأنه عالة على هذه الحضارة الحديثة وان قومه وفكره لم يكن له أي نصيب من الجهد والعمل في بناء هذه الحضارة .

وفي مجال دراسة الحضارة تحاول مناهج الجامعات الارسالية ان تكشف عن الحضارة الغربية سيدة العالم وتحاول ان تصور الحضارة الاسلامية وكأنها رافد من روافدها ، وكل ما قام به المسلمون من جهد في مجال البحث العلمي والعلوم الانسانية يختزل في أنه كان حفاظاً على ترجمات الفلاسفة اليونانية ليس إلا ! ومن شأن هذا كله ان يخلق نظرة استصغار واحتقار من الدارسين المسلمين والعرب لأمتهم وحضارتهم ونظرة تمجيد وإكبار للغرب فلا يجدون مفرأ من تبني الآراء القائلة بالتبعية والانصهار .

الفصل الثاني

أوجه النقص في الاقتباس

أبرز أوجه النقص التي تعانيها التربية في العالم الاسلامي نتيجة فرض المناهج الغربية على المدرسة الوطنية هو ظهور طابع الازدواجية في التعليم وفي الثقافة .

ذلك ان الاسلوب الاستعماري في التعليم استهدف الانفصال عن المنهج القديم دون القضاء عليه وإنشاء منهج آخر مستقل ، ومن هنا سار المنهجان معاً في وقت واحد ، حمل الاول طابع الدراسة الدينية واللغوية واستأثرت به المعاهد الاسلامية كالأزهر والقرويين والزيتونة ومعاهد الحديث وغيرها ، وهذه أقصيت عن النفوذ السياسي والاجتماعي ، وعزل خريجوها تماماً عن الحياة ، بينما ركزت الوظائف الرئيسية والقيادات العملية في أيدي خريجي النوع الآخر من التعليم الذي أطلق عليه التعليم الوطني أو القومي والذي فرض الاستعمار مناهجه ونظمه وصاغه على نحو معين لتخريج مجموعة من المواطنين ذوي الولاء للغرب وللفكر الغربي وهم في نفس الوقت يحملون بذور الكراهية وجذور الخلاف لخريجي التعليم الديني ، وبذلك تعمقت هذه

الازدواجية ، وترسبت نتيجة لامتدادها آثار بعيدة المدى وكان هذا كله وفي مجموعه خطراً شديداً على حياة المسلمين ومستقبلهم .

يقول الدكتور ظفر احمد الانصاري : هذان النظامان المتنافران ينتجان نوعين من الناس ذوي نظرتين مختلفتين الى الحياة وغير قادرين على إدراك وجهة نظر كل منهما .

ويشير الدكتور الأنصاري الى أثر النظام الوافد في التعليم فيقول : إن العقول التي شكلها هذا النظام التعليمي قد غلب عليها الإعجاب المطلق الذي لا تحفظ فيه ، والتقليد الكامل لكل ما هو أجنبي ، وهي بشكل عام عاجزة عن التمييز بين التقدم العلمي من ناحية والمثل الثقافية من ناحية أخرى . وانها كانت سبباً في نشأة جيل مجتث الاصول الثقافية ، مما ترتب عليه :

اولاً : ان النزعة الجاحمة نحو التمدن لا تستدرج جماهيرنا للعمل الصبور في المختبرات العلمية بقدر ما تستدرجهم الى حانات الخمر وصالات الرقص .
ثانياً : ان الاعجاب المسرف بشعب ما والتقبل الأعمى لمذاهبه وآرائه وحق طبائعه الفطرية يؤدي الى قتل القدرة على التفكير الأصيل ولا ينتج إلا عقولاً مقلدة .

ومعنى هذا : ان النظام الاجنبي الذي استقدم الى بلادنا يشكل تهديداً أكيداً لقدراتنا على التحيز بذاتيتنا وتهديداً لقدرتنا على الارتباط بديننا وتهديداً لما نؤمله من ان نكون شعباً يحترم ذاته .

وان الازدواجية قد خلقت اتجاهين متناقضين وأوجدت قوى هائلة من النزاع الداخلي تهدد كياناتنا كشعب ذي عقيدة ورسالة محددة .

وان هذا يستدعي - كما يقول الدكتور الانصاري - الى التفكير جدياً في إيجاد نظام آخر جديد .

(٢)

ترتب على هذه الازدواجية آثار بعيدة المدى أهمها : الانشطار والثنائية في الكيان الاجتماعي والفكري للأمة ، وقد صور هذا دكتور محمد فاضل الجمالي حين قال :

« لا شك ساعدت التربية الغربية كثيراً على توسيع آفاق اختبارات الشعوب الإسلامية وذلك بتوعية هذه الشعوب وجعلها تدرك موقعها في عالم اليوم ، ولكن التربية الغربية تحمل في طياتها جرائم التفسخ الاجتماعي والاخلاقي والروحي للعالم الإسلامي ، ولذا وجب دراستها دراسة انتقادية .

فالمشاكل والاضطرابات التي تحملها لنا التربية الغربية تتأتى إما عن طريق اقتباسنا للتربية الغربية اقتباساً مستمجلاً دون ان ننسجم انسجاماً كاملاً وتتلام مع احتياجات الشعب وتقاليد الروحية ، أو لأن هذه المشاكل والاضطرابات كامنة فعلاً في التربية الغربية ذاتها . (ذلك) ان اقتباس التربية الغربية بدون ربط كاف لهذه التربية بالقواعد التربوية التي تشمل دين الشعب ولغته وتاريخه القومي والفنون والآداب المحلية ، قد أوجد انشطاراً وثنائية في الكيان الاجتماعي والفكري للشعب . إذ ان وجود جماعة يفكرون ويتحدثون بلغة عربية وتعابير جديدة بينما هناك جماعة أخرى من أبناء الشعب ذاته تفكر وتحدث في تعابير قديمة مما يسبب فقدان الوحدة والانسجام .

وهذا ما حدث في عدد من البلاد الاسلامية الأمر الذي يشكل مشكلة ثقافية واجتماعية وسياسية كبرى .

ويرى الدكتور الجمالي ان هناك سبعة آثار خطيرة للاقتباس الفاسد :

اولاً : إن التربية الغربية ولا سيما تلك التي تقدمها المدارس الاجنبية أو المدارس الوطنية التي تقلد الغرب قد تهمل احياناً اللغة القومية فتكون النتيجة ان الطبقة المتعلمة تستعمل فيما بينها لغة أجنبية .

ثانياً : في اقتباس التربية الغربية تتجه العناية في الغالب الى القالب والمظهر أكثر من الحقيقة والجوهر فالطالب المسلم اليوم قد يعنى ويقلق من اجل الشهادة واللقب العلمي أكثر من اهتمامه بالضبط العلمي .

ثالثاً : اقتباس التربية العربية يؤكد عادة على عملية الحفظ أكثر من التأکید على التفكير والفعالية والبحث (الشكل والقالب في التربية الغربية أكثر من الروح والجوهر) .

رابعاً : إن الذين ينالون قشرة من الثقافة الغربية يصيبهم الغرور والادعاء والبعض الآخر يعوزهم التكيف ، ويصدق هذا حينما يتأخر انتشار الثقافة العامة بين أبناء الشعب .

خامساً : التأکید حق الآن على النوع الأكاديمي في التربية الغربية وذلك على حساب التربية العلمية والتقنية .

سادساً : الكثير ممن ينالون الثقافة الغربية لا يعرفون شيئاً كافياً عن دينهم ولا عن حضارة أمتهم وجذورهم الروحية قد قلعت من تربة بلادهم .

سابعاً : فضلاً عن اعتمادهم على المشروبات الكحولية والانغماس في التمتع بالشهوات والتحلل الخلقي .

يكاد أغلب دعاة الفكر الغربي والثقافة الغربية والمتأثرين بالتربية الغربية ان يجمعوا على فساد عملية الاقتباس من التربية الغربية ، لأنها حرصت على ان تنقل المحاذير والسلبيات وواجهه النقص بينما تركت الايجابيات والقواعد العامة الصالحة لكل الامم والعصور كأنما كان هؤلاء الدعاة أعداء لأهمهم وخصوماً لأوطانهم . يقول ساطع الحصري :

إن نظام التعليم في أي بلد لا يكون نظاماً قائماً بذاته ، يعمل بمفرده مجرداً عن النظم العائلية والقومية السائدة في البيئة التي ينتسب اليها وإنما يكون جزءاً من مجموعة النظم الاجتماعية والخاصة بتلك البيئة ، وهو يعمل معها ويؤثر فيها ويتأثر بها على الدوام ، ويتمين من ذلك ان النظام التعليمي القائم في بلد من البلاد إذا انتقل الى بلد آخر ، بما انه ينتقل بمفرده وينفصل عن سائر النظم التي ترافقه في منشئه الأصلي لا يمكن ان يعطي نتائج مماثلة للتي يعطيها في بيئته الأصلية وهذا هو نتيجة ضرر الاقتباس بدون تأمل وتكييف ^(١) .

ويواصل تفسير وجهة نظره هذه فيقول :

(١) كتاب حول الوحدة الثقافية العربية .

إن البلاد العربية تسير في شؤون التعليم على طرق تخالف المبدأ ، فبعضها يتجه نحو النظم الافرنسية وحدها ، وبعضها يسير نحو النظم الانجليزية ، وبعضها يستلمهم النظم الأمريكية ، ويقوم جدال وكفاح بين مؤيدي هذه الأنظمة بصورة علنية أو خفية .

وعلى العرب ان يعدلوا عن الاستمرار في هذه الخطط .

فقد لاحظ زعماء الإصلاح في اليابان ان الطلاب الذين يدرسون في بلد من البلدان الغربية يبقون تحت تأثير تلك البلاد بصورة لاشعورية ، فقرروا ان يفرضوا على كل طالب يدرس في بلد من تلك البلاد ان يقضي سنة في بلد آخر قبل ان يعود الى اليابان ليستطيع ان يوسع أفق انظاره ومطالعاته ويصبح أكثر إدراكاً لمقومات الحضارة الغربية من غير ان يبقى مبهوراً بإحدى البلاد الغربية على وجه الانحصار .

ويعود مرة اخرى الى الغاية فيقول :

إن الاقتباس من نظم التربية والتعليم يجب ان لا يرتكز على نظام أمة من الأمم على وجه الانحصار ، بل يجب ان يقوم على دراسات شاملة على استعراض كل النظم القائمة في البلاد الناهضة .

ونضيف الى ما يراه ساطع الحصري : وان تجرى دراسة هذه النظم وعملية الانتقاء في ضوء الأصول الأساسية للتربية الإسلامية نفسها بحيث لا يقبل ما يتعارض مع قواعدها الأصيلة وهي : التوحيد والإيمان بالله والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخروي .

أكد أكثر الباحثين في التربية ان معاييب النظم التربوية الغربية الوافدة
فقدان المثل الاجتماعية العليا ، يقول دكتور بانيكار :

كانت التربية في ظروف الوضع الاستعماري محافظة جامدة لأنه لم يكن
من مصلحة الاجنبي المستعمر الذي ينبغي استغلال البلاد ان تروج تربية حيوية
تدعو الى الانطلاق ، والنفسية التي كان يراد خلقها لدى النشء كانت تميل
بالطبع الى التقليل من قيمة الثقافة الوطنية مع تمجيد فضائل السيد الاجنبي ،
وكانت أبرز أهداف التربية الاستعمارية إثارة الروح الانهازامية في نفوس
المواطنين لتمكين من التحكم بهم وبخيراتهم دون عناء كبير .

والآن وقد تخلى الاستعمار عن أغلب بلاد العالم الاسلامي فهل زالت هذه
الروح من مناهج التعليم ؟ صحيح انها زالت من حيث الإطار العام ولكنها
لا تزال باقية مسكنة في أعماق البرامج والمناهج تقديراً للغرب وللحضارة
الغربية وإيماناً بها وولاء لها ، ودون ما قدرة على إثارة الروح الاسلامي
ومفاهيمه وقيمه وبناء أجيال جديدة عليه .

فما زالت البلاد الاسلامية عاجزة عن ذلك نتيجة تلك الطلائع التي ما زالت
تسيطر على أنظمة التعليم وتحول دون تغييرها .

فالأستاذة فؤاد جلال وعبد العزيز القوصي واسماعيل القباني وطه حسين كانوا حريصين تمام الحرص على السير في نفس الإطار الذي تجري فيه مناهج التربية ، وكان خلافهم على الولاء الفرنسي أو الأمريكي ولكن فلسفة ديوي كانت مقبولة لديهم جميعاً .

كان ارتباط التعليم بالنظم الغربية قاعدة مقررة .

وكان إبعاد الدين عن مناهج الدراسة والبحث أمراً مفروضاً من إعادة بحثه أو النظر فيه .

ولقد توالى في السنوات الماضية انعقاد مؤتمرات التعليم وأصدرت «شارات» براقعة خادعة ، ولكنها كانت تخفي من وراء ذلك إمعانها في الاستمرار في نفس الطريق الذي تسير فيه وتعميقه ، وهي مفعنة في توجيه مناهج التعليم وجهة غربية صرفة أي وجهة علمانية لا دينية «تؤدي الى ضياع الجيل القائم والجيل القادم ضياعاً لا تقوم معه نهضة في هذه المنطقة مما يمكن لليهود ولشيعتهم الذين يتولونهم من دول الاستعباد الغربي وذلك بترويج بعض الآراء والاساليب التربوية والنفسية الفاسدة » وكلها مذاهب هدامة تحمل اسم العلم الحديث . وخاصة في مجال العلوم الاجتماعية والانثروبولوجيا .

وقد ثبت تماماً ، ان كل المخططات التي تسير فيها نظم التعليم في البلاد العربية لن تؤدي الى تحرير هذه الأمة لأنها تستمد مناهجها من أنظمة مدارس الارساليات ومنها التعليم في لبنان وانها بعد ان تحررت من نفوذ الاستعمار لم تستطع حتى الآن ان تتحرر من سلطانه على التربية والتعليم الذي يستخدمه الآن من أجل حماية نفوذه استبداداً واستعماراً في آن .

وما تزال الحقيقة التي لم تتغير تصك الآذان بأن استمرار اللجوء الى تبني الطريقة الغربية في صوغ مناهجنا التعليمية سيجعلنا تابعين وعبيداً للغرب وسيفقدنا شخصيتنا .

يقول أحد كبار مربّي هذه الأمة وائمتها :

« إن الفكرة التي تسود عقول رجال المعارف هي وجوب إبعاد العنصر الديني عن العقول والأذهان حتى تكون المدارس علمانية فقط وإن كان الكثير منهم لا يستطيع المجاهرة بهذا الرأي ، الدافع لهذا الرأي هو تقليد أوروبا ونظمها إعجاباً يدفعنا إلى السير وراءها . »

ومن أبرز عوامل امتداد هذا الخطر بالرغم من محاولات الإصلاح والتغيير الكثيرة هي أن بعض القادة والمتصدرين في مجالات السياسة والحكم في البلاد الإسلامية كانوا نتاج نظام التعليم الغربي ، فهم ما زالوا يدينون له بالولاء ويبقى بعد ذلك أن يدمغهم دكتور عمر فروخ بهذا الحكم :

« وجدت بعد ثلاث وأربعين سنة من التعليم أن طلابنا وتلاميذنا وهم مجموع الأجيال المقبلة قد فقدوا كثيراً من الخلق الديني الذي كانت لا يزال موجوداً في التلاميذ الذين عرفتهم في عشر العشرين وعشر الثلاثين وعشر الأربعين ، ثم وجدت في السنوات الأخيرة بين الطلاب حركات واتجاهات مؤسفة ، وحالات لا تعكس النقص في التربية الدينية فحسب ، بل تنعكس على الوجود الاجتماعي والطبيعي للأمة كلها . »

(٥)

إن مسألة فصل الدين عن مناهج التربية والتعليم هي من أخطر المحاذير وهي من أسوأ الاقتباسات التي تدل على سوء النية والتبعية المفرضة ، فقد أساء هذا الى الاجيال المتوالية إساءة شديدة .

وحين يراد منا ان ننفصل في العالم الاسلامي عن عقيدتنا نجد الامم جميعاً تربط بين التربية والعقيدة . والعقيدة عندنا ليست ديناً عبادياً فحسب ولكنها نظام اجتماعي كامل والتربية نفسها جزء منه .

يقول العلامة أبو الحسن الندوي في هذا الصدد (١) :

في الغرب لا يسمح للمواد التي تبذر بذور الشيوعية والماركسية وتستمرزىء بفكرة الملكية وتشمير الثروة وتنظيمها على غير أسس الشيوعية والماركسية ولا يسمح ولا يفكر في استيراد أقل عدد من الأساتذة السوفييت مهما بلغوا من البراعة والإبداع والتفوق في العلوم والفنون .

كذلك : لا يسمح قادة التربية والتعليم في الغرب « باستيراد » منهج تعليمي من بلد الى بلد ولو كانا يلتقيان في العقيدة والفكرة الأساسية في الاجتماع

(١) نحو التربية الاسلامية الحرة .

والنظرة الواحدة الى الانسان والحياة والكون .

وبالرغم من اللقاء في اللغة والثقافة بين أمريكا وإنجلترا ، وفي المذهب البروتستانتي فإن الموجهين لسير التربية والتعليم لا يرون استيراد مناهج التعليم من بريطانيا . ومن رأيهم ان نظام التعليم ليس من البضائع التي تستورد من بلد الى بلد .

ويقول الدكتور كانت : إن عملية التربية ليست تعاطياً وبيعاً وشراء ، وليست بضاعة تصدر الى الخارج أو تستورد من الداخل ، إنما في فترات التاريخ خسرتنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية أو الأوروبية الى بلادنا الأمريكية .

ويعاود الأستاذ الندوي القول : إن التربية في نظر هؤلاء القادة الذين يغارون على شخصية وذاتية بلادهم « لباس » يفصل على قامة هذه الشعوب وملاحمها القومية وتقاليدها الموروثة وآدابها المفضلة وأهدافها التي تعيش لها . إنه « لباس » يجب ان ينسجم مع اجوائها وبيئتها التي تعيش فيها والآداب التي تحتضنها والتاريخ الذي تغار عليه .

وإذا كان الغرب يفعل هذا في مثل هذه الدقائق التفصيلية والفرعية في جو تحكمه لغة واحدة وثقافة مشتركة فكيف بنا وبيننا وبين الفكر والثقافة واللغة والعقيدة والآداب والاخلاق الغربية فوارق عميقة .

ولماذا يراد لنا ان نكون تابعين ، ومحتوين ، وساقطين في احضان التغريب والسيطرة الثقافية .

ويتحدث الباحثون عن شؤون التعليم والتربية ان الشاعر فخته عند هزيمة ألمانيا لفرنسا نابليون ، دعا الى إعادة النظر في طرائق التربية والتعليم وعمل الى تحرير المناهج من الإسفاف والإباحة فكان نتيجة ذلك النصر في معركة (سادو) وغيرها من معارك السبعين .

ويردد علماء الاجتماع ان الدول التي تجتاحها هزات عنيفة فإنها تتنبه توجاً الى ان مصدر الخطر هو فساد نظام التعليم فتعيد النظر فيه .

فلهذا لا تهزنا ضربات الصهيونية العالمية وغزوها الظاهر والمقنع وسيطرتها على مناهج التعليم الغربية وما اقتبس منه في بلاد الإسلام ؟
إن الصهيونية العالمية قد سيطرت على التعليم الغربي وجردته من كل القيم والمثل وحررته من الاخلاق والدين لهدف معروف ، وهي تسعى الآن لتطبيق ذلك في أفق التربية الإسلامية .

ونحن نعرف ان المدرسة هي التي تستطيع ان تغير نظام المجتمع بما لا تقدر عليه سائر المؤسسات الاجتماعية ، وان طريقة الاصلاح تكن في عبارة (ارسموش) التي يرددها الغربيون ونأخذ منهم كل شيء عياناً مصفين ولا نصغي الى الحقائق التي يمكن ان تنير لنا الطريق .

يقول ارسموش : « سلمني إدارة التربية ربحاً من الزمن ، أتعهد لك بأن أقلب وجه العالم بأسره » .

لست أدري كيف نعرف هذه الحقائق ثم يصر رجالنا على عزل الاسلام عن مقومات مناهج التربية والتعليم ويخدعوننا بأن يجعلوا الدين مادة تدرس .

إن الاسلام ليس ديناً عبادياً لاهوتياً كي يدرس ، إنما الاسلام هو روح الفكر والثقافة والتربية والقيم الاجتماعية والسياسية والقانونية جميعاً وهو قوامها .

إنه ذلك الطابع الذي يطبعها جميعاً بروح الإيمان بالله والالتزام بشرعته وإقامة حدوده وتنفيذ ضوابطه .

ولقد آمن بذلك أكثر من كانوا متابعين للنظرة الغربية وعرفوا مدى خطر ذلك على أمتنا وعلى كياننا .

يقول الدكتور الجمالي : إن الشاب المسلم الذي يرتاد مدرسة أجنبية لا يتعلم شيئاً عن دينه عادة . وهو لا يدري بأن للشاب الغربي مدرسة دينية في

البيت أو في الكنيسة ان لم تدرسه في المدرسة . إن التربية الأجنبية تقصر كثيراً في مهمتها التربوية حين تترك الشباب المسلم محروماً من معرفة أصول دينه ، فهو بذلك يخسر الأسس الضرورية لأي شكل من أشكال التربية الاخلاقية والروحية على أسس قوية راسخة ، والشباب المسلم ذو الجذور المقلوعة والنفس القلقة بسبب حرمانه من التربية الروحية قد يكون شخصاً متشائماً وقد يصبح عنصراً مشاعباً في المجتمع الذي يعيش فيه .

ولقد نقلنا نحن منهج مدرسة الارساليات الى المدرسة الوطنية دون ان نقدر الفارق البعيد العميق بين منهج التربية الاسلامي ومنهج التربية الغربي . ذلك ان نظم التعليم الغربية قد تكون في الغالب مبنية على فلسفات ذات صفة ثنائية ، أو انشطارية Dualists فهي فلسفات تفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفرد عن الجماعة ، فالدراسات العلمانية مثلاً قد تؤدي بسهولة الى اتجاهات فكرية مشككة أو مادية أو ملحدة أو عدمية ، وفي نشأة الشباب المسلم على هذا الطراز من التفكير ينشأ غربياً عن مجتمعه ويعيش في فراغ روحي .

ونحن نعتقد ان الفلسفة الانشطارية - أو الثنائية - في التربية الغربية تصبح لعنة في حياة الانسان حين نفصل الدين عن الدولة والروح عن الجسد والفكر عن العمل والعلم عن الدين .

ذلك ان الاسلام لا يفصل الدين عن الدولة ، ولا الدين عن العمل ولا العلم عن الاخلاق فالدولة والعلم والاخلاق والعمل ، يجب ان تتفاعل كلها وتتحد وفق قوانين طبيعية واخلاقية ذات مصدر إلهي .

والمسلم الذي لا يتفهم دينه على الوجه الكامل قد يقع فريسة للفلسفة الانشطارية (الثنائية) التي تمارس في الغرب .

ولقد سقط فعلاً عدد من الشبان المسلمين ضحايا لتربية غربية ذات فلسفة انشطارية (١) .

(١) آفاق التربية الحديثة للدكتور محمد فاضل الجمالي .

إن اقتباس اساليب التربية في شؤون التاريخ والادب والعلم قد أحدث أخطاراً بعيدة المدى في النفس العربية والاسلامية .

إن تدريس مادة التاريخ على النمط الغربي إنما تفرض النظريات المادية الاصل التي تفسر التاريخ بالمادة أو الاقتصاد أو الجغرافيا ، والتي تنظر الى العالم كله نظرة واحدة ، فلا تفرق بين أمة وأمة أو دين ودين ، ثم هي تحاكم العالم على وضعه القائم : بحسبان ان الغرب صاحب الجنس الأبيض هو المسيطر الآن . والسيد الحاكم وان الشعوب الملونة هي المستعمرة والمتأخرة .

ولا ريب ان هذا الوضع هو وضع مؤقت وليس وضعاً طبيعياً ، فقد كان العرب المسلمون سادة العالم لألف عام متصلة ، وان مرحلة الضعف التي تمر بهم الآن لا يمكن ان تتخذ ذريعة للحكم على تاريخهم كله .

ومن شأن تقبل هذه الاساليب في دراسة التاريخ ان يجعل الدارس المسلم والعربي يحقر ماضيه وتاريخه وقيمه وأمته ويقف موقفاً يائساً بالنسبة للمستقبل ، بينما يلزم ان تكون التربية الاسلامية موجهة لهذا الشباب الى الايمان بمستقبل أمته متى عادت الى نهجها الحق وإيمانها بعقيدها ورسالتها .

كذلك فإن تعلم الأدب على النمط الأوروبي يقود الى جعل الاسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة ، فهو يفصلهم عن أساس البيان ومصدر الأدب وهو

القرآن الكريم ، فإذا عرض له عرض له عن طريق مذاهب لا تؤمن بالوحي والنبوة ، فهي لا تراه منزلاً من عند الله بل تراه من كلام البشر ، فهي تحاكمه وفق مناهج النقد الأدبي كما يحاكم الغربيون التوراة والإنجيل مع الفارق البعيد بين كتب بشرية فقدت أصولها السماوية وبين القرآن الذي هو النص الموثوق الذي لم يصبه أي تحريف .

كذلك فهناك خطر المناهج الغربية في الدعوة الى الفنون والمبالغة في الاهتمام بها ومدى خطر ذلك على نقل الأمم من جادة الحق الى التحلل والرخاوة.

يقول الاستاذ أبو الحسن الندوي : لقد أثبت التاريخ مرة بعد مرة ان الشعوب التي تتخذ الوسائل غايات والعلوم والفنون آلهة تعبد ، ويقوى فيها النظر والجدل على حساب الخلق والعمل ، ويكثر فيها الافتتان بالفنون الجميلة ، وتضعف فيها الإرادة وقوة المقاومة للمغريات ووسائل الترفيه والتسلية وتضعف فيها الغيرة والحمية ، وتعشق الحياة والمذات وتنتشر فيها البلبلة الفكرية ، وينتشر فيها التشكيك الشامل للعقائد والآداب والاستخفاف بجميع التقاليد والعادات التي كان فيها الشيء الكثير من القوة والصلاح ، ويتطاول فيها الريب الى مصادر الدين ومراجع التاريخ والى الشخصيات القديمة والحوادث التاريخية والى الأعراف والعادات يقود هذه الحملة كبار الاساتذة وحذاق الأدباء ونوابغ الباحثين وحملة الأقلام ومنشئو الصحف ، وينتشر هذا السم في كل طبقة من طبقات الأمة ، ويتسرب الى عقول الشباب ونفوسهم ، ويتغلغل في أحشائهم ؛ فإن هذه الأمة لا تثبت أمام أيّ عدو زاحف أو قوة مهاجمة ، ولا تثبت في معركة يوماً واحداً ؛ وهذه قصة اليونان وقصة الرومان .

(٧)

يدمج الدكتور محمد فاضل الجمالي نظام التربية الغربي بأمريين خطيرين :
عجزه عن خلق روح الوحدة والترابط وإهماله للنواحي الروحية والاخلاقية.

أما عن الأول فيقول : إن التربية الغربية تعوزها الوحدة والترابط ،
ويعوزها الانسجام والتوفيق بين نواحي الوجود ، ذلك ان الغرب قد أنجب
علماء عظاماً وأخلاقين كباراً وفنانين مبدعين وأدباء مجيدين وإداريين
قديرين ، كل واحد يمتاز في حقل اختصاصه ولكن الواحد منهم قلما يعنيه
التوافق والانسجام مع المجموع. وكل واحد يتعمق في حقل اختصاصه بدرجة
متناهية بدون ان يكون له تماس مع الاختصاصات الاخرى أو اكتراث
بوجهة نظر أصحابها ، فالعالم مثلاً قد لا يهتم كثيراً بمصير القيم الاخلاقية ،
والسياسي أو الإداري قد يصوغ مقاييسه الاخلاقية العملية الخاصة به .

وتربية الفكر قد لا تسير جنباً الى جنب مع بناء الاخلاق الفاضلة وتقديم
الذوق الجميل . كذلك ففي التربية الغربية اللادينية خطر جسيم ينجم عن
نسيان خصائص الانسان الروحية والاكتفاء بالتأكيده على نواحي حياته الجسدية
والاجتماعية وبالجملة فإن أهم نقص في التربية الغربية هو فقدان الانسجام بين
المتطلبات الزمنية للانسان والمتطلبات الخلقية والروحية .
ونحن نعرف مدى الخطر الذي ترتب على اقتباس هذا الطابع في مجال

التربية الإسلامية ونعرف كيف يقيم الاسلام التخصص في دائرة الشمول والتكامل فلا يجعله منفصلاً انفصلاً يذهب به الى الاستعلاء أو التفرد حق لا يفقد المسلم روح الوحدة ولا يفقد الفكر الاسلامي طابع الترابط الجامع بين القيم والعناصر .

الى أي حد كان اقتباس هذا الطابع في مجال التربية الإسلامية خطيراً وما ترتب عليه من آثار جلى !

يقول الدكتور الجمالي : إن الإهمال النسبي للنواحي الروحية والاخلاقية في التربية الغربية قد تسرب الى أنظمة التعليم الحديثة في العالم الاسلامي . فأصبح من نتائجه ان هناك تقصيراً في التأكيد على نشوء الانسان روحياً وخلقياً في تربية الجيل الاسلامي الجديد ، ولا سيما إذا قارنا ذلك بالتأكيد الحاصل على النواحي العلمية والفكرية والجسدية للحياة الانسانية .

والنتاج التربوي لهذا التوجيه الناقص : هو إنسان منحط في إنسانيته احياناً ، إذن فتربية الإنسان كل الإنسان كما يوحى بذلك كل فلاسفة التربية المعظام لا يزال حلاً يحب تحقيقه في الشرق وفي الغرب .

ذلك ان فقدان الوحدة والانسجام في التربية قد يؤدي الى الإفراط أو التفريط في معالجة بعض الأمور على حساب أمور أخرى . فالانحياز الى جهة دون الجهات الاخرى يصبح من الأخطار التي تفقد الحياة اتزانها واستقرارها ، فالمرء قد ينحاز إما الى هذه الفلسفة أو تلك وإما الى هذه الجهة أو تلك .

أما إذا كانت الحقيقة بين بين أي توجد بين النهايتين فلا يعبأ بها ، فقد نشاهد البعض يتطرف في (فلسفة العقلانية) والآخر يغالي في (فلسفة المادية) أو نرى هذا يتحمس للفلسفة المادية وآخر يتحمس للفلسفة الروحية .

وهذا متطرف في الفردية وهذا متطرف في الجماعة .

وهذا متعصب للمقومية وهذا مدفوع للأمية .

وهذا مفكر تمكن في حياة التأمل ، وهذا عامل يدوي لا صلة له بالحياة الفكرية .

هذه الانقسامات والانشطارات التي نتيجتها إما هذا وإما ذاك حيث لا تلاقي ولا توفيق ، سببها عدم الأخذ بالوسط الذهبي الذي يجمع الحقيقة من كل الاطراف ومن المركز الوسط بين القوى المتضاربة .

إن الإفراط والتفريط وعدم الأخذ بفلسفة الوسط الذهبي قد فرق الانسان عموماً بما في ذلك العالم الاسلامي الى معسكرات متنافرة ، وها هي الإنسانية منقسمة على نفسها اليوم من أدنى الارض الى أقصاها .

إن فقدان التوحيد والانسجام قد أدى الى التطرف والتحيز ، بما جعل من التربية أداة للتعصب والفكر المغلق وقد يبرر العنف كوسيلة للعمل السياسي أو الاجتماعي ، والمرء قد يلجأ الى الطعان بدل الحوار ويمارس البغضاء والكراهية بدل الأخوة والمحبة .

أما التربية المؤسسة على التوحيد والانسجام فلإنها تعنى بروح الإيمان المؤدي الى الاعتدال والوسط الذهبي والتفكير المعقول المتزن وضبط النفس ، وهذه هي الصفات التي يؤكد عليها القرآن الكريم ولكن بعض النظم المقتبسة من الغرب قد حملت معها : « منهجاً عقائدياً متحيزاً » تعوزه في الغالب المحبة والمنطق والاعتدال .

هذه الصورة من أثر اقتباس (نوع) من أنواع التربية الغربية الى العالم الإسلامي والمجتمع الإسلامي ، وقد رأينا مثل هذه الآثار واضحة وعميقة وبعيدة المدى والاثر فيما أصيب به المسلمون في السنوات الأربعين الاخيرة من نكبات ونكسات .

(٨)

وإذا كانت بعض الأنظمة التربوية الغربية المقتبسة قد قدمت لنا هذا النموذج من العقائديين المتعصبين والمتحيزين الذين « لا يمارسون التسامح والاعتدال » فإن هناك أنظمة تربوية غربية أخرى — ونحن في العالم الاسلامي خاضعون لنظامين تربويين يتصارعان بيننا — هذه النظم الاخرى قدمت لنا — على حد تعبير الدكتور الجمالي — قطرفاً في التراخي الأخلاقي والحرية غير المسؤولة فهي : « تقود الناشئة الى نوع من اللامبالاة الأخلاقية، فيصبح تناول الكحول واستعمال المخدرات والتهاون في العفة من الأمور المتسامح فيها وتصبح القيم الاخلاقية نسبية وعرضة للتقلبات والشهوات الفردية وليذهب ضبط النفس الى حيث ... » .

هذا وان الشباب الغربي قد يمارس شيئاً من الاعتدال وضبط النفس حتى في جو الحرية المطلقة ، أما الشاب المسلم الذي ينشأ في محيط اجتماعي ضيق، إذا ما تعرض الى هذا الجو فقد يصبح عرضة لخطر فقدان ضبط النفس بحيث يصبح إباحياً؛ وليس قليلا عدد ضحايا الانهماك في المسكرات والشهوات البهيمية بين الشباب المسلم نتيجة تربية تتمسك بفلسفة أخلاقية رخوة .

لَبَابُ الْمَثَالِثِ
التَّربِيَّةُ وَالتَّعْلِيمُ وَالثَّقَافَةُ فِي إِطَارِ الْإِسْلَامِ

الفصل الأول

التربية الاسلاميه

لا بد للباحث المسلم ان يفرق بفرقة واضحه عميقة بين التربية والتعليم والثقافة . حيث تختلط هذه القيم في مفاهيم التربية الغربية وتتداخل كثيراً ولا سيما ذلك للتداخل المبهم بين التربية والتعليم .

فالفهم الإسلامى للتربية أنها الإعداد الروحى والنفسى للفرد بحيث يكون مؤهلاً لتلقى التعليم والثقافة على نحو موجه فيأخذ ما هو أساسى وبناء وما هو بسيميل ان يمهده بالقدرة على أداء رسالته فى الحياة والمجتمع ، هذه الرسالة الجامعة بين هدفى الدنيا والآخرة ، من حيث البناء والعمل والسعى الى آفاق التقدم ، دون ان يكون ذلك على حساب القيم الخلقية أو المسؤولية الفردية بل لحسابها ودعمها لها .

فليس من مفهوم الاسلام ان يكون العلم للعلم منفصلاً من غير غاية ، ولا ان يكون العلم للدنيا وحدها ، ولا ان يكون للآخرة وحدها انفصلاً عن الدنيا والسعى فيها . فالمسلم يسمى فى الحياة من أجل العمل والكسب ليقيم المجتمع الإسلامى القوي بالعزة والتمكن والكرامة ثم يجعل هذا المجتمع القوي

الكريم خادماً للغايات الإنسانية العليا التي تجمع بين الإخاء البشري والطابع الاخلاقي ومرضاة الله والتي تتوقف عن معارضة حدود الله أو تجاوز ضوابطه .

في هذا الضوء يكون الهدف الاول والأساسي من التربية هو :

« بناء شخصية المسلم »

الذي سيبني المجتمع الاسلامي القوي الكريم القادر على مواجهة أخطار أعداء الإسلام ، والعامل على نشر كلمة الله في الارض ، فالشخصية المسلمة لها رسالة وعليها تبعة وهي تحمل التزامين أساسيين : الإرادة الحرة القادرة ذات المسؤولية الفردية والجزاء الاخروي ، والالتزام الاخلاقي الذي يطبع كل التصرفات في كل الميادين والقطاعات والقيم ؛ وهو التزام قائم بالنسبة للسياسة والاجتماع والاقتصاد والقانون والتربية جميعاً .

ومن شأن الإسلام وهو دين جامع بين العقيدة والشريعة ، وبين العبادة وبناء المجتمع ان يحول دون قيام الازدواج الذي يعرفه الغرب في صور مختلفة :

الثقافة الدينية — والثقافة العلمية .

الثقافة الادبية — والثقافة العقلية .

أو بين الإلهي والبشري .

فهو يجمع بين هذه جميعاً ويوازن ، ولا يفصل بعضها عن بعض إيماناً بأن الإنسان نفسه جامع بين المادة والروح ، والعقل والقلب ، ومطامح الدنيا وأشواق الآخرة .

ومن أجل هذا فإن منهج التربية في الإسلام منهج متكامل يعنى بتربية الجسم والروح والعقل حتى لا تطفئ ناحية من النواحي على الأخرى وبذلك ينشأ المسلم سوياً قوياً الصلة بالله محققاً لرسالاته في الحياة .

ومن أجل تكامل النظرة الإسلامية الى الحياة والوجود والمجتمع ، جمعت .

التربية الإسلامية بين تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم ، فهي تعنى بالتربية الدينية والخلقية والصحية والجسمية دون إعلاء لأي نوع منها على حساب النوع الآخر (١) .

وقد لفت هذا المعنى نظر البعض من حيث المقارنة فقال : إن التربية الإسلامية تعمل على إعداد الإنسان لا المواطن ، الإنسان المستخلف في الأرض على مفهوم وحدة الدين ووحدة الجنس وتوحيد الله .

وحين تأخذ التربية الإسلامية «الفرد» ككل تعده بألوان مختلفة من الإعداد : بالمحاكاة بالقدوة ، والموعظة ، وبالعادة ، والتوجيه .

وهي حين تبدأ معه تعمل على ان تصله بالله سبحانه وتعالى ، وتحسن هذه الصلة وتعمقها في ضوء التوحيد ، فإذا ثبت في أعماقه ان الله سبحانه وحده هو الذي يعطي ويمنع ويضر وينفع ارتفع (الفرد) عن طبيعة الإذلال لأي من البشر ، واستطاع ان ينظر الى الحياة نظرة أكثر عمقا وأكثر قدرة على الاقتحام وقول كلمة الله دون ان يخشى في الله لومة لائم ، ولم تجد وسائل الإغراء الى قلبه سبيلا إيماناً منه بأن الله يرزقه ، وان الطريق الحق لا يقطع هذا الرزق مهما تألب عليه فيه الخصوم أو الأعداء .

وحين تركز التربية الإسلامية على بناء الأخلاق بعد بناء عقيدة التوحيد إنما تعمل على تمكين «الفرد» من مقاومة المغريات فلا يضحى شرفه أو عرضه في سبيل أي مطمع ، ذلك ان محك تربية الأخلاق هي الارتفاع بالنفس عن المطمع والهوى .

ولا ريب ان لتربية العقيدة والأخلاق أثرها العميق في تكوين الشخصية ، فالغرائز قائمة في النفوس تعدل نفسها وتضبط اتجاهاتها وفق ما تدعوها اليه

(١) احمد فؤاد الامواني .

العقيدة وحسب ما توجهها اليه من سمو وكال ، والخطر هو في تركها دون توجيه وضبط ، والخوف الأكبر هو في إطلاقها على النحو الذي تدعو اليه التربية الحديثة في مفاهيم : ديوي وفرويد .

والإسلام في مجال الغريزة يأخذ بالضبط لا بالإطلاق ، وبالتبريد لا بالإثارة .
والاسلام يعترف بالفرائض وغاياتها ، ولكنه لا يطلقها ، ويدعو الى ضبطها والسير بها في نطاق « التقوى » والخوف من الله والجزاء فلا تكون قوة ضد الخير أو الحق ، ولا تتجاوز الحدود التي أقامها الدين الحق في سبيل حماية الإنسان نفسه أولاً من أخطار التمزق والانهار .

وكيفما يكن أثر الوراثة أو أثر البيئة في تشكيل الانسان فان التربية الإسلامية من شأنها ان تعيد تشكيل الفرد بحيث يقوم من أخطاء النفس أو تجاوزاتها .

ويرجع الاسلام الأخطاء كلها والأخطار كلها الى ضعف العقيدة الدينية وتراخي مفهوم التقوى والمسؤولية والجزاء .

ومن هنا يوجه الإسلام الفرد منذ الطفولة المبكرة الى فهم هذه الحقائق من الايمان بالله الى المسؤولية الفردية الى الالتزام الاخلاقي الى الجزاء الاخروي ليستطيع تحمل مسؤوليته في الحياة .

ولا ريب ان التربية الإسلامية في أسسها تقوم على الفطرة وتنمي القدرة على التفرقة بين الخير والشر والحق والباطل بحيث يستطيع الانسان ان يهتدي الى ذلك دون توجيه خارجي :

«الاثم ما حاك في النفس وكرهت ان يطلع عليه الناس» .

فالتربية الاسلامية هي تهذيب الشخصية وتزويدها بكل ما يمكن قواها الفكرية والبدنية من تحمل مسؤولية السعي والعمل والنضال .
وهي تعنى بقوة البدن وقوة الروح معاً متصلين لا منفصلين .

أول ما تعنى به التربية الإسلامية هي تخليّة نظرة الإسلام الى الإنسان . فالإسلام ينظر الى الإنسان نظرة تكريم وتفضيل ، فقد أوتي أمانة الاستخلاف في الأرض ، ووضعت كل معطيات الحياة وخيراتها له ليقوم عليها وينشئ بها المجتمع الرباني المصدر الإنساني الطابع بالإخاء والمدل والعمل الصالح .

والإسلام ينظر الى الإنسان نظرة متكاملة جامعة (روحه وجسمه وغرائزه وعقله) وكلها قوى متلاقية ، وقد اعترف بميوله وغرائزه وأشواقه ، وأباح له حرية الممارسة لكل ما يرغب فيه وفق إطارات تنظم حركته وضوابط تحول بينه وبين التمزق أو الانهيار وفي ضوء الفهم الكامل للحقائق الأخلاقية الثابتة التي لا تتغير : الخير والشر ، الحلال والحرام ، الفضائل والرذائل ، المباح والممنوع .

وقد انشأ الله الإنسان من تراب الأرض ونفخ فيه من روحه ، فهو جامع بين مادية الأرض وأشواق الروح ومترجح بينها فلا يستطيع ان يشعر بالطمأنينة النفسية إلا إذا وازن بينهما ، فإذا انخرط الى أحدهما عاش حياة الاضطراب والتمزق .

وعلى ضوء طبيعة الإنسان الجامعة بين المادة والروح صاغ الإسلام منهجه

الثربوي الجامع المتكامل الذي يختلف بالطبع اختلافاً جذرياً عن مناهج التربية المختلفة سواء الغربية منها أو الشرقية المرتبطة منها بالمفهوم المادي الخالص أو الروحي الصرف .

لقد أعلن القرآن ان النفس الإنسانية قد ألهمت الفجور والتقوى فأوجب تزكيتها بالتربية على النحو الذي يهذبها ويربها ويجعلها سوية صالحة ، وجعل هذه التزكية بالتربية أمانة في أعناق الوالدين والمدرسين والمسؤولين عن الأجيال .

وأقام هذه التزكية على أساس إنساني في الأساس لا يعرف فوارق الوطن أو اللغة أو الجنس أو العقيدة : كل بني آدم من تراب .

وجعل أساس التزكية التهذيب لا الكبت ، فالإسلام يعترف بالطاقات الحيوية في الانسان ولا يعطلها عن الممارسة ولا يلغئها ، ولكنه ينظم عملها بما يحقق الخير والايجابية ويؤدي الى إقامة المجتمع الصالح من غير عدوان من إنسان على حق إنسان .

وهو في ذلك يجمع بين ضرورات الجسد وأشواق الروح ويعطي كلا منها نصيبه المعقول ويقيم المرواحة بين ذلك ضوابط وحدوداً .

ومن هنا لا تنشأ لدى المسلم تلك التحديات التي تصيب شخصيته بالاضطراب سواء عن طريق الكبت والانغلاق أم الاندفاع والانطلاق وكلاهما مرت به المجتمعات الغربية .

ومن هنا تستهدف التربية الإسلامية بناء شخصية الفرد السوي القادر على احتمال أمانة الإنسان المستخلف في الارض بالحق ، والقادر على التعرف على الخير والشر والعامل في سبيل إقامة المجتمع الرباني المصدر الإنساني الطابع ، ليس المجتمع الإقليمي المنغلق ، ولا المجتمع الأممي المنفتح ، هذا الفرد المسلم هو القادر على تزكية النفس وضبط الفرائض ، والمسؤول بالإرادة الحرة عن نتائج عمله وهذا الهدف الذي دعت اليه التربية الإسلامية من بناء الشخصية

هو العامل الوحيد القادر على الحفاظ على القيم والعقائد والارض بالمرابطة في الثغور ، والوقوف على خطوط المواجهة دوماً ، وجيلاً بعد جيل ، يحمي أرض الاسلام ، ويدافع عن كيان الأمة ، ويحمل رسالتها للعالمين .

ولقد كان الغرب الاستعماري يعرف ذلك ، وقد واجهه مواجهة صريحة في الحروب الصليبية ، ورأى لويس التاسع كيف كان الاسلام قادراً على ان يغلأ هذه النفوس بالقوة والعزيمة وبالعناد القليل استطاع المسلمون ان يهزموا اعلى الجيوش .

ومن هنا نبتت عنده تلك الفكرة الخبيثة الماكرة التي كتبها في وصيته والتي أصبحت من بعد نبزاً للفرز : وهي القضاء على هذه القوة ومحو تلك الشخصية وإزالة ذلك الانسان وإحلال بديل منه شخصية مضطربة ممزقة ، تحب الترف وتهوى إطلاقا الأهواء والجنس والفرائز ، وكذلك عملت الإرساليات التبشيرية على بناء هذه الاجيال التي واجهت الهزيمة والنكسة سنوات بعد سنوات ، دون ان يدفعها ذلك الى التنبيه الى مصدر الخطر :

ذلك الخنجر المغروس في أحشائها : خنجر التربية الوافدة .

إننا نستطيع ان نستفيد من تجارب كل الأمم في التربية والتعليم والثقافة ولتكن : على شريطة ان نبني أساس التربية الاسلامية أولاً ثم نقبل في ضوئه أو نرفض ولتكن قاعدتنا هي :

« خذ ما صفا ودع ما كدر » .

« إن التذشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة إرادتهم في ان يعتقدوا أو ان ينظروا الى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضارة الربانية التي جاء بها الاسلام .

(٣)

إن التربية في مفهوم الاسلام هي إنشاء الانسان إنشاء مستمراً من الولادة حتى الوفاة . هذا على الامتداد الأفقي ، أما الامتداد الرأسى فهي تربية كاملة متوازنة : عقلية بالمعرفة ، وجسمانية بالرياضة ونفسية بالإيمان .

وهي جامعة من حيث إنها حين تغرس القيم الخلقية والاجتماعية التي تحمي الانسان من أخطار الاضطراب والتمزق، تربي في الانسان الإرادة الحقة، حباً للناس ، وإيثاراً وبعداً عن الأنانية وتجنباً للرذائل .

فالتربية الاسلامية في طبيعتها إيجابية بناءة ، تقوم على مدافعة الاخطار لا الإستسلام ، وتستهدف المقاومة لكل محاولات هدم الشخصية لا التراخي والاباحية .

ولقد كانت التربية الغربية المسيحية لأنها تستمد مصادرها من دين، تحاول بناء الشخصية ولكنها ضلت الطريق مرتين :

المرّة الأولى حين انخرفت عن رسالة الدين الحق ، فأعلنت من شأن قيم لم يأذن بها الدين ، وهي معارضة غرائز الجنس أو التقليل من شأن المسؤولية الفردية والجزاء الأخروي تأثراً بنظريات الحلول والاتحاد .

المرة الثانية حين سيطرت عليها الأيدلوجية التلمودية فدفعت المجتمع الغربي الى التفريط والانطلاق ، وكان ذلك بطبيعته هو رد فعل المرحلة الاولى التي قامت على الانغلاق والكبت .

أما الاسلام فإنه يعترف بالفرائز ويدعو الى ممارستها في اعتدال، ووفق ضوابط وحدود تحول دون الانحراف أو الجلود ، ولذلك فقد حال ذلك دون وقوع المجتمعات الاسلامية في أخطار الاضطراب النفسي الذي تعانيه المجتمعات الغربية .

(٤)

لم يقع فهم التربية الاسلامية في محاذير التربية المسيحية الغربية التي كانت تستهدف إعداد الفرد للآخرة ، وذلك بالقسوة عليه في مجال الجنس والمال بما تدفعه الى تطليق الحياة والهروب منها والعيش في الأديرة . وفق فلسفة تقول :

« العمل على نيل رضا الله بإذلال النفس وتعذيب الروح » .

ولقد كان هذا الهدف مما اطلق عليه النظرية الطبيعية للتربية من العوامل التي دفعت المفكرين الغربيين الى تجاوز الجانب الديني في التربية كلية ، أول الأمر ، الى الدعوة للأخلاق منفصلة عن الدين كما حملت لواءه الفلسفة المثالية ، ثم جاءت المرحلة التالية التي تهاوت فيها قيم الدين والأخلاق جميعاً بظهور الفلسفات المادية والبرجماتية .

هذه المحاذير لم يعرفها منهج التربية الاسلامية حتى يقال إن الذين يدعون الى منهج التربية الغربية إنما يريدون ان يحررونا من مثل هذا الخطر ، فلم يكن الاسلام في يوم من الايام دعوة الى رضا الله بإذلال النفس وتعذيب الروح ، فقد دعانا الحق تبارك وتعالى الى السعي في الارض :

(فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) .

وهو الذي دعانا الى التماس نعماء الحياة (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق) بل انه الحق تبارك وتعالى حمل على الذين يعرضون عن نعم الحياة (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) .

فلقد دعا الاسلام الى العمل والسعي والكسب وأقام ذلك كله في إطار الحلّ والخير والتقوى .

حين يفتح الاسلام للتربية الاسلامية مجال « التكامل » والنظرة الجامعة يحرر الانسان من ذلك التعزق والاضطراب الذي تفرضه المناهج الغربية التي تتناول الكائن البشري تناولاً مجزئاً متقطعاً ، فرجال التربية يعالجونه بعيداً عن رجال الاخلاق ، ورجال الدين يعالجونه روحياً ويغفلون عن جوانبه الاخرى ، والماديون ينظرون اليه نظرهم الى الحيوان ، والبعض يحاكمه بفلسفة المحسوس فيسقط ما لا تدركه الحواس ، والبعض يحاكمه على أساس العقل فيغلق جانب الوجدان والروح ، أما الاسلام فإنه يعالج الكائن البشري ككل متكامل .

ولذلك فإن أبرز ما يتميز به منهج التربية الاسلامية هو : وحدة الاتجاه وتكامل النظرة ، استمراراً من الفطرة ، والتقاء بالروح والعقل جميعاً .

فمنهج التربية الاسلامية وحده هو الذي يصل الانسان بخالقه ، ويصله بالارض ، ويصله بالانسان والمجتمع والحياة ، فلا يدعه يترك الحياة والارض ولا يدعه يتهالك عليهما ، وهو حين يدعوه الى عبادة الله يؤمن بأن العبادة لا تمنع من الضرب في الارض وعمارتها ، ومعنى العبادة ان يكون أخلاقياً في كل عمله ربانياً في كل اتجاهه ومن هنا تكون تربية الروح والعقل والنفس والجسم . « فتربية الروح » تفتح بصيرة الانسان على آيات الله في الكون فيستشعر

من وراءها القدرة القادرة الخلاقة المبدعة ، لتوقظ النفس من غفوتها وتجدد اللقاء بين ظاهر الانسان وباطنه : من داخل النفس وفي صفحة الكون ، حيث يقرأ كتاب الله الناطق (القرآن) وكتابه الصامت (الطبيعة) .

والعبادة وسيلة بناء الروح والتقوى هي قاعدة البناء كله و«تربية العقل ، بالعلم ، والعلم هو كل العلم ، وليس العلم الديني فحسب ، وبذلك تنمو العلاقة بين العقل والروح ، وتتجه مادة العلم في الاسلام الى الخير والى الرحمة وتكون خالصة للبشر جميعاً .

وإذا كان الانسان قد كشف أسرار العلم فإن معرفته بهذه المفاتيح والسنن لا تقنيه عن معرفة الله تبارك وتعالى الذي فتح له هذه الآفاق ، وهو القائم من وراء كل هذه القوى والسنن مدبر لها وصانع وخالق من العدم .

فلا تنفصل العلوم عن مصدر العلم ، ولا تتجه العلوم الى الطغيان والظلم والإبادة ، بل تتجه الى ما وجهه اليها خالقها : الرحمة بالانسانية وإسماعها .

«تربية النفس» : تكون بالزكاة والصدقة والبذل والصوم والكلمة الطيبة وتكون بالاستعلاء على السوء والظلم والحرام ، وبالتضحية والتنازل الى الفقير والى الجماعة . وقد حرص الاسلام على تربية القوة الضابطة في المسلم وتنميتها منذ الصغر ، وأبرزها الصبر وأداته الصوم حتى يكون المسلم قادراً على الامتناع عن كثير من اللذات والرغبات المباحة ، فتحقق بذلك إرادته وقوة ذاته .

«تربية الجسم» : تكون ببناء الجسم القادر على الجهاد ، القوي الصامد في الشدائد ، الحشن المفطوم من الشهوات ، بعيداً عن القمع والكبت . والاسلام يقرر ان المسلم لكي يستطيع أداء وظيفته وتحمل مسؤولياته يجب ان يكون قوي الحواس . ولذلك كان المؤمن القوي خيراً وأحب الى الله من المؤمن الضعيف . وقد دعا الاسلام المسلم الى بناء جسمه بالسباحة والمصارعة والفروسية ، وان يتعود الحشونة ولا يستسلم للترف : « اخشوشنوا فإن النعم لا قدوم » .

(٦)

تبدأ التربية الإسلامية في البيت عن طريق المحاكاة والقذوة والتلقين ، ذلك ان الطفل ينشأ فيعمل ما يعمله أبواه ، فإذا كانا يقيان الصلاة ويقرآن القرآن فعل مثلها وانطبعت في ذهنه تلك الصورة وتأثر بها مدى الحياة .

وقد حرص الاسلام على العناية بالطفل قبل ان يولد بإعداد الإطار الذي يتحرك فيه ، فدعا الرجل الى اختيار الزوجة الصالحة ، وفضل اختيار الزوجة ذات الدين على ذات الجمال والمال والنسب والحسب ، لأنها هي القادرة على حمل المسؤولية .

وفرض على الأبوين حق تسمية ابنهما وحسن رعايته منذ اللحظة الاولى بأن يكون أول ما يسمعه هو اسم الله تبارك وتعالى .

وقد أعلن الإسلام ان كل مولود يولد على الفطرة ثم يوجهه أبواه الوجهة التي يختارونها له . ومن هنا كانت مسؤولية الآباء نحو الأبناء وهي مسؤولية أساسية :

(فالرجل في بيته راع وهو مسؤول عن رعيته والأم في بيتها راعية وهي مسؤولة عن رعيتهما) وإن الآباء مسؤولون عن فساد أبنائهم وإخطائهم ،

وعليهم في ذلك عقوبة التقصير وعدم بذل الجهد في تنمية هذه الثمرة على الوجه الأحسن .

والطفل ^(١) أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة يجب حمايتها ويجب ^(٢) البدء بتهديبه منذ قطامه لئلا تثبت في نفسه الأخلاق الذميمة فيصعب بعد ذلك نزعها من نفسه ، وليكن تهذيب الولد بالحمد مرة وبالتوبخ أخرى وبالإيناس مرة وبالإيحاء مرة ثانية ، وإن الطفل ^(٣) المستحي لا ينبغي أن يعمل بل يستعان على تأديبه بحياته وتميزه ، ولا يؤخذ الطفل بأول هفوة بل يتغافل عنه ولا يهتك ستره ، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه .

ويقول الامام الغزالي : إن الطفل يأتي الى الحياة ونفسه صحيفة بيضاء خالية من كل نقش وتصوير وإن المربي أباً ومعلماً هو الذي ينقش على هذه الصحيفة ما يشاء من خير وشر ، والصبي قابل لكل ما ينقش عليه ومائل الى كل ما يمال به اليه ويجب تعويده الاخشيشان في المأكل والملبس ، ومحجب اليه القصد في المطعم والقناعة بالخشونة ، ويستعان في تأديب الصبي بحياته ، فالحياء بشارة من الله تعالى تدل على اعتدال الخلق وصفاء القلب ، والرياضة البدنية تقوي جسم الطفل .

وليعود مكارم الاخلاق ويحجب سيئها ويمنع من لغو الكلام وفاحشه ويمنع من قراء السوء ويقصد في التعنيف عند وقوع الذنب لأن كثرة العتاب تهون عليه سماع الملامة وتخفف وقع الكلام في نفسه .

(١) الغزالي .

(٢) ابن سينا .

(٣) الغزالي .

وفي سن التمييز لا يسمح له بترك الصلاة والطهارة ولا يؤخذ الغلمان
بطريقة واحدة ، بل يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم وطباعهم وأسنانهم
وبيئاتهم .

ولقد دعا المربون المسلمون الى اتخاذ قاعدة القدوة والمحاكاة أساساً للتربية :

« فالأطفال يأخذون بالتقليد والمحاكاة أكثر مما يأخذون بالنصح والارشاد
قال عيينة بن أبي سفيان لمعلم ولده : ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك
لنفسك فإن عيونهم معقودة عليك فالحسن عندهم ما صنعت والقيبح عندهم
ما تركت » .

(٧)

أعلنت أصول التربية الإسلامية حقيقة خالدة : إن العلم لا يكفي ولا ينفع بدون الاخلاق ولذلك فإن الخطوة الاولى للتعليم والثقافة هي «التربية» .

وكل تربية لا ترقى الى ترقية الخلق السامي وتقويته ليست جديدة بأن تسمى بهذا الاسم ، والاخلاق ليست كلمات تلقن تلقيناً ولا عبارات تعرف مباشرة من الكتاب . فالعلم وحده لا يغني بدون الاخلاق ، والتربية الخلقية هي في الواقع تربية اجتماعية ، ويجب ألا ينظر الى الخلق وكأنه شيء شخصي محض لا يهم سوى صاحبه ، وإنما ينبغي ان ينظر اليه من الناحية التربوية الاجتماعية اكثر من النظر اليه من الجهة الفردية .

ولا ريب ان مسؤولية الآباء والأمهات بالغة في تذكئة الطفل وفي الآثار المترتبة على ذلك في مستقبل حياته كله . وقد دعا الاسلام الآباء الى ان يختاروا لأبنائهم أسماء جميلة ، فالاسم الجميل بعيد الأثر في نفسية الطفل ، وعلى الآباء اختيار مرضعة الطفل بحيث لا تكون مشوهة نفسياً أو ضعيفة عقلياً « فالابن يعمدي » والخطر ان تنقل صفات المرأة وخصائصها العقلية والنفسية الى الولد . وإن للنبي نهى عن استخدام «الظئر» المجنونة وعلى الطفل ان يرضع ما أمكن من لبن أمه ، وعلى الأم ان تمارس جنانها ورعايتها للطفل في السنوات الأولى ما أمكن فإن محاذير الانصراف عن ذلك لا حد لها .

واقعد أشار المربون المهون الى ذلك منذ ألف عام ويزيد فدعوا الى ان يرضع الطفل من لبن أمه ما أمكن فإنه أشبه الأغذية بجوهر ما سلف من غذائه وهو في الرحم ، وقد كشف العلم الحديث عن هذه الحقائق اليوم وبين مدى خطر الرضاعة الصناعية وانصراف الأم الى تربية أبنائها عن طريق دور الحضانة وخطر ذلك على مستقبل الأبناء .

كذلك دعا الاسلام الى تعليم الأطفال الرياضة وهي في عود طري ليكون قادراً على الحركة السريعة والنشاط ، وفي الوقت الذي دعا فيه الى التكوين الخلقي في سن باكروه ، واستعمال الوسائل المختلفة من الترهيب والترغيب ، دعا الى خلق جو من الإنساح حول الطفل ، حتى يشعر بالطمأنينة والأنس والبهجة ، ولقد أولى المربون المسلمون ذلك غاية الاهتمام حتى قال قائلهم : إن أبرز مميزات التربية الاسلامية عنايتها بالنص على الرفق في معاملة الأطفال وعلاج زلاتهم .

أما الأم فقد حملت التربية الاسلامية لها مسؤولية كبرى وأمانة عظيمة . فقد حرص الاسلام على إعداد الأم : بوصفها المدرسة التي ستبني الأجيال الجديدة نفسها ، ولذلك أعد لها تربية خاصة منفصلة عن تربية الرجل وفقاً لتكوينها ولرسالتها ومسؤوليتها . ودعا الى بناء فكر المرأة على أساس فهمها لوظيفتها في الحياة أساساً ومسؤوليتها على تنشئة الأجيال وإعداد مناهج الدراسة لها على هذا النحو مع الإيمان بحققها الكامل في المساواة التامة التي لا تتنافى مع قوامة الرجل .

ولقد كانت التربية الاسلامية للمرأة عامل قوة ودافع حماية لها من أخطار المجتمعات الفاسدة وأهواء الرجال ومطامعهم ووفقاً لرسالتها الأساسية في بناء الأسرة ورعاية الرجل وتربية الأبناء .

ومن هنا فقد ركزت التربية الاسلامية في مجال الأسرة وفي إطار القدوة ،

وفي هذا يقول الكسّس كاريل في كتابه الانسان ذلك المجهول :

« لقد ارتكب المجتمع المصري غلطة جسيمة باستبدال تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالاً تاماً ، ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانه حتى يستطيعن الانصراف الى أعمالهن ومطامعهن الاجتماعية . انهن مسؤولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم أموراً كثيرة لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي والعقلي والعاطفي طبقاً للقوالب الموجودة في محيطه » .

ولقد عاشت الأم المسلمة تربي أولادها وتنشئهم على أغاني الكرم والقوة والشجاعة ترويه لهم في قصص التاريخ وفي نماذج الرجال .

وحين دعا الاسلام الى ان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة كان يستهدف مسؤولية الأم التي يجب ان تعلم القرآن والسنة وتاريخ الاسلام .

والتي كانت تربي تربية خاصة منفصلة عن تربية الذكور .

وكان يحرم عليها الشعر الفاحش والكلام المقدع . وكانت توجه من نافذة أنها أم الاطفال وعون الزوج وراعية البيت .

(٨)

وفي محيط الأسرة المسلمة تتكون الثمرة الطيبة :

فالرجل والمرأة يعملان معاً في سبيل بناء الفرد المسلم العابد ، المتحرر من كل التحديات الضاغطة ، فيكون الأب للابن قدوة والأم للبنات نموذجاً طيباً ولا ينسى الأبوان لحظة أنها موجهان ومرشدان وإن أي تصرف لهما سيؤثر في هذا النتاج إيجاباً وسلباً .

ومن أهم ما يجب أن يتحرر منه الطفل^(١) وجدانياً وعملياً وواقعياً :

الحرمان والخوف والجهل . فالجاهلية تعمل على تعميق الخوف في نفس الانسان وتجعله شاملاً وعاماً ، تجعله يخاف مما يحيط الانسان سواء كان مادياً أو معنوياً ، فلا ينظر الى الحياة إلا نظرة خوف من المصير والموت والمجهول وخوف من الجوع والفقر وخوف من المسؤولية .

فالتربية الاسلامية تستهدف تحرير الانسان المسلم من الخوف : فلا يخاف إلا الله وحده ، اطمئنناً الى ان صلاته بالله تحميه من كل الاخطار .

وكذلك «التحرر من الجهل» وذلك بعدم إدخال الخرافات والاعتقادات

(١) من بحث للاستاذ محمد العربي الناصري .

الفاصلة الى عقل الطفل فتبعده عن الرؤية الحقيقية للكون والحياة كلها نما وكبر ، ويتحقق ذلك بتكوين التصور الإسلامي للكون والحياة والانسان . وكذلك تقويم الطفل على الفطرة : ومعناه تحرير نفسيته من الرواسب الدنيوية لتنشأ وتنمو قوى نفسه وهو مستعطي الهمة خال من العقد موجه توجيهاً يهيئه لخلافة الله في الارض .

ويرى المربون المسلمون ان النمو يمتد في ثلاثة ابعاد : النمو النفسي والنمو الجسمي والنمو الروحي ، وإن هذا النمو الأخير هو أوسع وأكبر يقوم على أساس التقوى أي الاتصال بالله في الرجاء والخوف وكلما نما هذا المحور وترعرع في نفس الانسان ارتقى روحياً من الاسلام الى الايمان الى الاحسان .

والإحسان هو ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وأساس هذه التربية التي تجعل الناشئ المسلم قوياً محصناً إزاء موجات التحلل والتمزق هو الصلاة تبدأ في السابعة ويضرب عليها في العاشرة فتصبح جزءاً لا يتجزأ من حياته فتنهاه عن الفحشاء والمنكر وتصبح بينه وبين الله باباً ، فإذا حزبه أمر لجأ الى الصلاة .

وبذلك تتحقق الغاية المثلى من التربية الاسلامية وهي تحرير المسلم من الذل والخوف ووساطة الوسطاء وشفاعة الشفعاء .

فالعمل كله موجه الى الله لا يطلب به هوى خاص ولا مطمع فردي ، والأمور كلها خالصة لله فلا خوف من التحديات ولا الاسواء .

فإذا كان الأفراد كذلك فإن الأسرة تقوم على دعائم ثابتة والمجتمع مجموعة الافراد المؤمنين والاسرة الثابتة .

ولقد حث الاسلام على الزواج من أجل بناء الاسرة دعامة المجتمع ، ومن أجل التحرر من أهواء الجنس وموجات الإباحية .

ويؤكد الاسلام تكوين الاسرة وبناءها (جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) .

والزواج ليس شركة مادية ، ولكنه تماذج روح بروح ، وقيام مودة ورحمة ، والاسلام حين يبحث على الزواج ينهى عن العزوبة لأنها تحلل من المسؤولية وهروب من تبعة بناء الاسرة . وقد دعا الى حسن اختيار الزوجة حتى تكون الاسرة مستقرة منيعة ، وحصر أفضل النماذج في صاحبة الدين ، ودعا الرسول الى تزويج من ترضون دينه وخلقه حتى لا تكون فتنة في الارض وفساد كبير ، فالطابع الديني في المرأة (دون المال والجمال والحسن والنسب) هو الدعامه التي تعظم كلها كل أخطار الاسرة وأزماتها .

ولقد وضعت الشريعة الاسلامية لهذه العلاقة أسساً وضوابط حتى لا تخضع لأهواء الرجال ، ثم جعل للطفل من بعد ذلك نظاماً كاملاً في الرضاعة والحضانة والنفقة والتربية حتى لا يجري الامر وفق رغبات متماوجة ، وقد شرع هذه القوانين والنظم لحماية الطفل حق يبلغ سن الرشد .

فالتربية القائمة على أساس معرفة الله وتقواه هي التي تهيه النشء المسلم لحمل رسالته ومسؤوليته . كذلك فقد جعل الاسلام الأبوين بعد ذلك حقوقاً قبل الأبناء وجعل العقوق من أكبر الكبائر .

في ضوء مفهوم التربية الاسلامية نرى مجتمعنا الحاضر الذي اعتمد على أساليب التربية الغربية الوافدة مضطرباً غاية الاضطراب في حاجة الى تصحيح كثير والى إعادة النظر في أساليبه ووسائله ، فقد ضعفت مسؤولية الآباء والأمهات وتراخت ، وحل التهاون محل الحزم عجزاً من الآباء عن تقدير قبحاتهم الخطيرة حتى بدأ الأب منكوراً من أبنائه وليس موضع ثقتهم فهم لا يستمعون اليه لأنه هو نفسه ليس نموذجاً صالحاً ، فالآباء يغيبون عن أسرهم ولا يتابعون أحوال أبنائهم ويتركونهم ومعهم أسلحتهم الحرجة لينلقوا الاجابة عنها من الصحف أو من دعاة الانحلال .

- والأم تقضي أغلب أوقاتها خارج البيت مع صديقاتها في مواطن اللهو واللعب ، وقد تحولت البيوت الى فنادق . وأصبحت أفلام السينما والمسرحيات هي التي تعطي مفاهيم الاجتماع وعلاقات الرجل والمرأة ، والآباء يتركون أبنائهم وبناتهم بغير رقابة من حيث اختيار أصدقائهم ورفقائهم ، وقد استهانوا بالصغار وعجزوا عن فهم علاقة الملابس والزينة بتكوين رجولة الرجل وأنوثة الانثى .

ولقد عجزت التربية الحديثة عن تحقيق بناء الفرد المسلم والفتاة المسلمة والاسرة المسلمة وذلك حين جردتها من مفهوم التربية الاسلامية الكامل الذي

رسمه لها القرآن مترابطاً في مصادره الثلاثة : (تربية الجسم والروح والعقل) بما يحقق التوازن والتكامل بين العناصر الثلاثة التي تكون في مجموعها الشخصية الانسانية ، وذلك حتى لا تغطي ناحية من هذه النواحي بالاستعلاء فتفقد النواحي الاخرى حاجتها ، وبذلك يحدث «التمزق» الذي هو اخطر آفات انعدام التكامل الانساني ومصدر كل الأزمات التي تواجهها البشرية حين أعلت من شأن العقل أو الجسم وتجاهلت تكامل العناصر وترابطها .

ذلك ان التربية الحديثة التي استشرى منهجها في المدرسة الاسلامية حرمت الشباب المسلم من عنصري الايمان والخلق وحاولت ان تدفعه في طريقه مجرداً منها مستهيناً بها عاجزاً عن استيعاب الآثار البعيدة المدى لممارستها .

كذلك كان لها خطرهما حين عجزت ان تفصل بين الرجولة والانوثة في فهم وجهة الحياة وهدفها ، وفي الزي والملبس والزينة .

كذلك كان إطلاق التربية من الضوابط وتجاهل الموازنة بين الترهيب والترغيب بعيد الأثر في حرمان الشباب المسلم المعاصر من تكامل الشخصية ومن الحذر من الوقوع في الاخطار التي من شأنها ان تدمر الشخصية وتهدمها وتعرض الشباب الى التمزق والانحلال .

كذلك عجزت التربية الحديثة عن ان تقدم للانسان المسلم أساليب الرجولة والقوة وبناء مفهوم المروءة والارحية ، فلم تجد الشباب الحدث يخف الى عون الضعيف أو الفقير أو العاجز أو يستشعر في نفسه ذلك الحنان أو الشوق أو الخوف ، ولقد نجد في مناهج التربية الحديثة الرياضية وكنا لا نجد لها هدفاً واضحاً مستمراً من غرضها الحقيقي ، فهي تجري كعملية بناء للجسد دون ان تكون مكملة لنمو العقل أو الروح بحسبان أنها جميعاً تتكامل في بناء الانسان . وفي الاسلام إنما تكون الرياضة موجهة الى بناء شخصية الرجل القادر على الجهاد وعلى المساهمة في الاعمال الجادة وتكون الوجهة فيها خالصة لله أساساً .

كذلك عجزت التربية الحديثة ان تمنح المسلم الشاب فهم الدور الحقيقي للانسان في الحياة: رسالة ومسؤولية وإرادة حرة وجزاء أخروبياً، إن وجهة الانسان المسلم هو الله وهدفه هو الحق وغايته هي الخير وتحددت وجهته خالصة واضحة :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً ، وأبرز ما تحاول التربية الحديثة تجاوزه والإغضاء عنه الدعامة الاخلاقية في التربية ، وهي تمثل اساساً هاماً ، فقد جعل الاسلام من الاخلاق قاعدة البناء كله والقاسم المشترك على مختلف القيم ، وجعل أساس الاخلاق (التقوى) وهي قمة الدين والمجاهدة وهي رأس الامر كله بمعنى مقاومة تيارات الاهواء والمطامع والرغبات المذلة والقسوة على مواجهة الاحداث والازمات بصبر وطمأنينة وصمود وذلك في مواجهة الاخطار التي تحيط بالمسلمين دوماً وفي كل عصر وحتى يكونوا قادرين على حماية كياناتهم ووجودهم من الغزو والانهيار . ولقد ربط الاسلام بين المنهج والتطبيق وبين الخلق والسلوك .

وجعل التطبيق منظر الايمان فلا يتحقق الايمان حتى يصبح سلوكاً مؤثراً في واقع الحياة وحيث يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قضية اساسية في المجتمع الاسلامي .

والمسلمون اليوم وهم يرون كيف وصلت بهم نتائج تطبيق مناهج التربية الحديثة وآثارها حين التمسوها أو فرضت عليهم ، يجب ان يعودوا الى منهجهم التربوي الاصيل المستمد من قيمهم الاساسية وهو الذي يصلح لهم وحده دون غيره .

من أبرز وجوه الخلاف بين أصول التربية الاسلامية وبين آخر صيحات التربية الغربية في تحولاتها المتعددة والتي لا تنتهي : فكرة « حرية التربية » بمعنى إطلاق الحرية للناسئء بدون رقابة أو توجيه سواء في مجال الفرائز أو الملابس أو التصرفات أو المعارف والاصدقاء أو غيرها من شؤون الحياة ، هذه الحرية المطلقة لا يقرها مفهوم التربية الاسلامية ويراها محنة تمر بها المجتمعات الغربية وخطراً داهماً بعيد الاثر فيما يواجه الشباب في الغرب اليوم من تحلل وانهيار وفساد وتمزق نفسي .

ولسنا في حاجة الى ان نحتكم الى غير الغربيين أنفسهم في جرائم هذه الدعوة وأخطارها وفي مصادر هذه الدعوة وخلفياتها .

والشباب الناسئء في أول الامر قليل الخبرة والمعرفة ولا يحسن اختيار طريقه ، فإذا تركناه مطلق الحرية عجز عن النجاح وكبا وفشل وتساقط ، لأنه أصبح خاضعاً لأهوائه في فترة لم تشكل فيها ثقافته ولا تجربته وحيث توجد مغريات الانحراف في كل مكان .

وضبط الحريات ووضع القواعد لها ليس مصدر تسلط أو استعباد أو دافع الى الحيولة دون حق الاجيال الجديدة في الحركة ، بل على العكس من ذلك فهو بمثابة وضع الانوار السكاشفة على الطريق الطويل المظلم الكثير العقبات .

ولقد كانت رعاية التربية الاسلامية للنشء بالغة الرفق والاحسان، ولكنها حاسمة في حمايته من الاخطار وتجنبيه المزالق وخاصة في فترة المراهقة التي تغلب فيها النظرة البارقة والتصرف المندفِع .

ولنعلم ان الدعوة الى حرية التربية أو إطلاق التربية ليس قانوناً حتمياً نافذاً ، ولكنه وجهة نظر ومحاولة مفترضة من بعض المربين ، أخذ بها دعاة مذهب معين ، ورفضها الكثيرون ، والذين قبلوا بها عادوا فتحلل أغلبهم منها بعد ان ظهرت نتائجها السيئة ، ولم يبق متمسكاً بها إلا اتباع المذاهب المتحللة والمنحرفة من دعاة الإباحية والإلحاد ومن اتباع الدعوات المادية وحملة ألوية الدعوة التلمودية الصهيونية في محاولة لتحقيق أهدافها في تدمير الشباب مقدمة لتدمير المجتمعات .

ولقد تعالت هذه الصيحات من رجال التربية الذين اعتمدوا المذاهب المادية وتابعوا فرويد ظناً منهم ان التوجيه ووضع الضوابط من شأنها ان تؤثر في كيان الفرد فتحول بينه وبين القدرة على الحركة والنمو ، ولقد ترددت أقوال عن ما يسمى بأخطار الكبت وما يترك في النفس من آثار ، وثبت بالتجربة التي أجراها العلماء ان ذلك كله محض توهم وان لا حقيقة له بل لقد ثبت ان التربية الموجهة أصدق أثراً في إنشاء الافراد عامة . كذلك تبين زيف دعوى كراهية الأب ، وتبين ان الحملة عليه في الغرب لها جذور في العقائد والفلسفات القديمة ، وأنه يراد بها تدمير الاسرة اساساً .

كذلك ثبت كذب ما ادعاه اتباع المذاهب المادية من كراهية الفتاة للأم فقد أثبت الباحثون ان أغلب رسوم الاطفال تحتوي اهتماماً واضحاً بتكبير حجم الأم بعكس ما تقول به نظرية فرويد (عقدة الكترا) من ان الطفلة تتعلق أكثر بأبيها ، وان هذه الرسوم كما يقول الباحثون أبرزت حقيقة بالغة الاهمية وتساؤلات تثير الشك في مصادر نظرية فرويد التي اعتمدت في كراهية

الابن لأبيه على أسطورة أوديب وما يماثلها بالنسبة للفتيات من الاعتماد على اسطورة الكترا ، وذلك في محاولة لإيجاد الصراع داخل الاسرة بين الأم والاب وبين البنت والولد .

كذلك فان الحرية التي تدعو اليها التربية الاسلامية هي حرية منضبطة تستهدف تقويم النشء وحمايته في هذه الفترة من العمر ، وهي فترة التكوين بحيث ينفش فيها الابن أو البنت في محيط من الرعاية وفي قدوة سليمة وفي فهم عميق لمهمة الرجل ومهمة المرأة ودور الاب ودور الام ، حتى إذا ما بلغ الناشئون رشدهم أعطيت لهم الحرية في الاختيار والتفضيل لما يرونه صالحاً لهم على ضوء ذلك التكوين الواعي الدقيق ، ولا ريب أنه من الجرم الكبير في حق المجتمع وحق الآباء والامهات ان يترك النشء في هذه السنوات الاولى دون توجيه ورعاية وحماية ، وإن من شأن الدعوة الى إطلاقه وعدم تقيده إنما يستهدف تحطيمه وتدميره وهو ما حدث فعلاً في مجتمعات الغرب إذ كشفت عشرات الاحصائيات والابحاث الميدانية عن ان ما يقاسيه الشباب في الغرب الآن من تصدع وتمزق وإغراق في الاباحة والمارجوانا وغيرها جاء نتيجة هذا الاسلوب التهودي الخطير ، وان ما دعا اليه الاسلام هو الاسلوب الأمثل وان الدعوة الى تكريم الانسان ليست في دفعه الى المخاطر بغير سلاح أو تجربة ، وإنما في حمايته وبنائه وإعداده ليكون صالحاً لحمل أمانة المستقبل في أمته .

ولا ريب ان نظرية الاطلاق من شأنها ان تدفع النشء الى ان يكون عبداً لأهوائه وشهواته ، فضلاً عن أنه يعجز عن اختيار الاصلح إذا ما اتبعت له حرية الاختيار لأنه لم يوجه عقلياً ولا نفسياً الى ما يصلحه والاولى ان يعطى مفاتيح الامور فيعرف الخير والشر والحق والباطل وما يصلحه وما يضره قبل ان يعطى حق ممارسة حريته .

ومن حقنا في ضوء هذا التحليل ان نحكم على التربية الغربية بأنها تربية

قاصرة وان عوامل كثيرة تتحكم فيها تستهدف تدمير الامم المنقولة اليها ،
فعلينا ان لا ننظر اليها على أنها الدواء الوحيد ولا الدواء الصحيح ، وقد رأينا
نتائجها في وطنها وبيئتها ولنعرف أنها نبت غريب عنا وأنها قد أدت في
النشء الذي طبقت فيه الى الزيغ والالحاد والميوعة والتحلل والاضطراب
والتشكك ولنعرف ان لنا طبيعة اخرى خاصة لها وجهتها .

ووجهتها في التربية بناء الشخصية المسلمة وعلاج النفس الانسانية وصياغة
النموذج الكريم من الانسان على نحو يمكن الانسان المسلم من تأدية رسالة
الاسلام . ولما كان العلم لا يكفي لتكوين الفرد والثقافة لا تكفي ولا قيمة
لأي علم ولا أي ثقافة بدون قاعدة أخلاقية وهدف عقائدي لذلك كانت
التربية الاسلامية هي الرجاء الذي تتطلع اليه البشرية لإعادتها مرة اخرى
الى جادة الحق والى الطريق المستقيم .

إن أبرز معالم منهج التربية الاسلامي هي أنه :

(أولاً) : منهج متكامل يعنى بتربية الجسم والروح والعقل جميعاً بما يحقق التوازن والتكامل بين العناصر الثلاثة التي تتكون من مجموعها الشخصية الانسانية ، وذلك حتى لا تطفئ ناحية من النواحي بالاستعلاء فتفقد النواحي الاخرى حاجتها وبذلك يحدث التمزق الذي هو اخطر آفات التكامل الانساني ومصدر كل الازمات التي تواجهها البشرية حين أعلنت من شأن الجسم وتجاهلت تكامل العناصر كلها وترابطها .

(ثانياً) : وحدة الاتجاه أو وحدة الفكر بمعنى ان تصوغ قاعدة عامة للنفس الانسانية تلتنقي فيها الامة كلها على ارض الواقع ، ولا يمنع هذا من الاختلاف في الفروع .

(ثالثاً) : يرى الاسلام ان الانسان يولد وفيه عاملاً : الخير والشر . والتربية هي التي توجهه الى أحدهما : (قد أفلح من زكاهما وقد خاب من دساها) ومن هنا يتحتم بناء الفرد وتوجيهه ودفعه الى الطريق الصحيح ببناء إرادته ودفعه الى تحمل المشاق ومواجهة الشدائد والانقطاع عن الشهوات .

(رابعاً) : جعل الاسلام التربية منهجاً وقدوة وجعل المنهج تطبيقاً في القدوة : (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) .

والقدوة تتمثل في الابوين ثم في المعلم ثم في الاصدقاء والمعارف فإذا لم تتحقق في هذه النماذج عجزت التعاليم والمناهج عن ان تقدم شيئاً ذا بال لأنها تظل قائمة في حدود النظرة المجردة .

ويقول المربون : إن الطفل يتقبل من آبائه اكثر مما يتقبل من معلمه وإن ناشئ الفتيان فينا ينشأ على ما كان عوده أبوه .

ومن هنا تأتي مسؤولية الآباء وما يرتكبه البعض في حق ابنائهم من تقصير في التوجيه والمتابعة يوماً بعد يوم .

(خامساً) : الطبيعة الانسانية مرنة ويمكن تشكيلها وهي اساس بناء الامم والمجتمعات ويمكن عن طريقها تغيير العرف العام ، ولذلك فقد عمد اليها المصلحون لبناء مجتمعات ناهضة ، ولا بد من إعداد البيئة الصالحة للتربية الحقة التي تقوم على أساس التقاء المناهج بالواقع والتي لا يوجد فيها تناقض بين ما يعلن وما يقدم .

(سادساً) : اهمية دور الام البالغ في إمداد الابناء بالحنان والرحمة والحب والعاطفة ومدى خطر نقصان ذلك أو تلاشيهِ .

(سابعاً) : الحرص على كمال الذاتية والطابع والنوع ، فالابناء لا بد ان يكون لهم تربية خاصة وزيت خاص ومنطلق خاص لفهم الحياة وتعلم امورها يختلف عن منطلق الفتاة وكذلك تباين الملابس والزينة ، وانه من الخطر امتزاج ذلك لأنه يفسد الفوارق العميقة القائمة بين شخصية الفتى وشخصية الفتاة والتي يجب ان نحصر على بقائها وتعميقها .

(ثامناً) : إقامة أساس التربية على الترهيب والترغيب معاً على طريقة الحزم الممزوج بالرفق والربط بين الانسجام والايحاش على ألا يؤخذ الطفل بأول هفوة بل يتغافل عنه ولا يهتك سره ولا سيما إذا ستره للصبي واجتهد في إخفائه .

(تاسعاً) : تربية الابناء على الرجولة والخشونة :

علموا أولادكم العوم والرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً .

(عاشرأ) : القرآن هو مدخل الفكر واللسان والذكر في كيان كل مسلم فهو المصدر الاول للتعليم والتربية والاخلاق ، وقد قدم لنا القرآن منهجاً كاملاً للمعرفة : عالم الطبيعة وعالم الغيب وعالم الآخرة ورسم لنا صورة كاملة عن نشأة الحياة وعن سر خلقنا .

(حادي عشر) : منحنا الاسلام فهم دورنا الحقيقي في هذه الحياة ومسؤوليتها بها .

(ثاني عشر) : جعل الاسلام العبادات هي علامة الاتصال الدائم بالمصدر الاكبر وجعل ممارستها في اوقات معينة مرتبطة ببناء الارادة وإعداد النفس الانسانية للترقي الى الملأ الاعلى .

(ثالث عشر): جعل الاسلام (الالتزام الاخلاقي) قاعدة البناء كله والقياس المشترك على مختلف القيم والاوزاع .

(رابع عشر) : دعا الاسلام الى الفكر والذكر ونمى على الغافلين .

الفصل الثاني

التعليم الاسلامي

لا بد لكي يقوم منهج التعليم الاسلامي من ان تكون قوائم « التربية الاسلامية » قد أعدت وانه لا سبيل الى نجاح رسالة التعليم إلا إذا قامت وفق منهج تربوي صحيح ، فالتربية للفرد والتعليم للمجتمع . والتربية هي الطريقة التي تطبع بها الفرد بطابع معين لإعداده لتلقي التعليم الذي هو مجموعة المعارف التي تزود الفرد بالخبرات . والتعليم وحده لا يغني ولا يكفي دون ان تمهد امامه الطرق من الاخلاق والقيم والاهداف الواضحة للسديدة ، والخلق ليس شيئاً فردياً فحسب ولكنه فردي وجماعي ، والعلم بعد ذلك رسالة وليس وسيلة لكسب العيش ، فإذا ضاق أفقه الى هذا الحد حرم الناس من الترقى الصحيح . ولا ريب ان العلم والقدرة على كسب المال إذا لم تكن مقرونة بالخلق والهدف أصابت صاحبها بالاضطراب والفساد مما يفسد عليه قدرته ومهارته ويجعل وجهتها الى الشر والانحلال .

فالتربية هي إعداد للنشء من ناحية إعداد الاطر النفسية والاجتماعية القادرة على حمل أمانة رسالة العلم على أساس نظرية الحياة التي يؤمن بها الناس.

والهدف الذي يتجه اليه فرداً وأمة وجماعة وفي إطار الامانة المنوطة به والمسؤولية القائمة في عنقه .

إذن فلا يمكن إطلاق التربية أو إطلاق التعليم ، لأن ذلك الإطلاق من شأنه ان يتجه بالناشئين الى غير الغاية التي قراد بهم أو يستهدفها مجتمعهم أو أمتهم . والتربية والتعليم ليسا غاية ولكنهما وسيلة لغاية : وسيلة التربية لبناء الانسان القادر على حل رسالة الامة وعقيدتها ووسيلة التعليم حماية الامانة وتنميتها وإذاعتها ودعم العقيدة وتطبيق الشريعة وإقامة الحجة بالمنطق والدليل على صدقها وصحتها .

فالتعليم ليس من اجل منطلق حر لا ضابط له ولكن من اجل دعم نظرية الحياة لأمة . ذلك ان الامة صاحبة الرسالة يجب ان تقوم على الصغار بالتربية والتعليم ليكونوا ورثة صالحين لهدف حياتها ولنظام مجتمعها، وعليها من اجل ذلك ان تصوغهم في قوالب عقائدها ومناهج حياتها .

ويصدق في هذا قول قريبي غربي لا أدري لماذا لم يعرفه دعاة التعليم الحر أو مدرسة (افعل ما تشاء) يقول : مهما قيل في تفسير التربية فمها لا يختلف فيه أنها سعي للاحتفاظ بنظرية سبق الايمان بها وعليها تقوم حياة الامة وجهاد في سبيل تخليدها ونقلها الى الاجيال القادمة .

ولعل في هذا إجابة عن التساؤل الذي يتردد : عن التربية والتعليم وهل هما وسيلة أم غاية ؟ إن المعرفة لا تصلح بدون إطار الخلق والمعرفة وسيلة الى هدف هو بناء منهج الحياة الصحيح ودعمه وتحريره مما يصيبه على مدى الايام من الاضطراب أو الانحراف .

ولا ريب ان الله هو المثل الاعلى للمسلمين وهو الغاية القصوى التي يجب ان تنتهي اليها كل غايات التربية والتعليم وان القرآن الكريم هو نقطة الانطلاق لبناء النفس الانسانية في الفرد وبناء الاسرة ثم بناء الجماعة الاسلامية القائمة

على شرعة الله بالحق وإقامة نهجه الرباني المصدر الانساني الهدف على هذه الارض .

فأين هذا من مناهج المدارس الوطنية والجامعات القومية التي يزخر بها العالم الاسلامي اليوم ؟ وكيف يمكن ان يكون تدريس مادة (الدين) وسيلة لتحقيق هذه الغاية وكل ما يتعلمه المسلم متصل بالاسلام من قريب حتى علوم التكنولوجيا والفلك والطب والطبيعة وغيرها ؟

إن هدف التربية والتعليم كما يقول الدكتور الجمالي : هي كيف يمكن مساعدة الانسان ليؤدي مهمته كمستخلف لله في الارض وهي المهمة التي نص عليها القرآن الكريم ، وهل تستطيع انظمة التربية الغربية سواء المسيحية منها أم المادية ان تحقق ذلك ؟

محال : فالتربية المسيحية تقوم على أساس فلسفة مختلفة تماماً لأنها تستمد وجودها من نظرية الخطيئة الاصلية التي تبني عليها عمود التربية والاخلاق وفلسفة الحياة البشرية كلها ، وهي نظرية منقوضة تماماً في الاسلام ؛ هذا بالإضافة الى الخلاف بين الجزاء الاخروي الذي هو في الاسلام حسي ومعنوي وفي المسيحية معنوي ، وهناك الخلاف الاكبر مع مفاهيم التربية المادية وهي مستمدة اصلاً من مفاهيم التلمود حيث تهدم عمادين اساسيين في التربية الاسلامية المسؤولية الفردية وما يتبعها من الالتزام الاخلاقي والجزاء الاخروي . فضلاً عن نظرتها الى الانسان على نحو مادي حيواني وعلى نط جزئي انشطاري مادة وليس روحاً ، جسداً وليس نفساً .

من شأن هذا كله ان يعمق الفوارق بين النظرية الغربية والنظرية الاسلامية في أدق مفاهيم العلم والتعليم فضلاً عن مفاهيم التربية والاخلاق .

ونحن في مفهوم الاسلام قد حققنا بالتربية بناء الانسان أما بالتعليم فنقيم بناء المجتمع الذي هو مجموعة من الافراد تسعى الى غاية كريمة هي إقامة شرعة العدل والإخاء والرحمة .

أما وقد غرست التربية روح المسؤولية والشعور بالواجب والارادة
القادرة على التغير والإخلاص في العمل فإن التعليم يبدأ لكي يشحن هذه النفس
وهذا العقل بالقدرات التي تمكنه من العمل الصحيح في اتجاه الغاية المثلى وبكل
المسكات والقدرات في اتجاه الاستجابة للعصر ودون مجاوزة قواعد العقيدة
وضوابط الشريعة .

فإذا كان التعليم هو الحركة فإن التربية هي إطار الثبات الذي يحقق
طابع الاخلاقية وصدق الوجهة الى الغاية وتصحيح المسار مرحلة بعد اخرى
حتى لا تتجاوز الامة اهدافها الحققة وغاياتها الاساسية حين تحاول المطامع
والاهواء ان تجرفها عن الطريق المستقيم .

إذا كانت مفهوم التربية في الاسلام هو الترابط بين تربية العقل والقلب والجسم فإن التعليم هو بمثابة إعداد العقل إعداداً سليماً ليكون قادراً على الفهم والاستجابة ولذلك فقد عني قادة التربية الاسلامية في ذلك بعدة أمور:

(أولاً) : إعطاء الفرصة الحدث للاختيار في مجال التعليم بما يتناسب مع رغبته وذوقه وقدرته دون ان يفرض عليه علم معين فيجعل أساس التربية مراعاة ميول الاطفال واستعدادهم حتى لا يرهق الاطفال بأعمال يصعب عليهم أداؤها ، لأنها لا تجري مع رغباتهم ، فالتربية الاسلامية تحترم الميول مهما كانت متواضعة . (ثانياً) أذنت التربية الاسلامية للطفل بعد الانصراف من المكتب ان يلعب لعباً جميلاً يستريح اليه من تعب التعليم بحيث لا يتعب في اللعب ، وقررت أنه إذا منع الصبي من اللعب وأرهق بالتعليم مات قلبه وبطل ذكاؤه وتنقص عليه العيش . (ثالثاً) : دعت التربية الاسلامية الى الرفق في التعنيف عند وقوع الذنب لأن كثرة العتاب تهون على الحدث سماع الملامة وتخفف وقع الكلام على نفسه . وان يكون التأديب بالحزم الممزوج بالرفق ؛ ذلك ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم فإن إرهاق الحد في التأديب مضر بالتعليم سيما في أصاغر الولد ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من

المتعلمين سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ^(١) .

(رابعاً) : أرست التربية الاسلامية قواعد جلى لإعداد المعلم نفسه فدعته الى الشفقة على المتعلمين ، وان يحريهم بحرى بنيه ، وان يفيد الآخرين من غير ان يطلب على ذلك أجراً ، وألا يلقي على التلاميذ ما لا تحتمله عقولهم ، وان يبدأ بالأهم والاساسي والبده بالقرب المأموس قبل البعيد المجهول ومراعاة الفروق العقلية والميول الفردية بين الاطفال .

ويجب على المعلم ان يتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء والاقتصار على العام المتداول المؤلف .

وان يحرص المتصدي لعلم من العلوم ان لا يقبح في نفس المتعلم العلوم الاخرى وان يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة ، وان يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعلمه .

(خامساً) : حرصت التربية الاسلامية ان تدعو المتعلم ان لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم بل يلقي اليه زمام أمره ويدعن لنصيحته ويتواضع لمصلحته مع الاصفاء والإدراك والاطلاع ، وعلى الطالب ان لا يدع فناً من العلوم المحموده ولا نوعاً من أنواعه إلا نظر فيه ، ولما كان من غير الممكن الامام بكل العلوم فالحزم ان يأخذ من كل شيء أحسنه ، وان لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله ، وان يحرص المتعلم على شرف الثمرة ووثاقة الدليل وليعلم ان أشرف العلوم هو العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله ، وان يكون قصد المتعلم تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة .

ومن يراجع آراء رجال التربية الغربيين (فروبل وهربرت سبنسر وجان جاك روسو) وغيرهم يجد ان الاصول الاولى للتعليم في الغرب كانت مستمدة من هذه القواعد .

(١) هذه مجموعة من آراء ابن خلدون والغزالي وابن سينا .

وقد أشارت الدكتورة عليّة الكبارة في رسالتها عن التربية والتعليم الى المصادر التي أخذ منها هؤلاء المربون الاجانب نظرياتهم التربوية والتعليمية وردتها تفصيلاً الى ابن عبدون وابن خلدون والعبدري والغزالي شيخ المربين .

أما مناهج التربية والتعليم المعاصرة فإنها قد اختلفت عن ذلك كثيراً ، ووقعت في الاحتواء التلمودي الصهيوني بعد سيطرة مفاهيم الثورة الفرنسية التي عمدت أساساً الى هدم جانبيين اساسيين في التربية الغربية هما : الدين والاخلاق .

إذا كانت التربية تستهدف تكوين شخصية الفرد ، فإن التعليم يستهدف تكوين شخصية الأمة ، فهل استطاع التعليم الوطني في العالم الاسلامي خلال هذه الاجيال الاخيرة ان يحقق هذا الهدف وان يخرج الجماعة الفاعمة لدورها ورسالتها ، القادرة على حمل هذه الرسالة في العالمين ، المستطاعة ان تحمي نفسها من غارات المعتدين وغزوات الآخرين ؟ ذلك ما تجيب عنه وقائع التاريخ بالنفي البات ، وهذا ما قصدت اليه القوى الاستعمارية ، وما حققته حين أخرجت المسلمين والعرب من إطار نظامهم التربوي والتعليمي الذي خرج اولئك الأعلام النوابغ في مجالات الحرب والسلم والحكم والعلم والفكر مما تزدهي بأسمائهم واعمالهم صفحات التاريخ .

لقد أخرجت الأمة كلها من إطارها وهدفها لتكون باحثة عن القوات ، متصارعة على الدرجة ، متطلعة الى المطامع القليلة .

وإن نظرة على الشباب المسلم في آخر مراحل التعليمية في الجامعة ليكشف عن ان مراحل التعليم كلها عجزت عن ان تقدم له هدف بناء نفسه أو هدف بناء أمتة ، وأنها شغلته بمعلومات ومناهج من شأنها ان تجعله شاكاً متردداً ، حالماً ، مضطرباً ، ممزقاً ، فلا أجابت هذه المناهج عن حاجاته النفسية ولا هي قدمت اليه هدف أمتة الحقيقي في الحياة .

وأخطر ما قدمته هذه المناهج أنها جعلت دراسة العلوم الطبيعية بديلاً لمفاهيم دينه فمزقت الوحدة بين قلبه وعقله، ذلك أنها قدمت له تلك النظريات والفروض المتغيرة التي لم تثبت على أنها حقائق، فإذا به يقارنها بما جاء في مفاهيم الاسلام، فلا يعرف كيف يلائم بينها. ولما كان أساتذته الطبيعيون هم القدوة فقد قبل وجهة نظرهم، وغفل عن مصدر قوانين الطبيعة الاول، الخالق الذي هو الحقيقة الاساسية في علوم الطبيعة نفسها، فجرى وراء الفهم بأن الطبيعة تعمل تلقائياً وان العالم وجد صدفة وان المادة خالدة وغير هذه من الفروض التي لم تثبت والتي تحاول المدرسة أو الجامعة ان تقدمها اليه على أنها حقائق العلم.

ومن هذا المنطلق ركز المنهج العلماني في التعليم على إنكار مقومات التوحيد وأصول العقائد التي إن درست في مادة الدين فهي تدرس على نحو لا يلائمها النفس ولا يحل الإشكال بينها وبين ما تقدمه علوم الطبيعة.

كذلك ففي دراسات الفلسفة وعلم النفس والعلوم الاجتماعية يحس الطالب المسلم ان هناك قوانين تحكم المجتمعات والامم مخالفة لتلك القوانين التي رسمها القرآن فهي معارضة حقيقية لكل ما جاء به الاسلام.

فإذا اتصل الامر بعلوم القانون والاقتصاد والسياسة وجد الطالب المسلم مناهج معارضة تماماً لمفاهيم الاسلام تدرس على أنها هي نظم المجتمعات.

وهكذا أقام المنهج العلماني (اللا ديني) في التعليم نظاماً كاملاً شاملاً مضاداً لمفهوم الاسلام نفسه يستهدف إخراج الشباب المسلم من كل المقومات الاساسية لمعقيدته وللنظام الاسلامي نفسه الذي هو أولى النظم بالدراسة والتطبيق في بيئات العالم الاسلامي ومجتمعاته.

ومن هنا تتشكل لدى الطالب المسلم نظرة مادية خالصة للكون والحياة، وتنبني بينه وبين الفكر الاسلامي حواجز صفيقة، فلا يعرف عن الاسلام

إلا أنه دين عبادة وصلاة ومسجد وأنه ليس له صلة ما بالحياة والمجتمعات ،
وليس له وجهة نظر واحدة في شؤون الاقتصاد أو القانون أو التربية .

ويعين على هذا ان دراسة الجغرافيا والتاريخ تقوم على الاقليمية البحتة ،
وعلى تعميق الفواصل بين الاقطار ، وعلى إعلاء شأن التاريخ الاقليمي بما يتصل
به من آثار فرعونية وإطارات إقليمية وكيانات خاصة ، فإذا عرف شيئاً
عن البلاد العربية فمعرفة بها أو علاقته بها لا تعدو ان تكون رابطة تاريخية
أو جغرافية بحكم خطوط الطول والعرض والجوار أو قبعاً لوحدة البحر
الابيض المتوسط .

وتغيب عنه تلك الرابطة العميقة الواسعة : رابطة الاسلام وامته ودولته
الضخمة الواسعة التي كانت جامعة هذه الاقطار وهي وحدة فكر وعقيدة
ولغة فإذا فكر في شؤون علاقات الامم لم يعد ان يفكر في إطار القوميات
التي يدرسها على نط القوميات الغربية وبفاهيمها ، قوميات تحاول ان تقوم
على المصالح ولا ترتبط بالتاريخ أو العقيدة أو وحدة الفكر .

وفي مجال علوم النفس والاخلاق والاجتماع تسيطر النظرة الجبرية وطابع
العلوم الحديثة في الاستسلام للواقع وتقبله ومجاراة روح العصر دون نظر الى
مدى صلاحيتها للنفس الانسانية أو المجتمع الاسلامي ، فيعجز المتعلم المسلم
عن بناء التكوين النفسي والخلقي القادر على مواجهة اخطار التحلل والترف
والإباحيات .

كذلك فإن هذه المناهج لا تفرق بين خواص الرجال وخواص النساء ،
فلا تقيم تعليماً منفصلاً للفتاة بحكم تكوينها النفسي والاجتماعي والبيولوجي ،
وبحكم مسؤولياتها ورسالتها وعملها ، ولكنها تشترك مع الرجال في برنامج
واحد فلا تعرف لها مهمة خاصة ولا هدفاً محدداً .

وبذلك تقصر مناهج المدرسة والجامعة الوطنيين عن بناء المسلم القادر
على معرفة هدفه وغايته ، فيعجز عن ان يعرف ان للاسلام وجهة نظر في

مختلف قضايا الاجتماع والاقتصاد والقانون والسياسة وعلوم النفس والاخلاق ، وان له منهجاً كاملاً مستقلاً مختلفاً عن هذه الدراسات ، وهو أولى بأن يلم به لأنه يعيش في بيئة عربية إسلامية الأصلح لها ان تطبق ما يصلح لها وما يتصل بكيانها ومزاجها وذوقها وعقائدها .

كذلك فإن هذه العلوم المختلفة للإسلام فيها دور ، وقد أرسى جذورها وقواعدها وأقام المنهج العلمي التجريبي الذي تنبني عليه العلوم الحديثة ، ودوره في الفلك والطب وغيره بالغ الأهمية ، كل هذا لا يعرفه المتعلم المسلم فيظل مليئاً بإحساس الانتقاص لأمته والإكبار للغرب ، بينما لو اتبحت له الفرصة لعرف دور أمته في بناء هذه العلوم وعرف وجهة نظر فكره الإسلامي في هذه النظريات التي يدرسها على أنها علوم ثابتة ومسلمات لا مراجعة فيها، بينما هي تتغير كل يوم وبينما هي عرضة للخطأ والصواب وبينما يجد أهلها من نتائجها كثيراً من الاضطراب وهي من نتاجهم الخاص فكيف بها لتطبق في بيئة أخرى مختلفة تمام الاختلاف .

ومن شأن مناهج المدرسة الحديثة في البلاد الإسلامية أنها لا تنبني شخصية المتعلم المسلم من حيث إيمانه بلغته ولا تاريخه ولا عقيدته ولا مقومات فكره ، ولا تكشف له عن الدور العظيم الذي قامت به أمته وعقيدته في بناء الانسانية نفسها خلال الف عام تقريباً ، وتطلعه على ان المرحلة التي يمر بها الآن هي مرحلة تخلف ، وان التخلف إنما جاء من الغفلة والانفصال عن القيم الأساسية التي دفعت الأولين بقوة .

ولذلك نجد في المدرسة الوطنية إهمالاً للغة وغلبة للعامة ، ونجد استعلاء اللغة الأجنبية ، وفي الجامعات تدرس العلوم باللغات الأجنبية ليظل الشباب على إحساس دائم بالتبعية والولاء والعبودية للغات التي يتعلم بها بينما أصبح ميسوراً الى حد بعيد ان تنقل العلوم كلها في وعاء اللغة العربية وان تدرس بها .

كانت ازدواجية التعليم من اخطار التحديات التي حرص النفوذ الاستعماري على بقائها وتعميقها، وذلك حتى يقع المجتمع الاسلامي في هوة الصراع الدائم . ذلك ان التعليم الذي عرفه العالم الاسلامي قبل الاحتلال كان تعليمًا جامعا ، وكان طابعه عقائديا ، ولكنه لم يكن دينيا بالمعنى الذي يحاولون ان يصفوه به تشويها واحتقارا ، فقد عرف الازهر في السنوات الماضية علوم الفلك والطبيعة والرياضيات ولم يتوقف عنها إلا في سنوات قليلة، وكان مفهوم العلم عند المسلمين في مختلف كتاباتهم هو العلم الجامع لعلم الدنيا والآخرة . غير ان النفوذ الاستعماري كان يرى مدى الخطر في هذا النوع من التعليم فوصفه بالجمود رغبة في إقامة رأس جنر للتعليم الاجنبي والمدني المستمد من المدرسة الغربية في مناهجها وفي علومها ايضا ، ومن خلال هذا العمل أتيح له ان يوسع قاعدته وان ينفشء اجيالاً تبناها وحماها ووكّل اليها العمل والقيادات وحجب اجيال التعليم الاسلامي القديم وعزلهم عزلاً تاماً ولم يسمح لهم بالاندماج إلا بعد ان أصبحت له الاغلبية المطلقة وبعد ان اهتز التعليم الاسلامي وانتقص من اطرافه وتمزق على قاعدة التخصص التي هي بمثابة التجزئة ، وكانت هذه اول هزيمة له وأكبر نصر لأصحاب المناهج الوافدة ، حيث استطاعوا ان يخضعوا المنهج الاسلامي الجامع المتكامل الى اسلوب التخصص دون ان يكون ذلك على قاعدة الاستيعاب الواسعة التي تضع الجزء في مكانه من الدائرة

الكلية فلا يتجاوزها ولا يقصر دونها .

وسيطر التغريب حتى جاء الوقت الذي دعا فيه خصوم الاسلام الى ان يلغى التعليم الاسلامي في السنوات الاساسية ويصبح دراسة تخصص في السنوات العليا .

وقد سقطت هذه الدعوة وعجزت عن ان تحقق وجودها ، وبقيت الثنائية وظل الازدواج قائماً مستمراً ، على اساس وجود نظامين تعليميين مختلفين في الغاية والمنهج والتقاليد والظروف بينما تحتاج أمتنا الى منهج أصيل مستمد من اللغة العربية والاسلام مسير للعصر ملتق به يحول دون انقسام القوم على أنفسهم أمام عدوهم ، ذلك ان إيجاد وحدة الشعور ووحدة العقلية هو اساس وحدة الامة والمقدمة الحقيقية لبناء هذا الكيان العربي الاسلامي قوياً شامخاً .

ولقد ثبت ان الثنائية قد حالت دون وحدة الامة ، وأصبحت خطراً على وحدة الفكر وإن السبيل الوحيد لهذا هو ان يقوم اساس التعليم إسلامياً أصيلاً ثم يستمد ما يحتاج اليه من الانظمة المختلفة دون الخضوع لها وان يكون ما يقتبس منها بمثابة (مواد خام) يؤخذ منها ما يلزم دون ان تفرض أي قسرية أو تحول دون فقدان الروح الاصيل .

ومن غير الانطلاق من مقدمة القرآن نفسه كأساس للتربية والتعليم فإن كل محاولة باطلة وكل جهد ضائع بمحاولات الترقيع والحذف والإضافة .

لا بد ان يقوم الاساس على الايمان بالله والنموه وللقرآن منزلاً من عند الله ودستوراً للحياة والمجتمع ومنهجاً كاملاً للميتافيزيقا وللغيب ولعالم الشهادة ، وان يكون القرآن أساس جميع العلوم ومصدرها ليس بأنه يحمل مادتها المتطورة بل على اساس انه المنهج الذي يرسم الحركة والإطار الذي تجري الحركة داخله لا تجاوزه .

وان ننطلق على أساس ان نأخذ العلوم الطبيعية والرياضية والتكنولوجيا

أخذاً مباشراً بأن ننقل مادتها الى اللغة العربية ، أما في نظام العيش ومقاييس الاخلاق والنفس والاجتماع فلا نلتمس إلا مفاهيمنا الاساسية . أما في شؤون القانون والاقتصاد والسياسة فتجري المقارنة الواسعة بين منهج المسلمين ومنهج الغربيين ليكشف للدارس المسلم حقائق الامور على ان يكون منهج الاسلام ونظامه شيئاً قائماً بذاته منفصلاً تماماً عن التاريخ الذي هو محاولة نجحت في مراحل ولم تنجح في اخرى ، وهي ليست محسوبة على اصول الاسلام وإنما محسوبة على الحاكمين الذين عملوا بالاسلام أو تجاوزوه .

لنعتقد مناهج التعليم العربية الاسلامية المقارنات بين العلوم الانسانية والاجتماعية الغربية وما وصلت اليه وبين العلوم الاسلامية في هذا المجال لنكشف للبشرية مدى أصالة الاسلام في مواجهة الانسان والحياة والمجتمع .

أما في العلوم التجريبية فعلينا ان نبين دورنا في إعداد هذه المناهج والمرحلة الضخمة التي قطعها المسلمون في الطريق الى الطب والفلك والكيمياء والبحث العلمي ثم نتابع الدراسة بروح الاسلام التي هي روح الأخوة الانسانية التي تجعل العلم رحمانياً لا عدوانياً وتجعله للبشرية كلها وليس حكراً لقلّة من أصحاب النفوذ والثروات .

كشف الدكتور محمد البهي خطر سيطرة مناهج الغرب التربوية في مقدمها: سبنسر البريطاني وديوي الأمريكي فأشار الى مدرسة المعلمين العليا التي أنشأتها بريطانيا والتي دربت فيها جيل القادة التربوية في مصر وقال : لقد خلت برائجها من الثقافة الوطنية وهي الثقافة الاسلامية العربية وإن أخذ التاريخ الاسلامي في صورة متواضعة مكاناً متواضعاً فيها ، ولكنه على كل حال لا يمثل الثقافة الاسلامية في كمها ولا في نوعها . ومع تعدد اقسام التعليم فيها ، كان هناك قدر مشترك ضروري بين هذه الاقسام هو علم «التربية» وورد الاستعمار البريطاني لفن التربية في هذه المدرسة العليا كتب سبنسر الانجليزي، ثم بالإضافة اليها كتب ديوي الأمريكي وكلاهما من دعاة مذهب (الواقعية) في التعليم أو بعبارة اخرى من دعاة إنكار الدين (أي المسيحي) ومن دعاة إبعاده عن مناهج التعليم .

وتعلم الطلبة في مدرسة المعلمين العليا في القاهرة حجج سبنسر وديوي ضد الدين ، ومقصود سبنسر وديوي من الدين (وهو المسيحية) وعلى الأخص الكتلكة .

ولكن المتخرجين من هذه المدرسة طبقوا هذه الحجج أو نقلوها الى مجال الدين الاسلامي، إذ اعتقدوا ان ما يوجه الى أي دين يصح ان يوجه الى دين

آخر وبالأخص وهم خلو منذ نشأتهم التعليمية الاولى في مدارس التقدم المدني - وهي المدارس الحكومية - من أية صورة عن الاسلام كدين وثقافة ، إذ ذاك وهي حياة تبعد كثيراً أو قليلاً عن ان تمثل الاسلام تمثيلاً صحيحاً .

وكان هؤلاء المتخرجون معلمين ثم أصبحوا بعد ذلك ذوي إشراف في تربوي في وزارة المعارف المصرية وصحبتهم في حالتهم الاولى كما رافقتهم في حالهم وهم مشرفون على التربية والتوجيه في وزارة المعارف صورة إبعاد الدين عن مجال التربية .

وترددت في نفوسهم نفس العوامل التي أثارها (سبنسر) و (ديوي) ضد المسيحية وعلى الأخص : ان معرفتها وتعاليمها ضرب من خيال الانسان يقع تحت الظروف السيئة في الحياة وهي لذلك أولى ان تكون خرافة من ان تمثل الواقع ويشترك معها في الضعف وعدم تمثيل الواقع ما يسمى بفلسفة المثل والقيم الاخلاقية ، وزاملت هذه العوامل في نفوسهم خفة وزن رجال الدين كما زاملتها في نفسي سبنسر وديوي ولكن رجال الدين هنا في مصر ليسوا قساوسة إنجليترا وأمريكا ، وإنما هم علماء الأزهر ، لأنهم حملة الثقافة الدينية الاسلامية . وألقوا بعلماء الأزهر في الاستخفاف بقيمتهم أبناء دار العلوم لأنهم أزهر بنو النشأة ، ولأنهم لا يخرجون عن كونهم حملة الثقافة الوطنية الاسلامية والعربية .

واختفى الاحتلال البريطاني رسمياً في سنة ١٩٢٢ وظهر الاتجاه التقليدي لفكرتي سبنسر وديوي في التربية المصرية منذ عام ١٩٢٥ أي منذ حاولت وزارة المعارف ان تستقل عن المشورة البريطانية في التعليم والتربية . ولكن هذا الاتجاه التقليدي تبلور تبلوراً واضحاً عندما انشأت وزارة المعارف المصرية معهد « التربية العالي » وتزعم التوجيه التربوي فيه الاستاذ إسماعيل القباني ، وعرف القباني وتلاميذه المدرسون تحت زعامته في معهد التربية العالي بأصحاب المدرسة (الديوية) وازداد تشبههم بديوي بعد انتهاء الحرب

العالمية الثانية وبعد ان دخلت أمريكا كمساهم في السياسة العالمية الدولية واحتلت ثقافتها في الشرق مكاناً مرموقاً بما تقدمت به الى بلاد هذا الشرق بما سمته (مساعدات فنية) واقتصادية وتبادل ثقافي بين الطلاب والعلماء .

وعن طريق المساعدات الفنية الأمريكية والتوسع في تبادل الزائرين من العلماء المصريين، نمت عظمة ديوي في نفوس أتباعه من موجهي التربية في مصر وأخذ بها مكان القداسة .

وتولى القباني وزارة التربية فنقل نظم مراحل التعليم المختلفة في أمريكا الى التعليم المصري ، وحرص هو ومعاونوه من أتباع مدرسة ديوي في مصر ان تتحقق أفكار ديوي في التعليم ، كما حرصوا على إبعاد أبناء الأزهر والاستخفاف بأبناء دار العلوم وعلى التخلص منهم ومن إشرافهم ؛ والسبب أنهم حملة الاسلام ولغته (١) ، ا.هـ .

ثم كانت بعد ذلك خطة التعليم الخطيرة التي حاولت القضاء على اللغة العربية العظمى وهي طريقة (شرشر) التي استقدمها أتباع ديوي في مصر والتي كانت بعيدة المدى في خلخلة نظام تعليم اللغة العربية .

(١) مستوى الكفاية الفنية للتعليم في مصر : الدكتور محمد البهي .

(٦)

كانت كلية الآداب من أخطر كليات الجامعة أثراً في دعم المنهج الغربي الوافد في التعليم ، ذلك ان هذه الكلية بفروعها (فلسفة واجتماع وعلم نفس ولغة) هي التي تختص بدراسة شخصية الأمة في تاريخها وفلسفتها وحضارتها وطبيعة إقليمتها وآثارها وأديبها القديم والحديث وما تلتقي فيه من روافد حضارية شرقية وغربية قديمة ومحدثة ، ولذلك فإن سيطرة مناهج التغريب عليها كان بعيد الأثر في تكوين الاجيال التي نشأت وهي تنظر الى مصر والعرب والعربية والاسلام والقرآن نظرة استخفاف بينما تعملو في نفسها أيجاد الغرب وفلسفاته وحضارته .

ولقد دعا كثيرون الى إطلاق الجامعة لدراسات الغرب دون أي قيد يربطها بالأمة أو عقائدها أو قيمها وعمل في سبيل ذلك كثيرون في مقدمتهم لطفي السيد وطه حسين وأحمد أمين وأمين الخولي وغيرهم .

وقد واجهت حركة اليقظة الاسلامية هذا التيار وحددت مهمة الجامعة فقالت :

« إن الجامعة المصرية وكل جامعات الدنيا مطالبة في البيئة التي نشأت فيها بأمرين اثنين : أولهما ان يتنزه القائمون بها عن كل موجدة نحو دين البلاد ومقدساتها وحقوقها فلا يتخذوا من البحث العلمي وحرية الرأي وسائل لتوهين

رابطة النشء المثقف ، بدينه وقوميته ومقدساته ، لا سيما إذا كان دينهم صديقاً للعلم وداعياً الى الحق وأخذاً بيد المعرفة ينشطها ويرفع مقامها .

وفي مصر أناس نعرفهم بأعيانهم ويعرف أتباعهم بسيماهم لا يفتأون يعملون على توهين رابطة النشء بالدين ، وتهوين أمره عليهم وتشكيكهم فيه وتنفيرهم منه ، وما فتنوا يحاولون إقناعهم بأن الحقائق تخالفه وأنه وقف حجر عثرة في طريقها . والواقع أنهم لم يتحرروا من مؤثرات بيئتهم إلا ليتدثروا بمؤثرات اجنبية عنهم ، ولم تتحرر افكارهم من قيود التقاليد الاسلامية إلا ليصفدوها بأغلال تقاليد اخرى غريبة عنهم ، فسدنة هيكل الجامعة يجب ان يحرصوا على ان يعرفوا في أمتهم بأنهم مجردون من الضغن لمقدساتها ويجب ان يتزهدوا عن ان تحفظ عنها كلمة أو حركة تدل على ان لهم هوى يميل بهم الى جهة معينة ويصبغهم بلون يعرفون به ، أما الذي يقنع أمته بأنه منغمس في هذا الهوى الى أذنيه ، مصطبغ باللون الخاص الذي يجافي به الإنصاف والاعتدال ولا يغسل وجهه عنه ، فليعذر الناس إن اعتبروه من أعداء الحقيقة لا من سدنتها وانصارها .

(ثانياً) الأمر الذي تطالب به الجامعة هو ان تقوم بمهمة البعث لعناصر هذه البيئة ، وان تجدد حياتها المعنوية ، فالجامعات الايطالية اليوم تنحو بالفعل نحو إحياء مجد الرومانين وإقناع الطلبة الجامعيين بأن من واجبهم إكمال سلسلة التاريخ التي ابتدأها قياصرة روما ، كذلك فإن الجامعات الألمانية تعلم ان لها وظيفة روحية لا تتنافى وطبيعتها نحو حقائق العلم .

إن لمصر مكانة في المجتمع الاسلامي والأمة العربية ومن شأن ذلك ان يكون الجيل القائم الآن في مصر والأجيال التي ستخلفه حلقات في سلسلة التاريخ الاسلامي ، وهي لا تكون كذلك عن جدارة واستحقاق إلا إذا اعترفت الجامعة المصرية بأنها الهيكل العلمي والثقافي في بلاد عربية إسلامية.

وإن من واجبها للإسلام الذي هو دين المصريين والعربية التي هي لغة المصريين ان تحمل لون محاسنها وأمجادها كما تحمل لواء العلم المجرد والعقل الحر والفكر المطلق ، وإن هذا لا يتنافى مع هذا ، ومن زعم أنه يتنافى فهو غشاش .

كما ان الاسلام لا يقف في طريق العلم في مصر ولا في غير مصر فيجب على هيكल العلم في مصر ان لا يقف في طريق الاسلام ، نريد نشأ مثقفاً عالمًا ولكننا نريد نشأ مسلماً عربياً .

وكلما ابطأ القائلون على أمر الجامعة في هذه الحقيقة تأخروا عن ان تأخذ مكانها الذي تستحقه ، وكانوا بذلك مسيئين الى وطنهم ^(١) « ا. ه. .

ولقد تداولت الابحاث المتعددة تلك الاخطار التي واجهتها الجامعة في العالم الاسلامي كله ، ومن كلية الآداب أصدر طه حسين مفاهيمه التي جعلها اساساً للبحث الادبي وهي مضادة لحقائق القرآن وأصول الاسلام وقد سيطرت مناهج المستشرقين على مفاهيم الأدب والفلسفة والاجتماع والأخلاق والنفس منذ اليوم الاول ، ولم تتناول الدراسة إلا مذاهب فرويد ودوركايم وليفي بريل ورينان الذي أقامت له كلية الآداب احتفالاً مهيباً عام ١٩٢٧ بمناسبة مرور مائة سنة على ولادته التقى فيه الشيخ مصطفى عبد الرازق محاضرة طويلة ردد فيها ما أورده رينان من تحقير للعرب وانتقاص للمسلمين .

ولا ريب عندما بدأت الجامعة المصرية كانت الآمال معلقة بها ، وقد رأى القائلون بها من الوطنيين خروجاً عن ذلك اللقيد الذي وضعه (كرومر) في عنق التعليم المصري بسياسة الكتاتيب ، ولكن هل استطاع الغيورون والمؤمنون بهذا

(١) مجلة الفتح : حب الدين الخطيب مجلد ١٩٣٧ .

الوطن ان يحوا هذه النبتة ، لقد واجه كثير من الباحثين هذا التحول الخطير فقال صاحب فنى العرب الدمشقية عام ١٩٣٠ :

« أنشئت الجامعة فتهلل القوم في جميع انحاء الشرق العربي وتفاءلوا منها خيراً وباتوا يعلقون عليها الآمال الطوال والأمانى الكثيرة وما هي إلا عشية أو ضحاها حق حصص الحق ووضع الصبح لذي عينين فتبين لهم أو كاد ان تلك الجامعة تبث الآراء الشاذة التي يريدونها الاستعمار الاوربي في الشرق وأنها إنما اتخذت آلة هدامة للكيان العربي عن طريق الأدب والعلوم. وها نحن نرى الجامعة المصرية أو بعض القائمين بأمر الجامعة يعلنون الحرب على العرب والعربية ، فقد اتضح لأبناء الأقطار العربية بعد الإشكال السبب الذي دعيت به الجامعة المصرية ولم تدع الجامعة العربية في مصر وشارتها الفرعونية ، وكل هذا يقوم على الدعاية على ان مصر فرعونية بحتة وان الآداب العربية واللغة العربية دخيلة بل محتلة بقوة الفتح، والدين في الآداب المصرية واللغة الفرعونية، وإن السياسة (الجريدة) قد اتخذت ثكنة حربية يربط فيها مجاهدو القومية الفرعونية بقيادة أشخاص لا يستطيعون ان يبرهنوا على ان مصريتهم ترتفع الى اكثر من خمسة أجداد أو عشرة . »

وفي هذه الفترة كان هناك صراع شديد على من يحل محل الأزهر : هل الجامعة المصرية أم الجامعة الأمريكية في القاهرة ، وفي هذا تقول جريدة السياسة في ٢٦ فبراير ١٩٢٧ (إن الجامعة المصرية أرادت أم لم ترد ، رضي القائلون بالأمر فيها وفي الدولة المصرية أم لم يرضوا ، صائرة لا محالة الى حيث تحل من ناحية النفوذ خارج الحدود المصرية محل الجامع الأزهر ونفوذه الكبير في تلك العصور التي مضت) .

وقد علق على هذا السيد محب الدين الخطيب فقال إن الأزهر للاسلام والجامعة للثقافة الجديدة التي تقوم على إنكار الدين أو على تجريدها من الدين

أبو الى عدم الحاجة اليه ، فالتقابل بين الازهر والجامعة تقابل بين الشيء وضده .
واقدر أحس طلاب الجامعة في فترة ما بأن دراستهم لا تعطيهما ما يطمحون
اليه من فكر ومن إجابة لقضايا النفس والحياة فطالبوا ان تجدد مناهج الجامعة
وان يكون الاسلام حضارياً وعقائدياً مادة أساسية في دراساتها ، كذلك
طالبوا بدراسة خاصة للنبات في كلية الآداب .

وقالت مذكرتهم (مارس ١٩٣٧) إن الفتاة المصرية في مسيس الحاجة الى
تربية الروح ، فهي في حاجة الى دراسة خاصة بها لأنه مهما يكن من الأمر
فليس كل المواد التي تدرس في كلية الآداب تتفق ومستقبل الفتاة ، دراسة
تتفق وكونهن أمهات المستقبل ، إن الاختلاط في صورته الحالية في جميع
الكليات يتنافى والشرع الاسلامي ، إن الدراسة الخاصة بالفتاة لخير تحديد
لمصيرها وخير معين على حياتها المقبلة .

كذلك أشار الطلاب الى أسفهم « ان تنتهي مراحل التعليم في الجامعة
وما يعلم الطالب فيها من أمر دينه شيئاً ، بينما يعرف أرسطو وديكارت ،
وحيث يكون الدين في هذه المرحلة الوازع الاكبر للشباب » .

سجل الطلاب هذا وما زال مطلبهم قائماً الى اليوم .

وقد أشار الكثيرون الى الجامعات الغربية وكيف تلتصق بها معابد بينما
لا يوجد في الجامعات الوطنية في العالم الاسلامي أي إشارة الى هذا المعنى .

ولقد كان حرص التفريريين الى الدعوة الى حرية الفكر حتى يجدوا منها
وسيلة الى تقديم كل سموم الفكر الغربي وفلسفاته المادية والمليحة والإباحية
الى الطلاب دون رقيب وكذلك تقرير الكتب الشهيرة لأمثال برناردشو
وغيره وفيها نقد للاسلام ورسوله ، ولكن الدكتور طه شهد كيف وضعه
الطلبة بين المطرقة والسندان وفرضوا عليه الاستقالة بعد ان كادوا يقتلونه ،

وكانت الجامعة بذلك قد عرفت كيف تتحرر من قيود التغريب ولكنها لم تلبث ان تراجعت .

والجامعة في الحقيقة ليست داعية أو مسخرة لإحدى مدارس الفكر الغربي سواء الليبرالي منه أو الماركسي . ولا يجوز ان تكون كذلك ، وإنما هي مسخرة لفكر أمتها أساساً تقف على قاعدته الأساسية وتدرس كل المذاهب والنظريات ، فتأخذ منها وترفض في استقلالية وأصالة .

(٧)

لكي نكشف الى ايّ حد كان نظام التعليم الغربي بعيد الخطر في أفق المجتمع الاسلامي نقدم هذه المجموعة من الحقائق :

(اولاً): إن دراسة اللغة الاجنبية هي ولاء فكري إذا لم تدرس في إطار اللغة الاصلية التي يجب ان تكون قد وضعت أمام اهلها بصورة خليقة بالتقدير. واللغة العربية الفصحى لغة قد شهد لها عشرات من الاجانب ، وتميزت بها لغة قوم ولغة فكر في آن ، وقد نزل بها القرآن فأضفى عليها طاقات من البقاء والامتداد ، ولكن ما تزال اللغات الاجنبية في موضع التفضيل .

يقول هامبون كبير: إن التغير الذي حدث في تكويننا الفكري والروحي نتيجة سيطرة اللغة الانجليزية كان تغييراً بعيد الأثر ، إننا ننظر الى العالم كله بمنظار إنجليزي ولا نتصل بالحياة الفكرية إلا عن طريق إنجلترا ولا نتذوق الآداب الاجنبية إلا كما يتذوقها الإنجليز بل إننا ننظر الى الآداب الشرقية بمنظار انجليزي .

ومن هنا كانت تلك المحاولات المستمرة الى انتزاع الدراسة العربية من حضارة الدين والقرآن ، وذلك بمحاولة انتزاع حرمة اللغة العربية وعزلها تماماً ووصفها بأنها لغة أمة من حقها ان تتصرف فيها ، وهو غير الحق تماماً.

لأن العرب وحدهم أو أي قطر من اقطارهم لا يملك حق التصرف في اللغة العربية التي يحكيها سبعمائة مليون من المسلمين .

ومع ذلك تجري محاولات متعددة لانتقاص الفصحى بدراسة اللهجات والآداب الشعبية وتطبيق نتائج دراسات اللغات الأجنبية عليها .

ثانياً : حرصت المدرسة العصرية على إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهد في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ، وذلك لتفويت الفرصة على الاجيال من ان تعرف جذورها ، أو تعرف بديلاً عنها علوم الغرب ، فهم لا يدرسون في التاريخ إلا الخلافات الدينية والمذهبية والخصومات التي وقعت بين الحكام والأمراء ، وذلك كله بعيد عن أصول دراسات التاريخ . وهم لا يدرسون إلا الفلسفات الاغريقية وصراع الايدولوجيات ولا يفرقون بين الفلسفة والعلوم بينما تفرق النظرة الاسلامية بين العلوم التجريبية والعلوم الانسانية وتجعل لكل منها منهجها الخاص ، وهي تقبل بمعطيات العلوم التجريبية وفق نظرة الاسلام الشاملة التي تؤمن بأن هناك حقيقة كبرى وراء كل القوى هي الحق تبارك وتعالى أساس التفسير الاصيل للحياة والكون والمجتمع وهي نظرة تقوم على الايمان بالله والنبوة والوحي والبعث والجزاء .

ذلك انه ليس من اليسير ان نفصل بين الاسلام وبين دراسات اللغة أو التاريخ أو العلوم ، فالاسلام بوصفه الاساس للتربية والموجه للتعليم في مجال الدنيا أولاً يتطلب ان تكون روحه واضحة بارزة في كل هذه العلوم ولا بد ان تكون العلوم الطبيعية والتجريبية قائمة على حقيقة التوحيد الاسلامي ، وعلى أساس الايمان بأن الله هو الخالق والصانع ، وأنه واضع القوانين وصاحب النواميس التي تحكم قوى الكون والتي تحكم نظم المجتمعات ، وان كل مجتمع يخرج عن طبيعة هذه النواميس يهلك ويدمر ، وان الله سبحانه وتعالى هو الذي يمسك

هذا النظام كله ويديره بعد ان صنعه من العدم ، وأنه لا تخفى عليه ذرة من الذرات أو شيء من الاشياء فهو محيط به وعليم ومدير . ومن شأن العلوم الطبيعية كما هو من شأن العلوم الاجتماعية ان تثبت التوحيد وتؤكد إرادة الله العليا على البشرية جميعاً كوناً وطبيعة وإنساناً ومجتمعات .

ثالثاً : يرد المستشرق جب والمستشرق ولفرد كابنتول سمث : الإباحية والإلحاد اللذين يسودان الشباب المسلم الى مناهج المدرسة العصرية ، يقول جب : إن النشاط التعليمي والثقافي (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك في المسلمين من غير وعي منهم أثراً جعلهم يبدوون في مظهرهم العام لادينيين الى حد بعيد ، ثم يعقب بقوله « وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحل العالم الإسلامي على حضارته من آثار » .

ويقول : إن التجدد والتفرنج في الشرق إنما هما خاضعان لمقياس نظام التعليم الغربي ومدى سيطرته وتغلغله في المجتمع الاسلامي الشرقي ، والسبيل الحقيقي للحكم على مدى «التغريب» أو الفرنجة هو ان نتبين الى أي حد يجري التعليم على الاسلوب الغربي وعلى التفكير الغربي .

والاساس الاول في كل ذلك هو ان يجري التعليم على الاسلوب الغربي وعلى المبادئ الغربية ، وهذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره . وقد رأينا المراحل التي مر بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الاسلامي ومدى ق تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين .

أما كابنتول سميث فيقول : إن أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التي تسود العالم الإسلامي اليوم ومن اكبر عواملها نفوذ الغرب ، وقد حازت قصب السبق في هذا المضمار تلك المعاهد الثقافية التي قامت بتربية جيل بأكمله على النمط للغربي الحديث . وكان مما صدره الغرب الى العالم الاسلامي تلك الأفكار المتعددة الجديدة التي تقع من الأهمية والدقة بمكان ، والاتجاهات

العقلية الدقيقة والميول الحديثة التي كان في نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي الحديث ، ويفوقها في ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية الجديدة ونفوذها الزائد .

ومنها ما يسلط اجيالاً وما يحاول تسليطه ، وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هذا التيار رحب به البعض الآخر ، ان بعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً وبعضهم قد رحب بهذا التيار بدافع من أنفسهم ، وانتج ذلك ان كثيراً من المسلمين اعترفوا بهذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة وخضعوا لها بالتدريج وهكذا استمر عمل التغريب بسرعة وقوة بالغتين . ولقد صرف تيار نظام التعليم الغربي الشباب الاسلامي في البلاد العربية والعجمية (الذين كانوا زبدة أمتهم وزهرة بلادهم) وغتير عقليتهم الى حد ان عقولهم أصبحت لا تستطيع ان تسيغ الاسلام الصحيح وأصبحوا لا يندمجون في المجتمع الاسلامي : «ان سحر الافرنج أذاب الصخور وأسأها ماء» .

ومن هنا نعرف الى أي حد أضعف النظام الغربي في التعليم الروح المعنوية في الشباب المسلم وجنى على رجولته «فأصبح شباباً رخواً رقيقاً مانعاً لا يستطيع الجهاد ولا يحتمل المكروه» وكيف فتح له الطريق الى الأهواء في عالم الفكر والبحث والى الترف والإباحية في محيط الحياة ، وكيف يحمل الدارس المسلم للغرب في ذهنه صورة رائعة بينما يحمل صورة ساخرة لمجتمعه وأمته .

وفي الجانب الآخر من هذه الصورة نرى الرجل الغربي المسلم : ليوبولد فابس «محمد اسد» يطلع المسلمين على الحقائق التي أخفاها المزيّفون من التغريبين فيقول : إن التعليم الغربي يحمل روحاً مستقلة وضميراً منفرداً تتجلى فيه عقيدة مؤلفيه وعقلية واضعيه وهو نتيجة التقدم الطبيعي في آلاف السنين وتمبير أفكار أهل الغرب ومجموع اقدارهم وقيمهم^(١) ، فإذا طبق في بلاد إسلامية

(١) نقلاً عن العلامة ابو الحسن الندوي .

أو مجتمع إسلامي يحدث به قبل كل شيء صراع عقلي ثم يتدرج الى تعزيز العقيدة والردة الفكرية والدينية .

ذلك وان الاسلام والمدنية الغربية يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً ، لا يمكن ان تتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك فكيف نستطيع ان نتوقع ان تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوروبية وعلى مقتضياتها خالصة من شوائب النفوذ المعادي للإسلام . إن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً الى زعزعة إرادتهم في ان يعتقدوا أو ان ينظروا الى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضارة الإلهية الخاصة التي جاء بها الاسلام ، وليس ثمة من ريب في ان العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين المتنورين الذين نشأوا نشأة غربية .

رابعاً : تستطيع التربية الاسلامية ومنهجها في التعليم ان تقدم للبشرية ذلك الطموح الذي طالما تطلع اليه المصلحون والطوبىون ، وهو مساهمة البشرية جميعاً في بناء المجتمع الرشيد ، وذلك عن طريق اعتناق نظرتها الى الانسان ككل موحد ، بعيداً عن محاولات تمزيقه بين الحيوانية والتأليه ، وبوصفه مستخلفاً في الارض ، له إرادته الحرة وعليه مسؤوليته الكاملة ، وامامة الضوء الكاشف الذي جاء به الوحي ليملاً نفسه بالطمأنينة والسكينة والسلام ويفتح له آفاق العمل والسعي في الحياة الدنيا خالصة لله ولإقامة الإخاء البشري بين الناس جميعاً .

وصدق الدكتور الجمالي حين قال إن اسس الاسلام في التربية والتعليم يمكن ان تفتح الطريق لكل اساس صحيح وثابت لبناء تربي قويم يقوم على :
(١) الايمان بالخالق .

(٢) العمل الصالح لخدمة الانسان والاسرة والأمة والانسانية .

(٣) التواصل بالحق : والسعي وراء الحقيقة وتحري العلم والمعرفة الصحيحة ونشرها بين الناس .

(٤) التواصي بالصبر : ويشمل العمل على ضبط النفس والتغلب على الشهوات والاندفاعات العنيفة الهوجاء ، فإن ضبط النفس يعد المفتاح لكل سلوك أخلاقي كريم وسورة «العصر» فيها تلخيص كل فلسفة تربوية صحيحة .
إن كلا من الإيمان والعمل الصالح والعلم والأخلاق يجب أن تسير معاً وبصورة موحدة منسجمة .

ويقول : ومن المؤسف أن التربية الغربية قد أظهرت ضعفها في هذه النواحي سواء في التطبيق في الغرب ذاته أو مما اقتبسه العالم الإسلامي من الغرب .

خامساً : إن نظريات الغرب سواء في العلوم أو الآداب أو التربية هي مجموعة من المحاولات والفروض التي تعرض على مجال البحث والتطبيق فتصدق أو تفشل ، فعلى المسلمين أن ينظروا إليها كذلك ولا يرونها حقائق أو مسلمات وإنما هي « تجارب بشر يخطئ ويصيب ويمشي ويتعثر » ولا نأخذها على أنها أشياء قد بلغت نهايتها ، بل إنها مواد خامة ونصنع منها ما نشاء وفق حالتنا وحاجتنا وتفرعها في قالبنا ونجردها مما افترن بها من عوامل الإلحاد والإفساد والاستخفاف بالقيم الخلقية ثم نطبعها بطابع الإيمان بالله والنظر العميق » (١) .

ولعل من أخطر ما يواجه الجامعات الغربية ويحاولون نقله إلى أفق التعليم الإسلامي ذلك الخلاف العميق بين الثقافتين : ثقافة العلم وثقافة الأدب . فإن العالم الغربي يعيش في صراع عميق بين جو العلم وجو الفلسفة وجو الفن وجو الأدب ويقولون : إن العلم الطبيعي والأدب قد شق الناس شقين فإذا اجتمع أحدهما بالآخر فكأنما اجتمع غريب من الناس بغريب وأهل العلم الطبيعي هم أهل الجفاف وأهل العلم الانساني هم أهل الطراوة .

(١) من نص للعلامة أبي الحسن الندوي .

ونحن في أفق التعليم الاسلامي لا نحس بهذه الظاهرة الخطيرة لأن مفهومنا للحياة جامع ومتكامل ولا يجعل بين العلم والأدب أي نوع من الصراع . أما في الغرب فكلاهما مخدوع ، العالم الذي يظن أنه عرف كل شيء ، وهو لم يعرف إلا تفسير ظواهر الاشياء ، والأديب الذي يجري في أودية الأهواء وال رغبات النفسية الجائحة ، لماذا لا يلتقي طرفا الصراع في منهج التربية الاسلامي الذي يجعل من العلم والأدب طرفين متكاملين لا عدوين متعارضين .

سادساً : لا سبيل الى قيام نهضة عربية إسلامية في مجال العلم التجريبي إلا في إطار اللغة العربية ، وكل دعوة الى قبول العلم في لغات الغرب هو تعويق لهذه النهضة ومحاربة لحجب المسلمين عن اللحاق بركب العلوم والتكنولوجيا ، وكل ما يذاع عن اتهام اللغة العربية بالتقصير خطأ وادعاء . فإن تجربة تعليم العلوم باللغة العربية قد قامت فعلاً في اخطر المجالات وهي الطب وحقت نجاحاً كبيراً . فما زالت اللغة العربية قادرة كأقوى لغات العالم على الاشتقاق والتعريب والتصريف ، وإن تجربة دراسة الطب في جامعة دمشق أثبتت بالحجج الدامغة نجاح التجربة وأوردت ما يفهم المعارضين . وما يوضح ان اللغة العربية قادرة على الاطلاع بأعباء التعليم الطبي والعلوم الأخرى (١) .

وقد سقطت تماماً الآن الحجة التي يتذرع بها خصوم العرب والمسلمين وهي مسألة المصطلحات العلمية والأسماء الجديدة فقد أوفى ما اهد منها على اكثر من خمسين الف مصطلح . ويحذرنا الأستاذ محمد أسد من خطر احتوائنا داخل بوقفة الفكر الغربي إذا ما أردنا نقل العلم التجريبي : « وإذا كان المسلمون قد أهملوا فيما مضى البحث العلمي فإنهم لا يستطيعون ان ينتظروا إصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول للتعليم الغربي من غير وازع ما ، إن كل تأخرنا

(١) دكتور عزة مريدن : عميد كلية طب جامعة دمشق (العربي نوفمبر ١٩٧١) .

العلمي وكل فقرنا لا يوزنان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الاسلام الدينية الكامنة . وإذا أردنا ان نحفظ حقيقة الاسلام الدينية الكامنة على أنها عنصر ثقافي فيجب علينا ان نحترس من الجلو الفكري للمدنية الغربية؛ ذلك الجلو الذي أصبح على وشك ان يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا، وبتقليد عادات الغرب وزيه في الحياة يصبح المسلمون تدريجياً مضطرين الى الأخذ بوجهة النظر الغربية .

ومن هنا نفهم أننا لا بد ان ننقل العلوم الى اللغة العربية أولاً ونحررها في دائرة فكرنا .

سابعاً : إن كل محاولة لرقق الثوب الخلق بقطعة من هنا أو من هناك هي محاولة باطلة ، فلا بد من إعادة بناء منهج التربية والتعليم الاسلامي على اساس قرآني إسلامي أصيل ، وفق مفهوم الاسلام نفسه ، وبذلك وحده يمكن تحرير التعليم من آثار مختلف المذاهب الغربية المادية المتغايرة المتضاربة التي حملت على مدى العصور المختلفة والبيئات المتباينة فوضعت داخل إطار التعليم حتى لا يصل أصحابها إلا الى الاضطراب الفكري والازدواج التربوي والتمزق النفسي وحتى لا يستطيع الدارس المسلم ان يجد وجهاً لرؤية الحق أو الاهتمام الى الطريق .

فهناك العقلانية والمادية والماركسية والوجودية والفرويدية والبرجماتية والديوية ، كلها متضارب وتعاكس وتفسد كل شيء ، ويقف الاسلام منها في أصوله القليلة المنشورة هنا وهناك موقف الحيرة كأنه شيء غريب أو منبوذ . والسبيل الاصيل هو ان يكون للعلوم التجريبية منهج وللعلوم الإنسانية منهج آخر وان لا يدرس الانسان في دائرة المادة أو دائرة الحيوان .

والمسلمين قانون هو الشريعة الاسلامية وفيه نظام السياسة ونظام الاقتصاد ونظام الاجتماع ونظام الحقوق . ولهم وجهات نظر في كل أمور الحياة هي

الآن بعيدة تماماً أو مستبعدة ، وكذلك فإن للمسلمين علماً للنفس والاخلاق ومفهوماً متكاملًا يختلف عما تقدمه مدرسة التحليل النفسي ومدرسة دوركايم ومدرسة العلوم الاجتماعية ، ونظرة الاسلام للانسان والحياة والمجتمع مختلفة اساساً مع نظرة الغرب ، فهي نظرة جامعة فيها الروح والمادة والعقل والقلب ، بينما تنشطر النظرة الغربية نحو شطر واحد هو المادة ، ونظرة الاسلام اخلاقية الجذور بينما تقوم النظرة الغربية على الحرية الأخلاقية ، ونظرة الاسلام تجمع بين الثواب والمتغيرات بينما النظرة الغربية متغيرة مطلقة . كل هذا له أثره البعيد في ضرورة بناء منهج التربية والتعليم من جديد .

ثامناً : نحن نجد ان جميع الأمم تربط علومها بعقيدتها وتربط تعليمها بمذهبها وتجربة الدولة الشيوعية مثال يقدم في هذا الصدد باعتبارها دولة عقائدية فهذه «روسيا لم تأخذ بمبدأ التعليم والتربية من حيث هو مبدأ إنساني عالمي وتراث بشري مشاع ، وماء صافٍ سائغ ولم تسمح باستيراد منهج من مناهج التعليم خارج المعسكر الشيوعي ولا بإدخال العلوم والآداب التي نشأت في حضارة المربين البرجوازيين أو الأرستقراطيين والتي طعمت بأفكارهم ونزعاتهم وطرق تفكيرهم ويخاف منها إضعاف العقيدة الشيوعية أو التشكيك فيها . لقد اخضعت روسيا جميع العلوم والآداب النظرية فيها والتطبيقية حق علوم الطبيعة والجغرافيا والتاريخ لمبادئ الشيوعية ولنظرات قادتها ومؤسسي دعوتها : ماركس وإنجلز ولينين ، وربطت بين هذه العلوم وبين اسس أولئك القادة رباطاً وثيقاً مقدساً تغار عليه غيره المؤمنين القدامى على عقائدهم وحرمااتهم ، يقول جورفن العالم الطبيعي السوفييتي : « إن العلم الروسي ليس قسماً من اقسام العلم العالمي ، إنه قسم منفصل قائم بذاته يختلف عن سائر الاقسام كل الاختلاف ، فإن سمة العلم السوفييتي الأساسية انه قائم على فلسفة واضحة متميزة ، إن التحقيقات العلمية لا تزال في حاجة الى اساس وإن اساس علومنا الطبيعية هو «الفلسفة المادية» التي قدمها ماركس وإنجلز ولينين وستالين . إننا نريد ان نخوض وفي ايدينا هذه الفلسفة في معترك العلم

الطبيعي ونصارع جميع التصورات الأجنبية التي تناهض فلسفتنا المادية والماركسية بكل حزم وقوة ، .

وبذلك استطاعت ان توفق بين العلوم التي احتاجت اليها والمبادئ التي آمنت بها وجعلت منها وحدة متناسقة ولم تترك فجوة بين الحياة التي تعيشها او تسمى اليها وبين المبادئ التي تؤمن بها وتدعو اليها في حماسة وبذلك سلمت من الاضطراب الفكري والقلق النفسي الذي يسود عالماً فتوزعه القوى المتناقضة ويسوده النفاق والتناقض ، (١) .

وكذلك نجد في إسرائيل بعد الاتحاد السوفييتي نظرية التعليم من اجل دعم نظرية الحياة لأمة ، فهي تتمسك بمبدأ تقديم الفكرة الدينية واللغة العبرية التي تعبر عنها رغم جميع الاتجاهات التقدمية ، ويرى المربون اليهود ان التقاليد الدينية اليهودية هي النبراس الذي تهتدي به نظم التعليم ويحتم على المعلمين ان يكونوا تقليديين ، اي ان يحرصوا على التقاليد اليهودية الأصولية (٢) .

١ و ٢ الأستاذ الندوي : نحو تربية إسلامية حرة .

الفصل الثالث

الثقافة الاسلامية

« الثقافة » هي الشطر الثالث من بناء الأجيال : فإذا كانت (التربية) لاعداد النفس والعقل الإنساني معاً لتلقي في إطار الدين والخلق والرسالة القائمة للأمة ولل فرد معاً ، وإذا كان (التعليم) هو بناء القدرات وتكوين الأطر ، وتلاقي العناصر في الكل المتكامل فإن (الثقافة) هي الثمرة الناتجة التي تمثل جوهر الفكر وأصالة الأمة وروح الجماعة .

ولقد كان النفوذ الغربي حريصاً على تغريب الثقافة لأنها هي الحصيلة الكبرى والنتاج الأعلى لكل معطيات التربية والتعليم ، ولذلك فقد ركز عليها تركيزاً خاصاً ، واستطاع ان يضر بها من خلال إفساد مناهج التربية والتعليم وصولاً الى تميمها وصهرها في بوتقته واحتوائها .

ولذلك فقد جرت المحاولة الى تزييف اجيال الثقافة بالقول بأنها نتاج عالمي لا يخضع لما تخضع له القيم القومية والوطنية ، كما جرت المحاولة لربطها بالحضارة فنودي ان من يصطنع الحضارة الغربية لا بد ان يصنع الثقافة الغربية ، وكان ذلك من محاولات تنبيع الثقافة الإسلامية للغرب في محاولة للقضاء عليها .

ولا ريب ان ثقافة اي امة من الامم تعتمد اساساً على عقائدها وقيمتها الاخلاقية والاجتماعية التي تكونت عليها وسارت بها وانها تقوم في الأساس على المثل العليا للأمة ، وتنطبع بطابع ذاتيتها الخاصة . ولقد تلتقي الأمم في مجالات العلم التجريبي والمعارف العامة ولكنها تتباين تماماً في مجال الثقافة ، فإن النظرة الاجتماعية والأخلاقية والتربوية في كل أمة تشكل على أساس وجدانها ومزاجها النفسي وذاتيتها المنبعثة من عقيدتها وقيمتها .

وذلك هو أساس الخلاف بين الثقافة الاسلامية وبين الثقافات المختلفة : شرقية أو غربية ، ولا ريب ان هناك عناصر مشتركة بين الثقافات هي العناصر الإنسانية العامة ولكن اخطر ما تحاذر منه الأمم ان تحتوى في ثقافتها بحجب طابعها العقائدي أو تزيفه ، وهذا ما حاولته حركة الفوز الفكري والتغريب التي واجهها العالم الاسلامي منذ ان بدأت المعركة بينه وبين الغرب .

والمحاولة الطارئة تريد ان تحجب الثقافة الاسلامية عن طابعها العقائدي من ناحية وان تعزلها عن تاريخها وقديعها وعن تراثها ، وذلك بتصور ان الثقافة الحديثة بدأت مع الحملة الفرنسية وان كل ما سبق ذلك يدخل في عداد الماضي ، فلا يؤذن له بالسيطرة أو التأثير على التكوين الجديد للثقافة أو الفكر أو الأدب .

وتلك نظرية مسمومة حاربت بها حركة الميظنة الإسلامية بقوة وقاومتها مقاومة صامدة مبررة حتى كشفت زيفها .

ونحن نعرف أنه لا سبيل الى انقزاع أي أمة تحت أي تقسيم سياسي ، على اساس الوطنية أو القومية أو التجزئة أو الاقليمية عن ذلك الكيان الفكري والروحي والنفسي المتكامل الذي عرفه المسلمون جميعاً خلال اربعة عشر قرناً .

وإن هذه التقسيمات التي فرضها الاستعمار لن تستطيع ان تغير الحقائق الثابتة أو تحطم القيم الأساسية، وإن المسلمين مهما قسمتهم الظروف السياسية الى أقطار ودول وكيانات فإنهم لا ينفكون مرتبطين برابط وحدة الفكر والثقافة التي تقوم في الأساس على القرآن وتستمد وجودها من كلمة التوحيد. وقد ارتبطت الأمم بعقائدها وتراثها وتاريخها وماضيها ارتباطاً عجزت كل القوى عن الإدالة منه . أما المسلمون فقد قامت هذه الروابط بينهم خلال اربعة عشر قرناً فأصبحت هذه الأوطان « إسلامية التاريخ والسياسة والمجتمع والثقافة » الى ان جاءت نظم التربية الحديثة فأرادت ان تنزع عنها هذا اللون المميز لها عن جميع الثقافات الاخرى .

واجهت للثقافة الاسلامية في ظل النفوذ الاجنبي محاولة احتوائها وفرض مفاهيم غريبة عليها بغية تدمير مقوماتها وكان ذلك جرياً مع المحاولات التي وجهت الى الغربية والتعليم ، فكان ابرز الشبهات التي أثرت ما دعي بعالمية الثقافة ، وتفتح الثقافات والتقاءها بل وامتزاجها .

وهي دعوى باطلة لم يثبت صدقها ، بل ثبت على العكس من ذلك تصميم الباحثين عن الثقافة في كل آفاق الفكر العالمي على التمسك بذاتية الثقافة وارتباطها بالامة وانتمائها العقائدي والتاريخي .

فالثقافة في إجماع الباحثين هي موقف فكري وعمل من تراث البشرية وهي تحقيق للقيم الثابتة في أمة معينة ، وهي نسيج وحده من النظم والأفكار والعقائد والأهداف والآمال والمثل العليا . كذلك فإن لكل مجتمع ثقافته التي يتسم بها ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها التي تحدد شخصيتها ، بل لقد رأى البعض ان الثقافة ليست مجموعة من الأفكار ولكنها نظرية في السلوك . وان الحضارة والعلم ينتقلان من امة الى امة لقابليتهما للانتشار ، أما الثقافة فتبقى خاصة بكل امة على حدة وإن أثرت ثقافات الأمم بعضها في بعض قليلاً أو كثيراً ، وفي نظر سينكلر ان الثقافة هي القوة الروحية المخصصة الوجود في الأمة بالصورة الحسية بمعنى ان هذه القوة الروحية المتصلة بها آثار

النشأة الدينية والعلمية مزاج يختلف عن مزاج . بل إن (تايلور) وهو باحث غربي ايضاً يقرر ان الثقافة هي الككل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والاخلاق والقوانين والعبادات وأي قدرات وخصال يلمسها الانسان نتيجة لوجوده كعضو في المجتمع .

كذلك فقد حاولت الشبهات ان تفصل الثقافة عن العقيدة ، بينما يؤكد الباحثون جميعاً بأن الثقافة تكاد تكون هي العقيدة نفسها . وان الرابطة بين الثقافة والدين هي رابطة جذرية بحيث لا يمكن لأي ثقافة من الثقافات ان تظهر أو تنمو إلا إذا كانت لها صلة بدين من الأديان . وقال البيوت : إن الثقافة مظهر من مظاهر الدين ، فإذا نظرنا الى علاقة الاسلام بالثقافة وجدنا الاسلام نظاماً اجتماعياً شاملاً يعيد الدين جانباً من جوانبه فقد رسم لمعتقديه اسلوب العيش وطريق الحياة . وليس من ريب في أهمية عنصر الدين في الثقافة الاسلامية من حيث إنه العامل المسيطر على حياة المجتمع كله حتى لقد أشار بعض الباحثين الغربيين بأنه من العسير على الغربي ان يفهم حياة الشرق الاجتماعية دون ان يفهم الاسلام وهو الدين الذي تدين به الجماعة ، ولعل من أكبر اخطاء الغربيين وقصور نظرتهم وبعدها عن الإنصاف هو النظر الى الاسلام على أنه دين عبادي لاهوتي .

وفي ضوء هذه المحاولة الخطيرة نحن في حاجة دائمة الى المحافظة على الخصائص والمقومات الجوهرية للثقافة الاسلامية مع القدرة على الحركة والأخذ والعطاء .

وليست الثقافة الاسلامية كما يظن البعض شرقية وليست غربية وليست مركباً للثقافتين الشرقية والغربية ، ولكنها ثقافة مستقلة استمدت وجودها من منهج القرآن الكريم ومفهوم الاسلام الذي قام على التوحيد الخالص ، في إطار اللغة العربية .

وهي ثقافة تنفرد وتتميز عن ثقافات الشرق والغرب بأنها تقوم على

التكامل الجامع بين القوى المختلفة : الروح والمادة ، العقل والوجدان ، الدنيا والآخرة وان توازن بين هذه القوى وقوائم بينها في اتساق عجيب يعجز عن فهمه اصحاب الثقافات الانشطارية .

وتتسم الثقافة الاسلامية بسهات تكاد تكون خصائص مميزة لها : فهي توازن بين الروحي والمادي ، وتجعل أولية « الخلقى » على الجمالى وتقرر طابع الإنسانية والشعور بكرامة الانسان وتعمل على إقامة الأخوة الإنسانية .

وهي تطبع حركتها بطابع الأخلاق ، وتقيم منهجها على أساس الالتزام الأخلاقى فى السلوك والعاطفة ، وفى ضوابط الشهوات وفى الإيثار للغير . وهي ترمى الى إقامة العدل ، وتتسم بالنظر العقلى ، فيها البيان والوضوح بعيداً عن الغموض والرمز ، كما تتسم بالاتزان ، والإحاطة والشمول .

والثقافة الاسلامية هي ثقافة عربية من حيث الوعاء فبقدر ما دخل الإسلام من الفرس والترك والهنود فإن كل منجزات الثقافة كتبت باللغة العربية إلا القليل ، فقد جرى التفكير فى دائرة الاسلام وإطاره ، وكانت اللغة العربية : لغة القرآن هي أدواته ، كتب بها الفارابى التركى وابن سينا الفارسى وابن الرومى .

فهي ثقافة إسلامية المضمون عربية اللسان ، شاركت فى نشأتها شعوب مختلفة الأجناس انطبع فكورها بروح الاسلام التى استعملت على العنصرىات والدماء والألوان ولأن الثقافة الإسلامية قامت على التوحيد فقد تحررت تماماً من الخرافات والوثنيات والأساطير والعصبىات .

وكان لها موقفها الواضح الصريح إزاء الثقافات الشرقية والغربية التى واجهتها ، فهي لم تنصهر فى هذه الثقافات ولم تنصهر هذه الثقافات فى بوتقتها ، بل أخذت منها ما يتفق مع روحها وطابعها ثم صهرت ما أخذت ونفت عنها كل ما عارض مقوماتها الأصيلة .

وقد رفضت الثقافة الاسلامية منطق اليونان وأقامت منطق القرآن كما تجاوزت منهج النظر العقلي الى منهج التجريب العملي وفتحت الطريق أمام التقدم العلمي في مجال الطب والفلك والعلوم الطبيعية والرياضية ، فقد بدأ المفهوم العلمي عند المسلمين مستمداً من القرآن الكريم اساساً ومن دعوته الصريحة الى النظر في الكون والاهتمام بالعلم وآية ذلك ان كلمة علم وردت في القرآن (٨٥٠ مرة) وان أول أمر استخدم في القرآن هو كلمة « اقرأ » وان أول أداة ذكرت في القرآن هي (العلم) والاسلام هو الذي أمر معتنقيه باتباع المنهج العلمي والقرآن هو الذي أطلعهم على ان للكون سنناً وقوانين ليس فقط في مجال الطبيعة بل وفي مجال المجتمعات والحضارات .

وقد تبين للباحثين المصنفين خطأ الرأي الذي حمل لواءه (أرنست رينان) والذي ساد بين دعاة التجريب سنوات طويلة وتابعه كثير من المتعصبين واعداء الاسلام وهو القائل بأن الفلسفة الاسلامية هي فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية. وتؤكد ان للاسلام منطقاً الى فلسفته هو ما قدمه الامام الشافعي في علم أصول الفقه وثبت أنه لا منطق أرسطو ولا الفلسفة الهلينية أو الفارسية أو الهندية قد خلقت أو حولت الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية عن مسارها القرآني ، وإنما بقي الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية ثمرة أصيلة للتوحيد الاسلامي وأنه قد تجاوز الفكر اليوناني الى إنشاء المذهب التجريبي الذي هو نتاج إسلامي خالص بشهادة مختلف علماء الغرب المنصفين .

إن اخطر قضايا الثقافة الاسلامية هو قضية الازدواجية :

وقد ناقش العلامة الاستاذ محمد المبارك هذه القضية في بحث ضافٍ أشار فيه الى ان الثقافة التي تكون الجيل المسلم في البلاد الاسلامية في العصر الحاضر مزدوجة المصدر ومؤدية بالنتيجة الى عقليتين مختلفتين .

فهناك ثقافة تلقن في المدارس التي أنشأتها الحكومات في البلاد الاسلامية على نمط المدارس المنشأة في البلاد الأوروبية من ابتدائية وثانوية وعالية ، وهذه الثقافة بشكلها الحاضر وجميع ملابسها أخذت واقتبست من الثقافة الاجنبية وهي محتوية على مواد علمية خالصة : كالرياضيات والطبيعيات بفروعها المختلفة وعلى أفكار وعقائد ومفاهيم مأخوذة من العقائد والمفاهيم السائدة في أوربا . أكانت مادية إلحادية أم دينية وعلى أساليب للتعليم وطرائق للبحث وهي نتيجة لتجارب طويلة واختبارات متوالية ، وقد ألصق احيداناً بهذه الثقافة رقعة متميزة عنها هي (مادة الدين) وفيها يعلم الاسلام وأحكامه وعقائده وهي مائة في كثير من البلاد الاسلامية تختلف في طريقة عرضها وتعليمها وفي مفاهيمها ومنطلقها اختلافاً كبيراً عن بقية المواد الثقافية ولذلك لا يكون أثرها قوياً بل قد يحدث التنافر بين هذين اللونين من الثقافة نتائج سيئة في عقول الطلاب ونفوسهم .

إن هذه الثقافة المقتبسة من بلاد تختلف عن البلاد الإسلامية في عقائدها وأفكارها وفي عاداتها ونظام حياتها بقيت هي الأسس للنظام الثقافي في البلاد الإسلامية وفي جميع دوجات التعليم من ابتدائي وثانوي وجامعي ورلدت في أبناء المسلمين عقلية مشابهة للعقلية الأوروبية في مفاهيمها وأفكارها ونظرتها للحياة ، ولا قيمة بعد هذا لبعض المظاهر الإسلامية أو الشعائر الدينية التي قد يحافظ عليها بعضهم لأن الأساس الفكري ليس أساساً إسلامياً سليماً ولا يولد تفكيراً ولا سلوكاً إسلامياً في الحياة الفردية والاجتماعية ، ذلك لأن الجو العام لهذه الثقافة هو جو فلسفة خاصة مغايرة للإسلام ، لأن الثقافة حتى في المواد العلمية الخالصة منها كالكيمياء والفيزياء شحنت بأفكار لا علاقة لها بها في الأصل ولا هي من مستلزماتها ولكنها دست فيها وخالطت نظرياتها وتجملت في تعابيرها حتى كان هنالك اقتران بين هذه العلوم التي تدرس الطبيعة والمادة والمذاهب الفلسفية الطبيعية والإلحادية التي عاشت معها وعاصرتها في أوروبا .

إن هذه العلوم الطبيعية ضرورية جداً ولكن يجب تحريرها مما علق بها وصياغتها صياغة جديدة تتفق مع العقيدة الإسلامية أو لا تعارضها على الأقل . كما أن هذه الثقافة الحديثة يجب أن يستفاد مما تشتمل عليه من أساليب العرض الحسنة ومناهج البحث الصحيحة ، ففيها الكثير النافع مما وصلت إليه تجارب الإنسان في تقدمه الفكري والحضاري .

أما المصدر الثاني للثقافة في البلاد الإسلامية فهو الثقافة الإسلامية الموروثة وهي التي تعلم في حلقات العلماء والمدارس الدينية القديمة التي استمر بعضها والمعاهد العالية كالأزهر والزيتونة والقرويين .

إن هذه الثقافة إسلامية الأساس ولكن تعاقبت عليها القرون واختلطت فيها المذاهب والآراء وتشعبت بها الطرق والمسالك حتى غدت خليطاً من تعاليم الإسلام في كتابه الكريم وسنته النبوية ، ومن طرائق المتكلمين على

اختلاف منازعهم ومذاهبهم وما شاب الكلام من الفلسفة اليونانية وافكارها ومن مذاهب الفقهاء ولا سيما في العصور التي ضعفت فيها المداير وانحط فيها التأليف ، وضاعت فيها مذاهب التفكير وابتعدت عن مصدري الاسلام الأساسيين « الكتاب والسنة » وسد باب الاجتهاد ، والتزمت فيها أقوال الشيوخ ، دون النظر الى دليل الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وكبار الائمة المجتهدين ، أضف الى ذلك كله ما خالط الثقافة الاسلامية من علوم اخرى لا تزال قد درس كما كانت في العصور السالفة ، مع ان تقدماً كبيراً طرأ عليها وتغيرت نظرياتها وحقائقها تغيراً أساسياً : كالفلك وسائر العلوم الطبيعية وليست هي في الاصل من العقائد حتى لا تتبدل أو من العبادات حتى يتوقف عندها ، بل هي من تجارب الانسان في هذا الكون ومن علمه وتأمله فيما خلق الله (الذي يزداد يوماً بعد يوم) .

إن العقلية التي تكونها هذه الثقافة الاسلامية القديمة تختلف اختلافاً كبيراً عن العقلية التي تكونها الثقافة الحديثة ومن هنا ينشأ الصراع في المجتمع بين عقليتين ويظهر هذا الصراع في مجالات كثيرة في التربية والتعليم وفي المجتمع والسياسة وفي غيرها من المجالات . وهو صراع له نتائجها سواء أكانت الجبهة المنتصرة هذه أو تلك ، لأن الصراع بني على اساس فاسد ولأنه صراع خاطيء يصور الاوضاع على غير حقيقتها ويجعل المسلمين في جبهتين وهم ليسوا كذلك ، وليس كل ما في الثقافة القديمة واجب الالتزام اسلامياً وليست كل عناصره اسلامية حتى يجب الدفاع عنها وكذلك الثقافة الحديثة ليست كلها منافية للاسلام حتى توضع موضع الخصومة .

ولذلك يقترح العلامة محمد المبارك وضع نظام ثقافي إسلامي موحد غير مزدوج الروح والمصدر يستهدف صبغ التعليم في جميع درجاته وألوانه بالصبغة الاسلامية أي ان يكون الجو العام للثقافة والتعليم هو جو العقيدة والمفاهيم الاسلامية مع اختيار الطرق والاساليب الصالحة المناسبة لتعليم الدين وإدخاله

في النفوس ووصل ما بين الدين والحياة بعرض المشكلات الحاضرة على اختلاف أنواعها على أساس الاسلام ونظراته وسد حاجات المجتمع الاسلامي عن طريق التعليم بمختلف تخصصاته ودرجاته .

والوقوف أمام الأنظمة الثقافية الأخرى التي غزت العالم الاسلامي بإحداث وعي إسلامي عام بحيث يكون هذا الوعي -العقلي والنفسي- وعياً لمبادئ الاسلام وتعاليمه وقضايا الاسلام الكبرى في العصر الحاضر ووعياً لوحدة العالم الاسلامي ومصادر قوته وما يحايطه من أخطار .

(٤)

إن النظرة الفاحصة لوجوه الالتقاء والاختلاف بين الثقافة الإسلامية والثقافات الغربية تجد محاذير كثيرة جدية بأن تكون واضحة أمام الباحث المسلم :

(أولاً) لا ترى الثقافات الغربية أن الدين جزء أساسي من تكوين فكرها وثقافتها وترى أن المسيحية الشرقية كانت عارضاً من العوارض التي التقت بها وأصابتها بالانحراف لأنها نقلت إليها « روح النسك » الآسيوية ، ولكن الثقافة الغربية استطاعت امتصاص هذا الرافد وصهره في روحها الأساسية التي تدين للوثنية اليونانية وحضارة روما القديمة .

بينما تؤمن الثقافة الإسلامية بالدين جزءاً أساسياً لا ينفصل عن المجتمع .
(ثانياً) تؤمن الثقافة الغربية بأن محتواها العلمي والأدبي والفني والصناعي إنما يهدف إلى خدمة الإنسان الأوربي قبل غيره وعلى حساب غيره ، وليس إلى خدمة الإنسان بصفة عامة أو من حيث هو بشر .

بينما تؤمن الثقافة الإسلامية بالطابع الإنساني وترى أن قيمها إنما هي لخدمة البشرية جميعاً .

(ثالثاً) تؤمن الثقافات الغربية بحلول للمشاكل والقضايا على قاعدة للقوة

وأسلوب الميكافيلية التي تنفصل فيه الاخلاق عن السياسة وعلى قاعدة الغاية التي تبرر الوسطة .

بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بالحلول الأخلاقية ولا تبرر الوسيلة عندها الغاية ، بل لا بد للغايات الشريفة من وسائل شريفة .

(رابعاً) تقوم الثقافة الغربية على أساس انفصال الضمير عن العلم وسيادة المادة على الضمير ، بينما تؤمن الثقافة الاسلامية بأن الضمير أساس العلم والحضارة .

(خامساً) تنطلق الثقافات الغربية من نظرة تحاول ان تصور الانسان بأنه عبد لغرائزه ونزواته وان العقل الباطن هو العامل المسيطر في توجيه حياته ، وبهذه النظريات أدخلت الانسان الى حظيرة الحيوان ، وهذه المفاهيم تتعارض تماماً مع مفاهيم الثقافة الاسلامية التي ترى للانسان كرامة تعلو على المخلوقات جملة وترى له سيادة تحت حكم الله ترفعه بالعقل وتكرمه بالايان .

(سادساً) تعلي الثقافات الغربية العنصريات والأجناس والدماء ، وتحاول ان تجعل البيض والغربيين امتيازاً على الأجناس الملونة . وتحاول بهذا الإعلاء ان تجعل لها حق السيطرة والقيادة .

وهذا المفهوم يختلف تماماً مع مفهوم الثقافة الاسلامية التي ترى ان الناس سواسية وإخوة ، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل .